

تراث الإسلام

٣

عمدة النفسير

عن
الحافظ ابن كثير

٧٧٤ — ٧٠٠

اختصاره وتحقيقه

بقلم

أحمد محمد شاكر

الجزء ١



هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذَرُوا بِهِ

عمدة النفسير

الجزء ١

لِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِرُحْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَةِ

الحمد لله حقَّ حمده ، حمداً وشكراً ، نسأل ربَّنَا عز وجل أن يتقبَّلَهما بفضلِهِ
وكرمه ، وأن يجعلَهما خالصَيْن لوجهه الكريم . ونرجو أن نستوجبَ بهما المزيد
من فضله ونعمائه ، إنه الجواد الكريم ، البرّ الرحيم . لا نحصى ثناءً عليه ، هو
— سبحانه — كما أثنى على نفسه . إنه العليّ الأعلى . ليس كمثله شيءٌ وهو
السميع البصير .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الأُمِّي ، سيد المرسلين وإمام المهتدين
وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه ، وسلّم تسليماً كثيراً .

وبعدُ : فإن تفسير الحافظ (ابن كثير) أحسنُ التفسيرات التي رأينا وأجودُها
وأدقُّها ، بعدَ تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري .

ولسنا نوازنُ بينهما وبين أئمةٍ تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلَهما
ولا ما يقاربُهما .

وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسّر القرآن بالقرآن أولاً ، ما وَجَدَ
إلى ذلك سبيلاً . ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيانُ لكتاب الله . ثم يذكر
كثيراً من أقوال السلف في تفسير الآي .

وإنه ليزكر الأحاديث — في أكثر المواضع — بأسانيدها من دواوين
السنة ومصادرها . وكثيراً ما يذكر تعليلَ الضعيف منها . ولكنه يحرص أشدَّ

الحرص على أن يذكر الأحاديثَ الصَّحاحَ ، وإن ذكر معها الضَّعَافَ .
فكتابُهُ — بجانب أنه تفسِيرُ للقرآن — معلِّمٌ ومرشِدٌ لطالِبِ الحديث ،
يعرفُ به كيف يَنْقُذُ الأسانيدَ والمتونَ ، وكيف يميّزُ الصحيحَ من غيره . فهو كتاب
— في هذا المعنى — تعليميٌّ عظيمٌ ، ونفعُهُ جليلٌ كثيرٌ .

وكان اتَّصَلْنَا به منذ أكثر من خمس وأربعين سنة ، في طبعته الأولى ببولاق ،
التي طُبِعَ فيها بهامش تفسير آخر من سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٢ . وهي طبعة محرفة
لا يكادُ يُنْتَفَعُ بها نفعاً صحيحاً .

ثم طبعه أستاذنا السيد محمد رشيد رضا رحمه الله — ومعه تفسير البغوي —
في مطبعة المنار في تسعة مجلدات ، من سنة ١٣٤٣ — ١٣٤٧ ، بأمر جلالة الملك
إمام أهل السنة ومحبي مذهب السلف ، وباعث النهضة الإسلامية والعربية الإمام
(عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) رحمه الله رحمةً واسعةً وأُسْكَنهُ
فسيح جناته .

واجتهد أستاذنا رحمه الله في تصحيحه ما استطاع . ولكن فاتته من ذلك
الشيء الكثير .

ثم تداولت المطابع في مصر طبعه طبعاتٍ تجاريةً ، ليس فيها تصحيح
ولا تحقيق ولا مراجعة . إنما اعتمدوا طبعة المنار ، فأخذوها بما فيها من أغلاط ،
ثم زادوها ما استطاعوا من غلط أو تحريف .

فكان انتفاعُ الناس بهذا التفسير العظيم انتفاعاً قاصراً ، لما امتلأت به طبعاته
من غلط وتحريف . يجب معهما أن يُعادَ طبعه طبعةً علميةً محققةً ، يُرجَعَ فيها
إلى النسخ المخطوطة منه ما أمكن ، ثم الرجوعُ إلى مصادر السنة التي يُنْقَلُ عنها
المؤلفُ الإمامُ الحافظ ، وإلى مراجع رجال الحديث والتراجم ، لتصحيح أسماء
الرجال في الأسانيد — وهم شيءٌ كثيرٌ ، وعدد ضخمٌ .

هذه ناحية . وناحية أخرى : أن القارىء المتوسط ، الذى يريد أن يصل إلى المقصد الأول من التفسير ، وهو فهم الآيات الكريمة على معناها الصحيح ، الذى يؤيده الكتاب والسنة الصحيحة — يجد أمامه بحراً خصباً لا يكاد يدرك ساحله ، من الأسانيد والآثار والأقوال ، ودقائق العلم فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال . مما يجب معه أن نهد الطريق لهذا القارىء المتوسط ، ونيسر له السبيل . فنضع بين يديه مقاصد هذا التفسير العظيم قريبة صافية ، يفهم منها القرآن الكريم فهماً صحيحاً . لا يخوض معه غباب الأبحاث الفنية الدقيقة فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، ولا يطغى عليه اختلاف ألفاظ المفسرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وهى فى الأكثر الأغلب ترجع إلى معنى واحد فى تفسير الآيات .

وقد بدا لى أن أقوم بالعملين : نشر هذا التفسير فى طبعة علمية محكمة متقنة . وإخراج مختصر منه للقارىء المتوسط يحفظ عليه مقاصده — إن شاء الله ذلك ويسره ووفقنى له .

ثم رأيت أن أبدأ بالذى هو أيسر وأقرب للناس — وهو التفسير المختصر — وإن كان العمل فيه أكثر مشقة ، وأصعب دقة . بعد طول تردد ، وعمق تفكير ، واستشارة كثير من الإخوان العارفين بالخلصاء الأمانة على العلم والدين . جزاهم الله عني وعن العلم أحسن الجزاء ، ووفقنى وإياهم للعمل الصالح ، والعلم النافع .

واعتمدت « مخطوطة الأزهر » أصلاً لتصحيح نصوص الكتاب . وهى أقرب إلى الصحة من كل طبعاته . والخطأ من الناسخ فيها قليل ، يمكن تداركه بسهولة .

وسأتى وصفها فى فصل خاص ، إن شاء الله .

وسميتُ هذا المختصر : (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير) وأرجو أن يكون المُسمّى جديراً باسمه ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

منهج الاختصار

- ١ - حافظتُ كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير ، الميزة التي انفرد بها عن جميع التفاسير التي رأيناها ، وهي تفسيرُ القرآن بالقرآن ، وجمعُ الآيات التي تدل على المعنى المراد من الآية المفسرة أو تأييده وتقويته . فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ في ذلك .
- ٢ - حافظتُ على آراء الحافظ المؤلف وترجيحاته في تفسير الآيات ، مجتهداً في إبقاء كلامه بحروفه ما استطعتُ .
- ٣ - اخترتُ من الأحاديث التي يذكرها أصحابها وأقواها إسناداً ، وأوضحها لفظاً . فإن المؤلف رحمه الله كثيراً ما يذكر الحديث الواحد برواياتٍ متعددة ، ومن أوجهٍ مختلفة .
- ٤ - حذفتُ أسانيد الأحاديث التي أذكرها . فإن الحافظ ابن كثير يذكر الأحاديث بأسانيداً مفصلةً من دواوين السنة . فيقول مثلاً « قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا . . . » — ثم يسوق الإسناد والحديث . ثم كثيراً ما يذكر بعده تخريجه من الصحاح والسنن وغيرها ، بأسانيدها كاملة أو بالإشارة إلى الأسانيد .
- ٥ - فاكثفت من ذلك بذكر الحديث عن الصحابيِّ راويه ، أو التابعي إذا كان الصحابيُّ غير مُسمّى . ثم أذكرُ بعد ذلك مَنْ رواه من الأئمة ،

معتمداً في ذلك على ما ذكره المؤلف رحمه الله ، وهو حجةٌ في ذلك . فلم أرجع إلى المصادر التي يذكرها إلا عند الضرورة القصوى ، لتحقيق لفظ الحديث ، أو لغير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة ، التي تتعلق بالرواية أو الدراية . ولم أزد على تخريجه إلا ما لم يكن منه بُدٌّ .

٦ — حذفْتُ كل حديث ضعيف أو معلول ، إلا أن يكون إثباته في موضعه ضرورةً علميةً : لرفع شبهة ، أو بيان معنى حديث صحيح بحديث ليس ضعيفاً بمرّةٍ ، أو ردِّ على احتجاج به لذى هوئى أو ضغنٍ على الإسلام وأهله . أو غير ذلك من المقاصد العالية .

٧ — حذفْتُ المكرَّر من أقوال الصحابة في التفسير ، وكثيراً من آراء التابعين ، اكتفاءً ببعضها . خصوصاً وأنها كثيراً ما تختلف لفظاً وتنفع أو تتقارب معنئى ، كما قال المؤلف الحافظ رحمه الله (ص ٤٥ من ١١) : « والكل بمعنئى واحد فى أكثر الأماكن » .

٨ — نفيتُ عن كتابى هذا كلَّ الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها . فإن المؤلف رحمه الله قد جدَّ بها^(١) فى مواضع كثيرة من تفسيره ، وأبان عن خطأها وضررها ، وأنحى باللائمة على روايتها ورؤايتها ، ورسم لنفسه خطةً فى شأنها . ومع ذلك فإنه — فيما يبدو لى — لم يستطع أن يسير على ما رسم ، وغلبه ما وجد من الروايات فى كثير من المواطن ، فأثبت طائفةً منها غير قليلة . فحذفْتُ كلها ، والحمد لله .

٩ — حذفْتُ أكثر ما أطل به المؤلف رحمه الله من الأبحاث الكلامية والفروع الفقهية ، والمناقشات اللغوية واللفظية ، مما لا يتصل بتفسير الآية

(١) جدَّ بها : أى ذمها وعابها ..

اتصالاً وثيقاً. وأُقيتُ من ذلك ما لم أجد منه بدءاً في إيضاح معنى الآية ،
أو تقوية المعنى الراجح المختار في تفسيرها .

١٠ — أحياناً يذكر المؤلف الحافظ حديثاً طويلاً لمناسبة تفسير آية أو لمعنى يتعلق بها ، ولا يكون كله في موضع الشاهد المتعلق بالآية ، بل بعضه فقط .

فرايت أن أقتصر في مثل هذه الحال على موضع الشاهد منه ، لأن المقصد الأصلي هو التفسير ، لا رواية الحديث كله . وأشيرُ بكلمة تدل على ذلك ، وأضعها بين معكفين هكذا : [] دون أن أنه عليه ، ليعلم القارئ أن هذا من صنيعي ، لا من صنيع ابن كثير .

١١ — وأصنعُ نحو هذا فيما يذكر المؤلف من الأحداث التاريخية المطوّلة ، التي تتعلق بالتفسير . فأضعُ الملخص الذي أكتبه بين المعكفين أيضاً . دلالة على أنه من كلامي لا من كلامه .

١٢ — أما الزيادات التي أضعها بين المعكفين أثناء الكلام ، سواء أ كانت زائدة في المخطوطة الأزهرية على المطبوعة ، أم كانت زيادةً من قبلي لتصحيح الكلام ، مما لا يفهم الكلام أو لا يتم إلا به — فإني أنبه على ذلك وعلى سبب الزيادة في الهامش . حتى يثق المطلع على الكتاب أنني لم أتصرف في الأصل إلا على أساس علمي صحيح . وأصيبُ وأخطيُ ، كما يخطئُ الناسُ ويصيبون . والتوفيقُ من الله .

١٣ — وهناك تغييراً كتني بالإشارة إليه هنا . وهو ما اقتضاه حذفُ للأسانيد التي يسوقها المؤلف للأحاديث — كما بينتُ في الفقرتين الرابعة والخامسة : فيما أن أذكرَ الحديثَ أولاً ، مبتدئاً باسم الصحابي مثلاً : « عن فلان » ، ثم أذكرَ الكتب التي نسبها إليه الحافظ . وإما أن

أذكر الكتاب الذى روى منه أولاً ، فأقول مثلاً : « روى البخارى » أو « روى الإمام أحمد » ، ثم أكل التخرىج الذى ذكره المؤلف ، بعد سياق الحديث . دون أن أشير فى كل موضع إلى هذا التغير ، فإنه يديهى الجأ إليه حذف الإسناد .

١٤ - وتغير آخر بسيط ، فى سياق أقوال الصحابة أو التابعين فمن بعدهم ، فى تفسير الآيات . فقد أذكر القول ثم أبين قائله ، وقد أقدم اسم قائل ذلك بعد حذف الإسناد إليه — على ما يقضى به نظام الكلام وسياقه .

١٥ - وآيات القرآن الحكيم المفسرة ، التى يذكرها الحافظ ابن كثير ويبدأ بها مجموعة — نرسمها على رسم المصحف العثمانى ، مضبوطةً بالشكل الكامل ، على الرسم الثابت فى المصحف الذى طبعته الحكومة المصرية مراراً ، بعد تصحيحه ومراجعته فى لجنة علمية عظيمة ، برئاسة الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى — شيخ المقارئ المصرية إذ ذاك ، رحمه الله — فى سنة ١٣٣٧ .

١٦ - وثبت فى آخر كل آية رقمها على ما فى ذلك المصحف الجليل .

١٧ - وأما الوقوف أثناء الآيات ، فنضع بجوارها شولةً هكذا ، دون تقيد بالاصطلاح فيه بين : وقف جائز على التساوى ، أو جائز مع أولويته ، أو جائز مع أولوية الوصل . إلا الوقف اللازم ، فإننا نضع فوق الشولة ميماً صغيرةً هكذا : م .

١٨ - وأما الكلمة التى فيها وقفان : قبلها وبعدها ، والتى لا يجوز فيها إلا أحدهما — ولها اصطلاح خاص فى ذلك المصحف — فإننا سنتخير أجودهما وأولاهما فى المعنى . مثل ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى

للمتقين ﴿ فإن الوقف بعد " فيه " أدق في المعنى وأجود من الوقف قبلها .

١٩ - ونضع في رأس كل صفحة اسمَ السورة ورقم الآيات المفسرة ، حتى يسهل على القارئ البحث عما يريد من التفسير دون عناء .

٢٠ - وثبت بجوار أوائل أجزاء القرآن الثلاثين - بالهامش - كلمة « الجزء » وتحتها رقمه .

٢١ - وثبت بجوار أوائل الأرباع - بالهامش أيضاً - كلمة « ربع » . ومعناها : ربع حزب ، والحزب نصف جزء . ولكننا لا نتقيد بذكر الأحزاب ولا أرقام أرباعها : « نصف الحزب » ، « ثلاثة أرباع الحزب » - المثبتة بهامش المصحف . لأن أكثر الناس لا يعرفون إلا أنها كلها أرباع . فذلك أيسرُ لهم .

٢٢ - وإذا كان أولُ الربع أول الآيات التي يذكرها الحافظ المفسر ، اكتفينا بكلمة « ربع » . أما إذا كان أثناء الآيات ، فإننا نضع بجواره - بعد رقم الآية التي قبله - نجمةً صغيرةً هكذا * للدلالة على ذلك .

٢٣ - ونكتب بالهامش أيضاً بجوار مواضع السجودات في الآيات - كلمة « سجدة » . ليعرف موضع السجود عند التلاوة . إن شاء الله .

وأنا بفطرتي العلمية ، وبما خَبَرْتُ من شأن الكتب ونقائس التراث الإسلامي العظيم - أكره اختصارَ الكتب أو أيَّ تصرفٍ فيها . ولكنني آمَنتُ الحاجةَ الماسّةَ والضرورةَ الملِحّةَ لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين ، الذين لم يُمارسوا دقائق العلم ، ولم يتصلّوا باصطلاحات العلماء الأئمة في الفنون ، ولطلاب العلوم الإسلامية في شتّى أنحاء العالم الإسلامي . فرأيتُ أن لا بدَّ مما ليس منه بُدٌّ .

ثم قَوَّى من عَزَمْتِي وأزال ترددي ما رأيتُ في (مخطوطة الأزهر) من
 (تفسير ابن كثير) . فإني وجدتُها قد خَلَّتْ من كثير مما رأيتُ حذفه ،
 كأنها مختصرةٌ من الكتاب ، وما هي بمختصرة . ولكنتي رجَّحتُ — كأنه
 اليقين — أنَّ الحافظ رحمه الله كان لا يزال ينظرُ في كتابه ، فيزيدُ فيه
 ما يرى زيادته ، من أبحاثٍ كلامية ، وفروعٍ فقهية ، وأبحاثٍ لغوية ،
 وأقوال وآراء للعلماء الأئمة . فخرجتُ نسخُ الكتاب مختصرةً ومطوَّلةً . كما هو
 شأنُ كثيرٍ من العلماء الكبار الذين يحرصون على العلم والمعرفة . والمثل في ذلك
 حاضرةٌ ، لا نُطِيلُ بذكرها .

“ * ”

وأَسأل الله العليَّ القدير أن يوفقني لإتمام هذا المختصر ، على النحو المفيد
 المُجْدِي المُجْزِي . وأن يوفقني لإخراج الأصل إخراجاً علمياً صحيحاً . إنه سميع
 الدعاء ، وهو وليُّ التوفيق .

كلمات لابن كثير

بشأن الإسرائيليات

للمحافظ ابن كثير كلماتٌ قويةٌ في شأن الإسرائيلياتِ وروايتها ، وقد رَسَمَ في بعضها خطَّته نحوها . ولكنِّي رأيته — على الرغم من ذلك — يحكي بعضها ، وكثيراً ما يُعَقِّب على ما يحكي بالردِّ .

وقد رأيْتُ أن أجمع هنا — في هذه المقدمة — ما وجدته أثناء قراءتي فيه مما قيَّدتُ الإشارةَ إلى موضعه . وعسى أن أستطيع جمع ما فاتني من ذلك ، ثم أذكره في آخر هذا الكتاب (العمدة) إن شاء الله .

فقال في مقدمة تفسيره (ص ٤٣ — ٤٤ من كتابنا هذا) — بعد أن ذكر حديثَ « بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً » ، وحَدَّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَجَ ، ومن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » — : « ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد . فإنها على ثلاثة أقسام : أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق ، فذاك صحيح . والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه . والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمنُ به ولا نكذِّبه ، وتجاوزُ حكايته لما تقدَّم . وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ دينيٍّ . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك . كما يذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعِدَّتْهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضُربَ به القتيلُ من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى .

إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دينهم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز . كما قال تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كالبهم ﴾ . إلى آخر الآية .

ويقول أحد محمد شاكر عفا الله عنه : إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه — شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن ، وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات ، أو في تعيين ما لم يعين فيها ، أو في تفصيل ما أجمل فيها — شيء آخر !! لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يؤهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مُبَيَّنُّ لمعنى قول الله سبحانه ، ومُفْصَّلٌ لما أجمل فيه ! وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أذنَ بالتحدث عنهم — أمرنا أن لانصدقهم ولا نكذبهم . فأى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرّنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟ ! اللهم غفراً .

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه ، في تفسير الآية : ٥٠ من سورة الكهف — بعد أن ذكر أقوالاً في « إبليس » واسمه ومن أى قبيل هو ؟ ! — : « وقد روى في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التى تُنقل لِيُنظَرُ فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يُقَطَّع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا . وفي القرآن غُنيّة عن كلّ ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المُتَقِنِينَ الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين واتّحال المبتلين — كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقّاد ، والحفّاظ الجياد ، الذين دَوَّنوا الحديث وحرّروه ، وبيّنوا ضحيته من حسنه من ضعيفه ، بمن منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا

الوضّاعين والكذّابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال . كلُّ ذلك صيانةٌ للجناب النبويّ والمقام الحمديّ ، خاتم الرسل وسيد البشر ، صلى الله عليه وسلم — أن يُنسَبَ إليه كذبٌ ، أو يُحدّثَ عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنّات الفردوس مأواهم . وقد فعَلَّ . »

وقال عند تفسير الآيات ٥١ — ٥٦ من سورة الأنبياء ، بعد إشارته إلى حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، ونظره إلى الكواكب والحلوقات — : « وما قصّه كثيرٌ من المفسّرين وغيرهم ، فعامتهاُ أحاديثُ بني إسرائيل . فما وافق منها الحقّ مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه ، لموافقته الصحيح ، وما خالف منها شيئاً من ذلك ردّدناه ، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ ، لا نصدّقه ولا نكذّبه ، بل نجعله وفقاً . وما كان من هذا الضّرْب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته . وكثيرٌ من ذلك مما لا فائدة فيه ، ولا حاصلٌ له مما يُتَنَفَّع به في الدين . ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبَيَّنَّته هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذي نَسْلُكُهُ في هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثيرٌ منها من الكذب المروّج عليهم . فإنهم لا تفرقةَ عندهم بين صحيحها وسقيمها . كما حرّره الأئمة الحفّاظ المتّقنُون من هذه الأمة . »

وقال عند تفسير الآية : ١٠٢ من سورة البقرة : « وقد روى في قصة هاروتَ وماروتَ عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والشّدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهرى والرّبيع بن أنس ومقاتل بن حَيّان وغيرهم ، وقصّها خلقٌ من المفسّرين ، من المتقدّمين والمتأخّرين . وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديثٌ مرفوعٌ صحيحٌ متصلٌ الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى . وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة

من غير بَسْطٍ ولا إطنابٍ فيها ، فنحن نُؤْمِنُ بما ورد في القرآن على ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال .

وقال في أول سورة ق : « وقد رَوَى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبلٌ مُحِيطٌ بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف !!! وكأنَّ هذا — والله أعلم — من خرافاتِ بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس ، لِمَا رَأَى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدَّق ولا يكذَّب . وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاقِ بعض زنادقتهم ، يَلْبِسُونَ به على الناس أمرَ دينهم . كما افترى في هذه الأمة — مع جلالة قدر علمائها وحُفَظَها وأتمتها — أحاديثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهْدِ من قِدَمٍ . فكيف بأمة بني إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحُفَظِ النَّقَّادِ فيهم ، وشرِبهم الخمر ، وتحريف علمائهم الكلمَ عن مَوَاضِعِهِ ، وتبديل كُتُبِ اللهِ وآيَاتِهِ . وإنما أباح الشارعُ الروايةَ عنهم في قوله "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" — فيما قد يُجَوِّزُهُ العقل . فأما فيما تُحَيِّلهُ العقول ، ويُحَكِّمُ فيه بالبُطلان ، وَيَغْلِبُ على الظنون كذبُهُ — فليس من هذا القَبِيلِ » .

وقال عند تفسير الآيات ٤١ — ٤٤ من سورة النمل ، وقد ذكر في قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عن ابن عباس ، وَصَفَهُ بأنه « منكر غريب جداً » — ثم قال : « والأقربُ في مثل هذه السياقات أنها متلقاةٌ عن أهل الكتاب ، مما وُجِدَ في ضُحُفِهِمْ ، كروايات كعبٍ وَوَهْبٍ ، ساعهما اللهُ فيما نقلاهُ إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حُرِّفَ وَبُدِّلَ ونُسِخَ . وقد أغنانا اللهُ سبحانه عن ذلك بما هو أصحُّ منه وأنفعُ وأوضحُ وأبلغُ . والله الحمد والمنة » .

وقال عند تفسير الآية : ٤٦ من سورة العنكبوت ، بعد أن رَوَى الحديث :

« إذا حدّثكم أهلُ الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم » — قال : « ثم ليُعلم أن أكثر ما يتحدّثون به غالبه كذبٌ وبهتانٌ ، لأنه قد دخله تحريفٌ وتبديلٌ وتغييرٌ وتأويلٌ . وما أقلّ الصدق فيه . ثم ما أقلّ فائدته لو كان صحيحاً » .

وقال عند تفسير الآية : ١٩٠ من سورة الأعراف : « ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته ، بما دلّ عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها ما علمنا كذبه ، بما دلّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها ما هو مسكوتٌ عنه ، فهو المأذون في روايته ، بقوله عليه السلام " حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج " . وهو الذي لا يُصدّق ولا يُكذّب ، لقوله " فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم " » .

وهناك قصةٌ طويلةٌ جداً ، رواها النسائي في باب التفسير من السنن الكبرى — التي لم نَرها — وابنُ أبي حاتم في تفسيره ، عن ابن عباس . ويسميا الحافظُ ابنُ كثير « حديثُ الفتون » . ساقه بطوله عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ من الآية : ٤٠ من سورة طه — ثم قال : « وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوعٌ إلّا قليلٌ منه . وكأنّه تلقاه ابنُ عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات ، عن كعب الأحبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعتُ شيخنا أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضاً » .

وهذا الحديث — حديثُ الفتون — يشيرُ إليه الحافظ ابن كثير ، في مواضع متعددة من تفسيره . وقد نفّيته عن كتابي هذا نفياً ، ولم أُشيرُ إليه إلّا مرةً واحدةً ، عند أول مرة أشار إليه ابنُ كثير فيها ، عند تفسير الآية : ٤٩ من سورة البقرة . ثم أعرضتُ عن الإشارة إليه ، إن شاء الله . فلا أُشيرُ إليه إلّا أن أُضطرَّ إلى ذلك اضطراراً . وأسأل الله التوفيق والتيسير ، والهدى والسداد .

ومن أعظم الكلام في الدلالة على تنزيه القرآن العظيم عن هذه الأخبار الإسرائيلية - كلمة لابن عباس رواها البخاري في صحيحه ، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير ، عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة البقرة . فقال ابن عباس : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرؤنه محضاً لم يشب ! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم » .

وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه ٥ : ٢١٥ ، و ١٣ : ٢٨٢ ، ٤١٤ من فتح الباري .

مخطوطة الأزهر

هي مخطوطة نفيسة في المكتبة الأزهرية ، تحت رقم : ١٦٨ تفسير . في سبعة مجلدات ، مجموع أوراقها : ٢١٩٥ ورقة . وهي كاملة إلا خرمًا في المجلد الثالث منها . وقد صورتها المكتبة .

كتبها « محمد بن علي الصوفي ، البواب بالخانقاه السمسطائية ، بدمشق الحروسة » ، كما أثبت ذلك ناسخها . وفرغ من كتابتها يوم ١٠ جمادى الأولى سنة : ٨٢٥ . أمره بكتابتها « قاضي القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين ، حجة الإسلام والمسلمين . . . عمر ، ابن سيدنا ومولانا . . . أبي محمد حجبى السعدى الشافعى . . . برسم خزائنه » . وأثبت كتابتها ذلك في وثيقة مطوّلة في آخر النسخة .

وقاضى القضاة نجم الدين بن حجبى ولد سنة : ٧٦٧ بدمشق ، ومات فيها قتيلاً ليلة الأحد مستهل ذى القعدة سنة ٨٣٠ . وهو مترجم في الضوء اللامع للسخاوى ٦ : ٧٨ - ٧٩ . والدارس في تاريخ المدارس ١ : ٢٥٧ - ٢٥٨ . والشذرات ٧ : ١٩٣ . وكنيته عندهم « أبو الفتوح » ولكن كاتب هذه النسخة قال : « أبو حفص » . فلا أدري : أكان له كنيستان ؟ أم أن ما أثبتته كاتب النسخة أقرب إلى القبول ، لأنه من أتباعه ؟

وهذه النسخة يغلب عليها الصحة ، والخطأ فيها قليل ، بما خبرتها في مواضع كثيرة ، وفي عملى في هذا الكتاب . ولكن أستاذنا السيد رشيد رضا رحمه الله لم ينصفها حين وصفها :

فإنه حين وصف عمله في إخراج هذا التفسير ، في آخر كتاب « فضائل

القرآن » الذى ألحقه بالجلد التاسع الأخير منه — قال : « ثم استعزنا من خزانة كتب الجامع الأزهر النسخة الخطية الوحيدة التى فيها ، وليست من الأصول الصحيحة التى يُعتمد عليها ، بل هى كثيرة التصحيف والتحريف والسقط ! هكذا قال رحمه الله . أما « السقط » ، فقد بينّا أنه ليس كذلك ، وإنما هناك نسخ أخرى فيها زيادات زادها الحافظ ابن كثير بعد التأليف . ولعلنا نزيد ذلك بياناً وإثباتاً ، إذا يُيسر لنا إخراج التفسير كآه فى طبعة علمية محققة ، إن شاء الله . وأما « التصحيف والتحريف » ، فإنه فيها قليل ، مما لا يخلو منه مخطوط أو مطبوع . بل إنى لأستطيع أن أقرر أن أكثر ما أُجِدُّ فى مطبوعة المنار من أغلاط وتصحيقات ، أُجدهُ ثابتاً على الصواب فى هذه المخطوطة ، « مخطوطة الأزهر » ، وإنى لأُجِدُّ فى بعض المواضع هامشةً لأستاذنا رحمه الله ، يذكر فيها ما فى نسخة الأزهر ، ثم يتبين أنه هو الصواب ، وأن ما أثبت فى صلب الكتاب هو الخطأ أو التصحيف .

والذى أرجحه أن أستاذنا رحمه الله لم يقابل الكتاب على نسخة الأزهر بنفسه ، ولعله عهد بذلك إلى بعض من يُلَوِّذ به من الطلاب أو غيرهم ، بعد أن نظر إلى النسخة نظرةً عَجَلَى ، على ما كان من مشاغله الكثيرة ، وما اعتذر به فى آخر كلمته من المرض الطويل الذى منعه من كل عمل . رحمه الله رحمة واسعة .

وها هى ذى نماذج مصورة من بعض صفحاتها ، قد تُقنع القارىء ببعض ما أقول ، إن لم يكن به كله .

وأسأل الله سبحانه الهدى والسداد ، والعصمة والتوفيق .

أحمد محمد شاكر

عفا الله عنه

بمنه

الإثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٧٥
٢ يوايو سنة ١٩٥٦

ترجمة

الحافظ ابن كثير

الإمام الحافظ الحجة المحدث المؤرخ الثقة ، ذو الفضائل ، عماد الدين ، أبو الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشي ، الدمشقي ، الشافعي .

ولد رحمه الله بقرية « مجدل » من أعمال « بَصْرَى »^(١) . وكان أبوه من أهل « بصرى » ، وأمه من قرية « مجدل » .

وقومه كانوا « ينتسبون إلى الشرف ، وبأيديهم نَسَب . وقف على بعضها شيخنا المِزَتِي فأعجبه ذلك وابتهج به ، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك ” القرشي “ » — كما قال هو في ترجمة أبيه ، في تاريخه « البداية والنهاية » .

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠ ، كما ذكر أكثر من ترجم له ، « أو بعدها بقليل » كما قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة . وهو تاريخ تقريبي . أرجح أنه مستنبط من كلامه في ترجمة أبيه ، حيث ذكر أن أباه « توفي سنة ٧٠٣ . . . وكنتُ إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم » .

و « ابن ثلاث سنين » لا يعرف تواريخ السنين — على اليقين — في تلك السن . فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من إخوة أو أهل أو جيران . ولكنه يدرك أباه « كالحلم » . فالذي هو في سن أقل من

(١) « مجدل » : بكسر الميم وفتحها مع سكون الدال و « بصرى » بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة : بلد بالشام من أعمال دمشق . وهي قصبة كورة « حوران » .

الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً « كالعلم » ولا أبعد من الحلم ولا أقرب . فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة — في أكبر ظنى — ولذلك أرجح أن مولده كان في سنة ٧٠٠ أو قبلها بقليل . وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر « أو بعدها بقليل » . لأن الذى « بعدها » لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه .

وكان أبوه « الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير » من العلماء الفقهاء الخطباء . ولد — كما قال ابنه — في حدود سنة ٦٤٠ . وترجم له ابنه الحافظ في تاريخه الكبير « البداية والنهاية » ، ج ١٤ ص ٣١ — ٣٣ . ومما قال في ترجمته : « اشتغل بالعلم عند أخواله بنى عقبة ببصرى . فقرأ " البداية " في مذهب أبى حنيفة . وحفظ " جمل الزجاجى " . وعنى بالنحو والعربية واللغة . وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق فى المدح والمراثى وقليل من الهجاء . وقرر بمدارس بصرى بمبرك الناقة شمالى البلدة ، حيث يزَار ، وهو المبرك المشهور عند الناس ^(١) ! والله أعلم بصحة ذلك . ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقى بصرى ، وتمذهب للشافعى . وأخذ عن النواوى والشيخ تقي الدين الفزارى — وكان يكرمه ويحترمه ، فيما أخبرنى شيخنا العلامة ابن الزملكاني . فأقام بها نحواً من ١٢ سنة . ثم تحول إلى خطابة " مجدل " : القرية التى منها الوالدة . فأقام بها مدة طويلة ، فى خير وكفاية وتلاوة كثيرة . وكان يخطب جيداً ، وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ، لديانته وفصاحته وحلاوته . وكان يؤثر الإقامة فى البلاد ^(٢) ، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعِياله . وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها . أكبرهم : إسماعيل ، ثم يونس ، وإدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عدة . ثم أنا

(١) يريد هؤلاء الناس — فيما يزعمون — : مبرك ناقة صالح عليه السلام .

(٢) يعنى القرى .

أصغرهم وسُمِّيَ باسم الأخ "إسماعيل" — لأنه كان قد قدم دمشق، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ التنبيه، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزارى، وحصل المنتخب في أصول الفقه. قاله لى شيخنا ابن الزملكاني. ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية، فكث أياماً ومات. فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً، وورثه بأبيات كثيرة. فلما ولدتُ أنا له بعد ذلك سماني باسمه. فأكبر أولاده: إسماعيل، وأصغرهم وآخرهم: إسماعيل. فرحم الله من سلف، وختم بخير لمن بقي. توفي والدى في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣. في قرية مجدل. ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون. وكنت إذ ذاك صغيراً، ابن ثلاث سنين أو نحوها. لا أدركه إلا كالعلم. ثم تحولنا من بعده في سنة ٧٠٧ إلى دمشق، حبة "كمال الدين عبد الوهاب" وقد كان لنا شقيقاً، وبناً رقيقاً شفوفاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين [يعنى سنة ٧٥٠]. فاشتغلتُ على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر.

وقد بدأ الاشتغال بالعلم على يدى أخيه عبد الوهاب — كما قال آخفاً — ثم اجتهد في تحصيل العلوم على العلماء الكبار في عصره. وحفظ القرآن الكريم، وختم حفظه سنة ٧١١، كما صرح بذلك في تاريخه ١٤ : ٣١٢. وقرأ بالقراءات، حتى عدده الداودى من القراء^(١)، وترجم له في طبقاتهم التى ألفها^(٢). وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ في عصره. وعنى بالسماع والإكثار منه. فمما ذكر في

(١) الداودى : هو شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى المصرى ، مات سنة ٩٤٥ . ولكن ابن الجزرى لم يذكر ابن كثير فى طبقات القراء .

(٢) وما ينبغى التنبيه إليه : أن « ابن كثير » هذا الحافظ المفسر ، غير « ابن كثير » أحد القراء السبعة . فذاك اسمه « عبد الله بن كثير المكي » ، إمام أهل مكة فى القراءة ، وهو قديم من التابعين ، روى عن ابن الزبير وأنس بن مالك . ولد سنة ٤٥ ، ومات سنة ١٢٠ .

تاريخه ١٤ : ١٤٩ ، أنه سمع صحيح مسلم في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني ، بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن محمد بن سهل الأردى الفرناطى الأندلسى ، المتوفى بالقاهرة في ٢٢ محرم سنة ٧٣٠ — حين قدم دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٢٤ عازماً على الحج .

وذكر في ترجمة شيخه الكبير المعمر الرحلة شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة : أنه سمع عليه « بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويّات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع » . وهذا الشيخ « عاش مائة سنة محققاً ، وزاد عليها » . وتوفى سنة ٧٣٠ : (التاريخ ١٤ : ١٥٠) .

وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزارى وكمال الدين بن قاضى شهبه . وحفظ التنبيه للشيرازى فى فروع الشافعية ، ومختصر ابن الحاجب فى الأصول . ولزم الحافظ الكبير أبا الحجاج المزى ، وقرأ عليه مؤلفه العظيم فى الرجال « تهذيب الكمال » . وصاهره على ابنته زينب^(١) . وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولازمه وتخرج على يديه ، وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه ، واتباع له فى كثير من آرائه . وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق^(٢) ، وامتنحن بسبب ذلك وأوذى .

وكان من أفذاذ العلماء فى عصره . أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومن بعدهم — الثناء الجمّ :

فذكره الحافظ الذهبى فى طبقات الحفاظ ٤ : ٢٩ ، مع أن الذهبى يكاد يكون من طبقة شيوخه ، لأنه مات سنة ٧٤٨ ، قبل ابن كثير بـ ٢٦ سنة . فقال فى

(١) ذكرها باسمها فى ترجمة شيخه الحافظ المزى ، المتوفى سنة ٧٤٢ . (التاريخ ١٤ : ١٩١ - ١٩٢) .

(٢) أى وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، كما هو الحق الذى تدل عليه الدلائل الصحاح .

طبقات الحفاظ : « وسمعتُ مع الفقيه الملقب بالحديث ، ذى الفضائل ، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البُصْرَوِي الشافعي . . . سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة . له عناية بالرجال والمتون والفقه . خرج وناظر وصنّف وفسّر وتقدّم » . وقال الذهبي في المعجم المختص — فيما نقل ابن حجر وغيره : « الإمام الملقب بالحديث البار ، فقيه متفّن ، محدث متقن ، مفسّر نال » .

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجي : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها . وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك . وكان يستحضر كثيراً من التفسير والتاريخ ، قليل النسيان . وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن ، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت . ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر . وما أعرف أني اجتمعت به — على كثرة ترددي عليه — إلا واستفدت منه » . (عن النعمي في كتاب الدارس) .

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني في ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٥٨) : « وصاهر شيخنا أبا الحجاج المزّي فأكثر عنه . وأفتى ودرّس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو . وأمعن النظر في الرجال والعلل » .

وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة : « ولازم المزّي ، وقرأ عليه تهذيب الكمال ، وصاهره على ابنته . وأخذ عن ابن تيمية ففطن بحبه ، وامتنح بسببه . وكان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة . سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته . ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالى ، وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم . وإنما هو من محدثي

الفقهاء . وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح ^(١) ، وله فيه فوائد .

ونقل السيوطى فى ذيل طبقات الحفاظ كلام الحفاظ ابن حجر فى أنه « لم يكن على طريقة المحدثين ... » ثم تعقبه بقوله : « العمدة فى علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه ، وعلاه واختلاف طرقه ، ورجاله جرحاً وتعديلاً . وأما العالى والنازل ونحو ذلك — فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة » . وهذا حق . وقال السيوطى أيضاً : « له التفسير الذى لم يؤلف على نمطه مثله » . يشير إلى هذا التفسير العظيم الذى نختصره .

وقال العلامة العينى — فيما نقل عنه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة — : « كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ . وسمع وجمع ، وصنف ودرّس ، وحدّث وألف . وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وامتحن إليه علم التاريخ والحديث والتفسير . وله مصنفات عديدة مفيدة » .

ووصفه الحفاظ العلامة شمس الدين بن ناصر ، فى كتاب « الرد الوافر » — بأنه « الشيخ الإمام العلامة الحفاظ ، عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علمُ المفسرين » .

وقال فيه ابن حبيب — فيما نقل الداودى فى طبقات القراء وابن العماد فى الشذرات : « إمام ذوى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل . سمع وجمع وصنّف ، وأطرب الأسماع بأقواله وصنّف ، وحدّث وأفاد ، وطارت فتاويه إلى

(١) كتابه هو هذا « اختصار علوم الحديث » . طبع أول مرة فى مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣ ، بتصحيح أخينا العلامة الكبير الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، أحد كبار المدرسين الآن بالحرم المكي . ثم شرحت أنا شرحاً متوسطاً ، وطبع فى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٥ . ثم أعدت طبعه مرة أخرى مع زيادات وتنقيح فى الشرح ، فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٧٠ .

البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانهت إليه رياسته العلم في التاريخ والحديث والتفسير .

وروى له الحافظ ابن حجر في إنباء الغمر ، وابن العماد في الشذرات — البيتين المشهورين ، الذائعين على الألسنة :

تَمُرُّ بنا الأيامُ تَتَرَى وإنما نَسَاقُ إلى الآجالِ والعينُ تَنْظُرُ
فلا عائدُ ذاك الشبابُ الذي مَضَى ولا زائلُ هذا المشيبُ المُكْدِرُ

وصحبته وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد ، في علمه ودينه ، وتقوية خلقه ، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة .

فهو مستقل الرأي ، يدور مع الدليل حيث دار ، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره . وكتبه العظيمة ، وخاصةً هذا التفسير الجليل — فيها الدلائل الوافرة . وَنَجِدُهُ — مع أنه شافعي المذهب — يفتي في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح ، أنه يقع طلقة واحدة . ثم يُتَمَحَّن ويلقى الأذى ، فيثبت على قوله ، ويصبر على ما يلقي في سبيل الله .

وهو — وهو تلميذ شيخ الإسلام ومن خاصة أنصاره — يعرف ما كان بين شيخه شيخ الإسلام وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي — ومع ذلك فإنه لا يُعين عليه في محنة لحقته ، بل يعلن عن غبطته بأن تزول عنه الحنة . فيذكر في التاريخ — في حوادث سنة ٧٤٣ (١٤ : ٢٠٤) أنه أرجف الناس كثيراً بقاضي القضاة — في دمشق — « واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتم إلى الطنبغا وإلى الفخري . وكتبت فتوى عليه بذلك في تعريمه ، وداروا بها على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي ، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة . وسُئِلْتُ في الإفتاء

عليها فامتعت ، لما فيها من التشويش على الحكام » . ثم يقول : « وكانوا له في نية عجيبة ، ففرّج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية » .

فهذا خلق أهل العلم النبلاء الأتقياء

وقد طار ذكره في الأقطار الإسلامية ، حتى إنه ليدكر في حوادث سنة ٧٦٣ (١٤ : ٢٩٤ - ٢٩٥) أن شاباً عجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان ، يزعم أنه يحفظ البخاري ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك » ، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخاري وغيره بحضرة قاضي القضاة الشافعي وجماعة من الفضلاء ، ثم قال : « وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة . وقال : أنا ما خرجت من بلادى إلا إلى القصد إليك ، وأن تميزني . وذكريك في بلادنا مشهور » .

وهذا الخبر يدل على أن كتابه « جامع المسانيد » وصل إلى أقصى الشرق ، في بلاد تبريز وخراسان ، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمي أو يحفظ شيئاً منه . في حين أن الحفاظ ابن كثير لم يتم تأليف « جامع المسانيد » كما هو معروف . فكان العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه ، ويتداولونه بينهم ، حتى يصل من دمشق إلى تلك النواحي النائية .

ولم يكن ممن يخدع في الفتاوى التي ظاهرها قصد الاستفتاء ، ووراءها الأعياب السياسية ، أو أغراض شخصية غير سليمة ، وإن كان المستفتى من الأمراء أو ممن يخشى بأسه . فهو يقول في حوادث سنة ٧٦٢ : « وجاءتني فتيا صررتها : ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدّمه . ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه ؟ وتصرف في المملكة ، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله : فهل له الامتناع منه ، وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يُقتل يكون شهيداً ؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك

المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين ؟

فهذا استفتاء صيغَ في صورة تُوحى بالجواب . وباطنه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على الملك الذي دعاه للحضور عنده ، ويريد أن يثير فتنةً وقتالاً على صاحب الأمر ، لعله يصلُ إلى ما وصل إليه ذاك من الملك ، كعادة الأمراء من الممالك في ذلك العهد . ولكن ابن كثير يجيبه جواباً حكيماً يكشف عن بعض مقصده ، ويضمن جوابه النصيحة الواجبة في مثل هذه الحال ، فيقول : « فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاصَ ذمته فيما بينه وبين الله تعالى — فهو أعلم بنيته في الذي يقصده ! ولا يسعى في تحصيل حقٍّ معيّن إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة في ذلك ، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقة ! وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة ، والأمراء عليه — فلا بدّ أن يكتب عليها كبارُ القضاة والمشايخ أولاً ، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقة » . (التاريخ ١٤ : ٢٨١ — ٢٨٢) .

وكان الإفرنج قد غدروا بمدينة الإسكندرية ، وأشاعوا فيها الرعب ، وارتكبوا الفظائع غدرًا . وذلك : أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧ هـ فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً ، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً . فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار ، بعد ما حرقوا أبواباً كثيرة منها . وعاثوا في أهلها فساداً ، يقتلون الرجال ، ويأخذون الأموال ، ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله العليّ الكبير المتعال . وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء . فلما كان صبيحة الأربعاء قدم الشاليش المصري^(١) ، فأقلت الفرنج — لعنهم الله —

(١) في النجوم الزاهرة (١١ : ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية) : « فلما وصل السلطان إلى الطرافة أرسل جاليشاً من الأمراء أمامه في خفية . . . » . وكتب مصححه الأستاذ محمد البرهاني منصور ، بهامشة : « الجاليش : مقدمة الجيش والراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر » . وهي كلمة أعجمية — لعلها تركية أو فارسية — وفي مثلها الجيم شديدة التعطيش — بين الجيم والشين ، فيجوز تعريبها جيماً أو شيناً ، مثل « شاو يش » و « جاو يش » .

عنها ، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاربون الأربعة آلاف ، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهراً وغير ذلك ، ما لا يُحَدّ ولا يُوصف . وقدم السلطان والأمير الكبير يلغا ظهر يومئذ وقد تقارط الحال ، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر ، فسُمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله ، والاستغاثة به وبالمسلمين - ما قطع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصم الأسماع . فإنا لله وإنا إليه راجعون . ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً ، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر ، فتباكى الناس كثيراً . فإنا لله وإنا إليه راجعون . »

فهذه وقعة شنيعة غادرة من الإفرنج - كهادثهم - والنفوس تنقرز من مثلها ، وتثور من أجلها . والملوك والأمراء الظالمون ينتهزون فرصة تعبئة رأى العام الإسلامى - وثورته من أجل هذا الغدر ، وغضباً لهذه ، الفظائع - لياكلوا أموال الناس بالباطل ، وظاهر أمرهم الانتقام وباطنه السلب والنهب . ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل ، ولا يرضى بالظلم ، ولو كان ظاهره الانتقام والتأثر للمسلمين . فيقول : « وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية ، إلى نائب السلطنة ، بمسك النصارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم ، لعارة ما خُرب من الإسكندرية ، ولعارة مراكب تغزو الإفرنج . فأهانوا النصارى ، وطلبوا من بيوتهم بئسف . وخافوا أن يُقتلوا ، ولم يفهموا ما يراد بهم ، فهربوا كل مهرب . ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً » . وقد طُلبت يوم السبت السادس عشر من صفر [أى سنة ٧٦٧] إلى الميدان الأخضر ، للاجتماع بنائب السلطنة ، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ ، بعد الفراغ من لعب الكرة . فرأيت منه أنساً كبيراً ، ورأيتة كامل الفهم ، حسن العبارة كريم المجالسة . فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتمادُهُ في النصارى

[يعنى المرسوم بالمصادرة] . فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ! فقلت له : " هذا مما لا يسوغُ شرعاً ، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا . ومتى كانوا باقين على الذمة ، يؤدّون إلينا الجزية ملتزمين بالدِّلَّة والصَّغار ، وأحكامُ الملة قائمة — لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحدُ الفردُ فوق ما يبذلونه من الجزية . ومثل هذا لا يخفى على الأمير " ! فقال : كيف أصنعُ وقد ورد المرسوم بذلك ؟ ولا يمكننى أن أخالفه ؟ ! « . ثم ذكر أن نائب السلطنة كتب بذلك إلى الديار المصرية . ولكن هذا النائب لم يكن عند قوله ، فنفذ المرسوم ، و « طلب النصارى الذين اجتمعوا فى كنيستهم إلى بين يديه ، وهم قريب من أربعائة ، فخلّفهم : كم أموالكم ؟ وألزمهم بأداء الربع من أموالهم ، " فإنا لله وإنا إليه راجعون " . وكانت هذه المصادرة الظالمة فى شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧ . ثم قال الحافظ — فى حوادث شهر ربيع الآخر : « وفى أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطانى ، بالردّ على نساء النصارى ما كان أخذنهنّ مع الجباية التى كان تقدّم أخذها منهم " وإن كان الجميع ظلماً ، ولكن الأخذ من النساء أفحشُ وأبلغُ فى الظلم " . (التاريخ ١٤ : ٣١٤ — ٣١٥ ، ٣١٨) .

فانظر إلى هذا الإمام العظيم ، الذى يقف عند حدود الشريعة المطهرة ، يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف ، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين ، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم ، وشتان هذا وذاك . ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل .

فكان هذا العقل المستقلّ العظيم الثابت على الحق ، والذى لا تغلبه العواطف والأهواء ، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة . يثق به أنصاره وغير أنصاره ، وموافقوه ومخالفوه . بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند الذميين ، حتى ليستشيره

بعض رؤسائهم ، في أخصّ شؤونهم الكنيسية . فإنه يذكر قصة طريفة ، في استشارة أحد البطاركة إياه في ذلك . يحسن أن نذكرها بعبارته بحروفها :

فقال — في حوادث سنة ٧٦٧ : « وحضر عندي يوم الثلاثاء تاسع شوال ، البتْرُكُ بشارة ، الملقَّب بميخائيل ، وأخبرني أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بَتْرَكاَ بدمشق عوضاً عن البتْرَكِ بأنطاكية . فذكرتُ له أن هذا أمر مبتدع في دينهم ، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة : بالإسكندرية ، وبالقدس ، وبأنطاكية ، وبرومية . فنقل رومية إلى إسطنبول ، وهي القسطنطينية ، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك ، فهذا الذي ابتدعه في هذا الوقت أعظم من ذلك . لكن اعتذر بأنه في الحقيقة هو عن أنطاكية ، وإنما أذن له في المقام بالشام الشريف ، لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص ، يذكر له ماحلّ بهم من الخزي والنكال والجنابة بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية . وأحضر لي الكتب إليه وإلى ملك إسطنبول ، وقرأها علىّ من لفظه . لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً !! وقد تكلمتُ معه في دينهم ، ونصوص ما يعتقده كلٌّ من الطوائف الثلاثة ، وهم : الملكية ، واليعقوبية — ومنهم الإفرنج والقطب — والنسطورية ، فإذا هو يفهم بعض الشيء . ولكن حاصله أنه حمار ، من أ كفر الكفار ! لعنه الله . » (التاريخ : ١٤ : ٣١٩ — ٣٢٠) .

ولا يعجبني القارئ من أن يكون ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بتاركهم . استغفر الله ، بل إنه يذكر عن ذاك البتْرَك ميخائيل الذي تكلم معه « أنه يفهم بعض الشيء » — لأن ابن كثير رحمه الله من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل ، وخاصة مذاهب المسيحيين . كما يدل عليه كلامه في مواضع كثيرة في التفسير والتاريخ . بل يكفي في الدلالة على سعة اطلاعه في

ذلك أن يكون تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ، الذى ألف موسوعته النفيسة فى ذلك : « كتاب الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » . وهو مطبوع معروف . وكان — رحمه الله — قد أضرّ فى آخر عمره . ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤ . وقال ابن ناصر : « وكانت له جنازة حافلة مشهورة . ودفن بوصية منه فى تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق » .

✓ مؤلفاته : له مؤلفات كثيرة ، ما أظن أنى أستطيع استقصاءها الآن . وبعضها مفقود ، أو لم نعرف مكان وجوده إلى الآن . وهو يشير إلى كثير منها فى التفسير وغيره من كتبه عند المناسبات . وسنذكر هنا ما وصل إليه علمنا . وجُله ومعظمه مما ذكره أخونا العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، فى ترجمته إياه فى كتاب (اختصار علوم الحديث) :

- ١ — التفسير . وهو هذا الكتاب الذى نختصره . وقد فصلنا وصفه فى المقدمة .
- ٢ — البداية والنهاية . وهو التاريخ النفيس المعروف . طبع منه بمصر سنة ١٣٥٨ — ١٤ مجلداً كبيراً ، أرخ فيه من بدء الخليقة إلى أثناء سنة ٧٦٨ ، أى قبل وفاته بنحو ٦ سنوات . وبقى منه مجلدان لم يطبعوا . وهو القسم الأخير منه المشار إليه فى اسمه « النهاية » ، جمع فيه ما ورد من الأخبار فى الفتن وأشرط الساعة والملاحم وأحوال الآخرة .

- ٣ — السيرة النبوية (مطولة) . ولم نره ، ولكنه أشار إليه وإلى السيرة المختصرة فى تفسير الآية : ٦ من سورة الأحزاب « فى كتاب السيرة التى أفردناها موجزًا وبسيطًا » .

٤ — السيرة (مختصرة) . وقد طبعت بمصر سنة ١٣٥٨ تحت اسم « الفصول في اختصار سيرة الرسول » . وهذا المطبوع غير كامل يقيناً . فلا أدرى اقتصر المؤلف رحمه الله على هذا القدر ؟ أم فقد باقى الكتاب ؟ فإنه يقول فى خطبة الكتاب : « لا يحمل بأولى العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية » . ثم يقول : « وقد أحييت أن أعلق تذكرة فى ذلك وهى مشتملة على ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وأعلامه ، وذكر أيام الإسلام بعده ، إلى يومنا هذا » . ولكن المطبوع هو السيرة النبوية فقط ، عن مخطوطة (مكتبة عارف حكمت) بالمدينة المنورة . فالكتاب ناقص ييقين .

٥ — اختصار علوم الحديث . اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح فى المصطلح . وقد طبع بمكة ، وطبعته بشرحى مرتين ، كما بينت آنفاً ص : ٢٧ .

٦ — جامع المسانيد والسنن . ذكره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم (الهدى والسنن فى أحاديث المسانيد والسنن) ، وأنه « جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبخارى وأبى يعلى وابن أبى شيبة مع الكتب الستة » . ولست أدرى حقيقة هذا الوصف . فإن المؤلف رحمه الله لم يتمه . ثم المقدار الذى عمله لم يوجد منه إلا سبعة مجلدات بدار الكتب المصرية . وقد صورتُ المجلد الأخير منها . وفيه معظم (مسند أبى هريرة) ، رتب فيه الأحاديث من مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبى هريرة — على حروف المعجم . وأول هذا المجلد أثناء حرف الجيم ، وأول الأسماء فيه « جعفر بن عياض المدنى عنه » ، يعنى عن أبى هريرة . وآخره « آخر مسند أبى هريرة » . وهو فى ٢٦٩ ورقة . وقد درسته طويلاً ،

يعمل في « مسند أبي هريرة » من مسند الإمام أحمد . ولم أجد فيه إشارة إلى « البزار وأبي يعلى وابن أبي شيبه » ولكن تكثر الإشارة فيه إلى الكتب الستة . ولست أدري خطته فيه بالدقة . فإنه محتاج إلى دراسة وإفية ، بعد تصوير سائر المجلدات الموجودة . ومجموع أوراق المجلدات السبعة — على ما فيها من خروم — : ٢٢٨٠ ورقة .

٧ — التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل . جمع فيه كتابي شيعيه : الميزي والذهبي ، (تهذيب الكمال) و (ميزان الاعتدال) مع زيادات في الجرح والتعديل .

٨ — مسند الشيخين : أبي بكر وعمر .

٩ — رسالة في الجهاد . وهي مطبوعة .

١٠ — طبقات الشافعية ، ومعه مناقب الشافعي .

١١ — اختصار كتاب (المدخل إلى كتاب السنن) لليهقي .

١٢ — كتاب (المقدمات) . ولعله في المصطلح .

١٣ — تخريج أحاديث أدلة التنية — في فروع الشافعية .

١٤ — تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب — في الأصول .

١٥ — شرح صحيح البخاري — شرع فيه ولم يكمله ، وأشار إليه مراراً في كتبه .

١٦ — كتاب (الأحكام) وهو كتاب كبير لم يكمله — وصل فيه إلى « الحج » .

مصادر الترجمة

- البداية والنهاية . وهو التاريخ الكبير لابن كثير - الجزء ١٤ طبعة مصر ١٣٥٨
 تذكرة الحفاظ للذهبي
 طبعة جيدر آباد ١٣٣٤
- الدارس في تاريخ المدارس للنعمي
 الجزء الأول طبعة دمشق ١٣٦٧
- الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر
 الجزء الأول طبعة حيدر آباد ١٣٤٨
- ذبول تذكرة الحفاظ للحسيني
 طبعة مصر ١٣٤٧
- » » » للسيوطي
 » » » ١٣٤٧
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي الجزء ١١ طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩
- شذرات الذهب لابن العماد
 الجزء ٦ طبعة مصر ١٣٥١
- الرد الوافر لابن ناصر الدين
 » » ١٣٢٩
- ترجمته بقلم الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة
 في أول (اختصار علوم الحديث) بشرحنا
 » » ١٣٧٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام الأوحى ، البارع الحافظ المتقن ، عماد الدين أبو الفداء ،
إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير الشافعى — رحمه الله تعالى
ورضى عنه :

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين
* الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ وقال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على
عبدك الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ . قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين
الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثين فيه أبداً ﴾ . وينذر الذين
قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج
من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ . وافتتح خلقه بالحمد ، فقال تعالى :
﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين
كفروا برهم يعدلون ﴾ . واختتمه بالحمد ، فقال بعد ما ذكر مال أهل الجنة
وأهل النار : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو الله
لا إله إلا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون ﴾ .
كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد
فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير ﴾ .

فله الحمد فى الأولى والآخرة ، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق . هو
المحمود فى ذلك كله ، كما يقول المصلى : « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات
وملء الأرض ، وملء ما شئت من شئ بعد » . ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه
وتحميده كما يلهمون النفس . أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ، لما يرون
من عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته وعظم سلطانه ، وتوالى منته ودوام إحسانه ،

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

والحمد لله الذي أرسل رُسُلَهُ ﴿ مَبْشُرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّايَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ 〉 . وَخَتَمَهُمُ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ ، الْهَادِي لِأَوْضَحِ السَّبِيلِ . أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، مِنْ لَدُنْ بُعِثَتْهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ 〉 . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ 〉 . فَمَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ ، وَأَسْوَدٍ وَأَحْمَرٍ ، وَإِنْسٍ وَجَانٍ ، فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ 〉 . فَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِمَّنْ ذَكَرْنَا فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ بِنَصِّ اللَّهِ تَعَالَى . وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ 〉 .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » . (١)
قال مجاهد : يعنى الإنس والجن .

فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن ، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز : ﴿ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ 〉 .

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نذيرهم فيه إلى تفهمه ، فقال تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً 〉 .

وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ 〉 .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا 〉 .

(١) معناه ثابت ضمن حديث رواه مسلم ١ : ١٤٧ ، عن جابر . وآخر رواه أحمد في المسند : ٢٢٥٦ ، ٢٧٤٢ ، عن ابن عباس .

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله ، وتفسير ذلك ، وطلبه من مظانّه ، وتعلم ذلك وتعليمه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليسينته للناس ولا يكتُمونه ^(١) ، فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما يشترُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ .

فقدم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم ، وإقبالهم على الدنيا وجمعها ، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله . فعليها أيها المسلمون أن تنتهي عما ذمهم الله تعالى به ، وأن تأتمر بما أمرنا به ، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهمه ، قال الله تعالى : ﴿ ألم يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لذكر الله وما نَزَلَ من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ﴾ . اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ . ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي . والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا هذا ، إنه جواد كريم .

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر ، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له . بل قد قال الإمام الشافعي : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك

(١) « ليسينته للناس ولا يكتُمونه » : هي ثابتة في الأزهرية بالياء في الحرفين . وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وغيرهما من القراء السبعة . وقرأ الباقون بالتاء المثناة فيهما ، وهي قراءة حفص التي يقرأ لها الناس بمصر وغيرها .

الله ، ولا تكن^١ للخائنين خصيماً ﴿ وقال تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .
 ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إني أوتيتُ القرآن ومثله معه » .^(١)
 يعنى السنة . والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى ، كما ينزل القرآن ، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن . وقد استدلل الإمام الشافعى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة .
 والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تعجده فن السنة . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : أجتهد برأى . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله » . وهذا الحديث فى المساند والسنن بإسناد جيد .

وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصاصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح . لا سيما علماءهم وكبرائهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، وكعبدالله بن مسعود فقد قال ابن مسعود : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : « حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً » .

ومنهم الخبر البحر ، عبد الله بن عباس ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، حيث قال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » .

وروى الطبرى ، عن ابن مسعود ، قال : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وإسناده صحيح .

وقد مات ابن مسعود في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، ومُعمّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العاوم بعد ابن مسعود . وقال أبو وائل : استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية : سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « بلغوا عني ولو آية » ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح . والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجاوز حكايته لما تقدم . وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك . كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى . إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم .

ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز ، كما قال تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون

سبعة وثامنهم كلهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل * فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴿ . فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام ، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا : فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردها ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فقال فى مثل هذا : ﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ﴾ فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلع الله عليه ، فلهذا قال : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أى : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألم عن ذلك ، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب .

فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها ، وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد نعد الكذب ، أو جاهلاً فقد أخطأ . وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبى زور . والله الموفق للصواب .

فصل

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد بن جبر ، فإنه كان آية فى التفسير .

فقد روى الطبري عن ابن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح ، قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله . ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، وسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتلاميذهم ومن بعدهم . فتذكر أقوالهم في الآية ، فيقع في عبارتهم تباينٌ في الألفاظ ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً ، فيحكيها أقوالاً ، وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه . والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن ، فليتفطن اللبيب لذلك . والله الهادي . وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوالُ التابعين في الفروع ليست حجة ، فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح . وأما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة . فإن اختلفوا فلا يكون قولُ بعضهم حجة على قول بعض ، ولا على من بعدهم . ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك .

فأما تفسير القرآن بمجرّد الرأي فمحرام ، لما رواه محمد بن جرير ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار » . ورواه الترمذی ، والنسائي ، وأبو داود . وقال الترمذی : حديث حسن .

وروى ابن جرير ، عن جندب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ » . ورواه أبو داود ، والترمذی ، والنسائي . وقال الترمذی : غريب ، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل . وفي لفظهم : « من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » . أي لأنه

قد تكلف ما لا علم له به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابيه . كمن حكم بين الناس على جهل ، فهو في النار ، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ . والله أعلم ^(١) .

وهكذا سمي الله القذفة كاذبين فقال : ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ . فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ، لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به . ولو كان أخبر بما يعلم ، لأنه تكلف ما لا علم له به . والله أعلم .

ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أى أرض تظلى ، وأى سماء تظلى ، إذا قلت في كتاب الله بما لم أعلم .

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام : أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ ؟ فقال : أى سماء تظلى ، وأى أرض تظلى ، إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . إسناده منقطع .

وروى أيضاً : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه ، فقال : إن هذا هو التكلف يا عمر .

(١) أما في عصرنا ، فقد نابت نواصب ، ونبتت نواصب ، ممن استعبدوا لآراء المبشرين وأهوائهم . ومن جهلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباههم ، وجعلوا القرآن فلم يقرؤه ، ولا يكادون يسمعونه إلا قليلاً ، وجعلوا السنة ، بل كانوا من أعدائها . ومن تخروا من علم علماء الإسلام ، وسفقت أحلامهم ، ومردت ألسنتهم على قولة السوء في سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . بل لا يؤمنون بالغيب إلا قليلاً . هؤلاء وأشباههم وأمثالهم ، اجترأوا على العبث بالقرآن ، واللعب بالسنة . فعرضوا لتفسير القرآن ، وزعموا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل ، يفتنون الناس ويعلمونهم اللعب والعبث ، ويزعجون من قلوبهم الإيمان . لا أقول إن هؤلاء وأولئك يفسرون القرآن بأهوائهم ، فإنهم أضعف من أن تكون لهم أهواء وأشد جهلاً . بل بأهواء سادتهم ومعلميهم من المبشرين والمستعمرين أعداء الإسلام . وقد نضرب المثل لذلك عند المناسبات ، فيما سيأتى . إن شاء الله .

وروى عبد بن حميد عن أنس ، قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفي ظهر قميصه أربع رقع ، فقرأ ﴿ وفاكهة وأبًا ﴾ ، فقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا هو التكلف ، فما عليك أن لا تدريه .

وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل ، لقوله تعالى : ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعناباً ﴾ الآية .

وروى الطبري عن ابن أبي مليكة : أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضهم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها . وإسناده صحيح .

وروى أبو عبيد عن ابن أبي مليكة : سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة ؟ فقال له ابن عباس : فما يوم ؟ كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال له الرجل : إنما سألتك لتحديثي ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه ، الله أعلم بهما . فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم .

وروى الطبري عن الوليد بن مسلم ، قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله ، فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أخرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني — أو قال : أن تجالسنى .

وروى مالك عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن ؟ قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً .

وروى الليث عنه : أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن .

وقال ابن شوذب : حدثني يزيد بن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع .

وروى ابن جرير عن عبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركتُ فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع .

وروى أبو عبيد، عن هشام بن عروة، قال : ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط .

وروى أيضاً عن مسلم بن يسار، قال : إذا حدثت عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده .

وروى أيضاً عن مسروق، قال : اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله . فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به .

فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه . ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير . ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه .

وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى : ﴿ لِيبينه للناس ولا يكتُمونه ﴾ .

ولما جاء في الحديث المروى من طرق : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

مقدمة

قال قتادة : نزل في المدينة من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، و ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾ إلى رأس العشر ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلت بالمدينة ، وسائر السور بمكة .

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية . ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : ففهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتي آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية ، وقيل : ومائتان وست وثلاثون . حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان .

وأما التحزيب والتجزئة : فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين ، كما في الربعات بالمدارس وغيرها .

وأما تحزيب الصحابة للقرآن . ففي مسند الإمام أحمد ، وسنن أبي داود ، وابن ماجه ، وغيرهم ، عن أوس بن حذيفة : « أنه سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع . وإحدى عشرة . وثلاث عشرة . وحزبُ المفصل حتى نختم » . (١)

(١) سيذكر المؤلف هذا الحديث مطولا ، ويشرحه ، في أول سورة ق . وهي أول المفصل . وانظر ابن حبان بتحقيقنا ١ : ١١٠ .

فصل

واختلف في معنى « السورة » : مما هي مشتقة ؟ فقليل : من الإبانة والارتفاع ، فكأنّ القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة . وقيل : لشرفها وارتفاعها ، كسور البلدان . وقيل : سميت « سورة » لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه ، مأخوذ من سؤر الإناء ، وهو البقية . وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً ، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها . وقيل : لتامها وكماها ، لأن العرب يسمون الناقة التامة : سورة .

قلت : ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمى سورُ البلد ، لإحاطته بمنازله ودوره .

وجمع السورة « سور » بفتح الواو ، وقد يجمع على « سورات » و « سوارات » . وأما الآية ، [فأصل معناها : العلامة . سميت بذلك لأنها العلامة] ^(١) على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها . أى : هي بائنة عن أختها ومنفردة . قال الله تعالى : ﴿ إِنْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكَ آتَتْ ﴾ .

وقيل : لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ، كما يقال : خرج القوم بآياتهم ، أى بجماعاتهم .

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . قال سيبويه : وأصلها « أَيْيَّة » مثل « أكمة وشجرة » ، وتحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ، فصارت « آية » بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائي : أصلها « آيئة » على وزن « آمنة » فقلبت ألفاً ثم حذفت لالتباسها . وجمعها « آى » و « آياى » و « آيات » .

(١) في المطبوعة « وأما الآية فن العلامة » ! وهو كلام غير مستقيم . فزودنا ما بين القوسين لإقامته . وهذه المقدمة من أولها ليست في الأزهرية ، فلم نجد مناصاً من تصحيحها اجتهداً .

وأما الكلمة ، فهي : اللفظة الواحدة . وقد تكون على حرفين مثل « ما » و « لا » ونحو ذلك . وقد تكون أكثر . وأكثر ما تكون عشرة أحرف ، مثل « ليستخلفنهم » و « أنلزمكموها » و « فأسقيناكموه » .
وقد تكون الكلمة الواحدة آية ، مثل « والفجر » « والضحى » « والعصر » . وكذلك « ألم » و « طه » و « يس » و « حم » في قول الكوفيين ، و « حم عسق » عندهم كلمتان . وغيرهم لا يسمى هذه آيات ، بل يقول : هذه فواتح السور . وقال أبو عمرو الداني : لا أعلم كلمة هي وحدها آية ، إلا قوله تعالى ﴿ مدهامتان ﴾ بسورة الرحمن .

فصل

قال القرطبي : أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية . وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية ، كإبراهيم ، ونوح ، ولوط . واختلفوا : هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية ؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري ، وقالوا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات . (١)

(١) هذا هو الحق الذي تدل عليه الدلائل . وقد شنع الشافعي رحمه الله بمن زعم أن في القرآن ألفاظاً أعجمية ، تشنيعاً شديداً بأبلغ عبارة وأعلاها وأقواها ، في كتاب (الرسالة) في الفقرات : ١٣١ - ١٧٨ ، بتحقيقنا .

سورة الفاتحة

وهي مكية ، وقيل : مدنية ، ويقال : نزلت مرتين ، مرة بمكة ومرة بالمدينة . والأول أشبه .

وهي سبع آيات بلا خلاف . وإنما اختلفوا في البسملة : هل هي آية مستقلة من أولها ، كما هو المشهور عن جمهور قراء الكوفة ، وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف ؟ أو بعض آية ؟ أو لا تعدُّ من أولها بالكلية ، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء ؟ على ثلاثة أقوال ، سيأتى تقريرها . إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال البخارى فى أول كتاب التفسير : وسميت « أم الكتاب » لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقيل : إنما سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته . قال ابن جرير : والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مقدم لأمر ، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع — « أمّا » ، فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ « أم الرأس » ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها « أمّا » .

ويقال لها أيضاً « الفاتحة » ، لأنه تفتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابةُ بها كتابة المصحف الإمام . وصح تسميتها بـ « السبع المثاني » ، قالوا : لأنها تشتمل فى الصلاة ، فتقرأ فى كل ركعة . وإن كان للمثنائى معنى آخر غير هذا ، كما سيأتى بيانه فى موضعه . إن شاء الله .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال فى أم القرآن : « هى أم القرآن ، وهى السبع المثاني ، وهى القرآن العظيم » . ورواه ابن جرير أيضاً بنحوه .

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن مردويه ، عن أبي هريرة ، قال :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله رب العالمين » سبعُ آيات ،
 « بسم الله الرحمن الرحيم » إحداهنَّ ، وهى السبع المثنى ، والقرآن العظيم ، وهى
 أمّ الكتاب ، وفاتحة الكتاب . وقد رواه الدارقطنى أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً
 بنحوه أو مثله ، وقال : كلهم ثقات .

وروى البيهقى عن على ، وابن عباس ، وأبي هريرة : أنهم فسرُوا قوله
 تعالى ﴿ سبْعاً مِنَ الْمَثَانِ ﴾ بالفاتحة ، وأن البسملة هى الآية السابعة منها .

فضل الفاتحة

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن المعلّى رضى الله عنه ، قال : « كنت أصلى ، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت ، فأتيته ، فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ قال : قلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلى ، قال : ألم يقل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله ، إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ، قال : نعم ، ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ^(١) . ورواه البخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه . ورواه الواقدي ، عن أبي سعيد بن المعلّى ، عن أبي بن كعب ، فذكر نحوه .

وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس ما ينبغي التنبيه عليه ، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقى ، أن أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبا بن كعب وهو يصلى في المسجد ، فلما فرغ من صلاته لحقه ، قال : فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على يدي وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ، ثم قال : إني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها ، قال : أئى : فجعلت أبطى في المشى رجاءً ذلك ، ثم قلت : يا رسول الله ، السورة التي وعدتني ؟ قال : كيف تقرأ إذا

(١) هو في المسند (٤ : ٢١١ طبعة الحلبي) ، ورواه أيضاً قبل ذلك بنحوه : ١٧٥٩٥

(٣ : ٤٥٠ حلبي) .

افتتحت الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، حتى أتيت على آخرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي هذه السورة ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت . فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلى ، كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه ، فإن ابن المعلى صحابي أنصاري ، وهذا تابعي من موالى خبزاعة ، وذاك الحديث متصل صحيح ، وهذا ظاهره أنه منقطع إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب ، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم .^(١) والله أعلم .

على أنه قد روى عن أبي بن كعب من غير وجه : كما روى الإمام أحمد : عن أبي هريرة ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب وهو يصلي ، فقال : يا أبي ، فالتفت فلم يجبه ، ثم صلى أبي فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : السلام عليك أي رسول الله ، قال : وعليك ، ما منعك أي أبتى إذ دعوتك أن تجيبني ؟ قال : أي رسول الله ، كنت في الصلاة ، قال : أفلست تجد فيما أوحى الله إلي أن ﴿ استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ؟ قال : بلى أي رسول الله ، لا أعود ، قال : أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها ؟ قلت : نعم أي رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدي يحدثني ، وأنا أتبطأ ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث ، فلما أن دنونا من الباب ، قلت : أي رسول الله ، ما السورة التي وعدتني ؟ قال : فكيف تقرأ في الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه أم القرآن ، قال : والذي نفسي بيده ، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، إنها السبع المثاني .^(٢) ورواه الترمذي ، وعنده : « إنها من

(١) الحديث في الموطأ ، ص : ٨٣ ، باختلاف في الألفاظ قليل . وانظر جامع الأصول :

(٢) الحديث في المسند : ٩٣٣٤ (٢ : ٤١٢ - ٤١٣ ج١) . وقد صححناه في هذا الموضع على ما في المسند .

السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته » . ثم قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أنس بن مالك .

ورواه عبد الله بن أحمد ، عن أبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، فذكره مطولاً ، بنحوه أو قريباً منه ^(١) .

وقد روى الترمذى والنسائى ، عن أبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن ، وهى السبع المثاني ، وهى مقسومة بينى وبين عبدى » . هذا لفظ النسائى . وقال الترمذى : حسن غريب .

وروى الإمام أحمد : عن ابن جابر ، قال : « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهرق الماء ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فلم يردّ علىّ ، قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فلم يردّ علىّ ؟ قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فلم يردّ علىّ ، قال : فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وأنا خلفه حتى دخل رحله ، ودخلتُ أنا المسجد ، فجلستُ كثيراً حزينا ، فخرج علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تطهر ، فقال : عليك السلام ورحمة الله ، وعليك السلام ورحمة الله ، وعليك السلام ورحمة الله ، ثم قال : ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بنخبر سورة فى القرآن ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : اقرأ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ حتى تختمها » . هذا إسناده جيد ^(٢) . وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابى : ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدى ، والله أعلم . ويقال : إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى ، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر ^(٣) .

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على

(١) هو فى المسند ٥ : ١١٤ - ١١٥ (حلبى) .

(٢) هو فى المسند ١٧٦٧٣ : (٤ : ١٧٧ حلبى) .

(٣) بين الحافظ ابن حجر فى التعميل ، ص : ٢١٦ - أنه البياضى الأنصارى . وأما العبدى فذكر أن له حديثاً آخر ، وأنه قيل إن اسمه « عبد الرحمن » .

بعض ، كما هو المحكى عن كثير من العلماء ، منهم : إسحق بن راهويه ، وأبو بكر بن العربي ، وابن القصار من المالكية .

وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك ، لأن الجميع كلام الله ، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه ، وإن كان الجميع فاضلاً . نقله القرطبي عن الأشعري ، وأبي بكر الباقلاني ، وابن حبان ، ويحيى بن يحيى ، ورواية عن الإمام مالك .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري ، قال : « كنا في مسير لنا ، ففتزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحى سليم ، وإن نفرنا غييب ، فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية ، فراه فبراً ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبناً ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن رقية ، أو كنت ترقى ؟ قال : لا ما رقيت إلا بأمر الكتاب ، قلنا لا تحدثوا شيئاً حتى نأتى أو نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قدمنا المدينة ، ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقساموا واضربوا لى بسهم » (١) .

ورواه مسلم وأبو داود . وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث أن أبا سعيد الخدري هو الذى رقى ذلك السليم ، يعنى اللديغ ، يسمونه بذلك تفاؤلاً .

وروى مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه ، عن ابن عباس ، قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء ، فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فتزل منه ملك ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته » . وهذا لفظ النسائى (٢) .

(١) هو فى فتح البارى ٩ : ٤٩ . وقوله « ما كنا نأبئه برقية » - قال ابن الأثير : « أى ما كنا نعلم أنه يرقى . فنعيه بذلك » . وهو من قولهم « أبته يأبته » ، إذا رماه بخلة سوء .

(٢) هو فى سنن النسائى ١ : ٤٥ . وفى آخره « إلا أعطيته » ، بدل « أوتيته » . ورواية مسلم هى فى الصحيح ١ : ٢٢٢ . وهذا الحديث لم أجده فى مسند أحد ، على سعة .

وروى مسلم : عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداجٌ ، ثلاثاً ، غيرُ تمام ، فقليل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل : قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، قال الله : حمدني عبدى ، وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، قال الله : أثني على عبدى ، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، قال : مجدني عبدى ، وقال مرة : فوض إلى عبدى ، فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، قال : هذا بيني وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهدانا الصراط المستقيم ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل . ورواه النسائي . وفي رواية لهما : « فنصفها لي ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل » (١) .

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختصّ بحكم الفاتحة من وجوه : أحدها : أنه قد أطلق فيه لفظ « الصلاة » ، والمراد القراءة ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافتُ بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ ، أى بقراءتك ، كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس . وهكذا قال في هذا الحديث : « قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدى نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل » . ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة ، فدل على عظم القراءة في الصلاة ، وأنها من أكبر أركانها ، إذ أطلقت العبادةُ وأريد بها جزء واحد منها ، وهو القراءة . كما أطلق لفظ « القراءة » والمراد به الصلاة في قوله : ﴿ وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ ، والمراد صلاة الفجر ، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين من أنه : « يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار » . فدل هذا كله على

(١) هو في صحيح مسلم ١ : ١١٦ . والنسائي ١ : ١٤٤ - ١٤٥ . ورواه مالك في الموطأ ، ص : ٨٤ - ٨٥ ، بنحوه . وكذلك رواه أحمد في المسند : ٧٢٨٩ ، ٧٤٠٠ . ورواه الطبري مختصراً : ٢٢١ - ٢٢٣ .

أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء . ولكن اختلفوا في : أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب ، أم تجزئ هي وغيرها ؟ على قولين مشهورين : فعند أبي حنيفة ، ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ، أنها لا تتعين ، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاءه في الصلاة ، واحتجوا بعموم قوله تعالى : ﴿ فاقروا ما تيسر من القرآن ﴾ ، وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ، في قصة المسىء صلواته : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » . قالوا : فأمره بقراءة ما تيسر ، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها ، فدل على ما قلنا .

والقول الثاني : أنه يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، ولا تجزئ الصلاة بدونها . وهو قول بقية الأئمة : مالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وأصحابهم ، وجمهور العلماء . واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور ، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج » . والخداج : هو الناقص ، كما فسره في الحديث : « غير تمام » . واحتجوا أيضاً بما ثبت في الصحيحين ، عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . وفي صحيح ابن خزيمة ، وابن حبان ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن » . والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم : أنه تجب قراءتها في كل ركعة . وقال آخرون : إنما تجب قراءتها في معظم الركعات . وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلاة ، أخذاً بمطلق الحديث : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي : لا تتعين قراءتها ، بل لو قرأ بغيرها أجزاءه ، لقوله تعالى : ﴿ فاقروا ما تيسر من القرآن ﴾ . والله أعلم . وقد روى ابن ماجه ، عن أبي سعيد ، مرفوعاً : « لا صلاة لمن لم يقرأ في

كل ركعة بالحمد وسورة ، في فريضة أو غيرها » . وفي صحة هذا نظر .
الوجه الثالث : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه ، لعموم الأحاديث المتقدمة .

والثاني : لا تجب على المأموم قراءة بالكلية ، لا الفاتحة ولا غيرها ، لا في الصلاة الجهرية ، ولا في السرية .

لما رواه الإمام أحمد ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة » . ولكن في إسناده ضعف . ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه . وقد روى هذا الحديث من طرق ، ولا يصح شيء منها عن النبي صلى الله عليه وسلم . والله أعلم .
والقول الثالث : أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم ، ولا تجب في الجهرية ، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا » . وذكر بقية الحديث . وروى أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « وإذا قرأ فأنصتوا » . وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً . فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول ، وهو قول قديم للشافعي ، ورواية عن الإمام أحمد .

وروى الحافظ أبو بكر البزار ، عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا وضعت جنبك على الفراش ، وقرأت فاتحة الكتاب و " قل هو الله أحد " فقد أمنت من كل شيء ، إلا الموت » .^(١)

(١) الحديث في مجمع الزوائد ١٠ : ١٢١ ، وقال : « رواه البزار ، وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ، وثقه ابن حبان . وبقية رجاله رجال الصحيح » . أقول : وغسان بن عبيد الموصلي ، مترجم في لسان الميزان ، وأنه ضعفه أحمد ، والبخاري . وأنه اختلف فيه قول يحيى بن معين ، بين التوثيق والتضعيف ، إلا أنه صرح بأنه « لم يكن من أهل الكذب » . وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥١/٢/٣ ، ولم يذكر فيه جرحاً ، أمانة توثيقه عنده .

الكلام على تفسيرها

الاستعاذة

قال الله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم ﴾ .

فهذه ثلاث آيات ليس هنّ رابعة في معناها ، وهو : أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدوّ الإنسيّ والإحسان إليه ، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدوّ الشيطاني لا محالة ، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ، ولا يتغى غير هلاك ابن آدم ، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل . كما قال تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو . بئس للظالمين بدلاً ﴾ . وقد أقسم للوالد آدم : أنه له لمن الناصحين ، وكذب ، فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾ ؟ وقال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

والمشهور الذي عليه الجمهور : أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها إنما تكون قبل التلاوة . ومعنى الآية : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ .
 أى : إذا أردت القراءة ، كقوله : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴾ الآية . أى : إذا أردتم القيام .

والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك :
 فروى الإمام أحمد ، عن أبي سعيد الخدرى ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، ويقول : لا إله إلا الله — ثلاثاً — ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » . وقد رواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى : هو أشهر شئ في هذا الباب . وقد فسر الهمز بالموتة ، وهى الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر .^(١) كما روى أبو داود ، وابن ماجه ، عن جبير بن مطعم ، قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل فى الصلاة قال : الله أكبر كبيراً — ثلاثاً — الحمد لله كثيراً — ثلاثاً — سبحان الله بكرة وأصيلاً — ثلاثاً — اللهم إني أعوذ بك من الشيطان ، من همزه ونفخه ونفثه » . قال عمرو بن مرة : همزه : الموتة ، ونفخه : الكبر ، ونفثه : الشعر .^(٢)

وروى ابن ماجه ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم ، وهمزه ونفخه ونفثه ، قال : همزه : الموتة ، ونفثه : الشعر ، ونفخه : الكبر »^(٣) .

(١) الموتة — بضم الميم : جنس من الجنون والصرع يعترى الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه عقله ، كالنائم والسكران .

(٢) هو فى ابن ماجه : ٨٠٧ .

(٣) هو فيه : ٨٠٨ . وقال البوصيرى فى زوائده : « رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث أبي سعيد الخدرى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من حديث جبير بن مطعم . يعنى الحديثين اللذين قبل هذا .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى ، عن أبي بن كعب ، قال : « تلاحي رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمزّع أنفُ أحدهما غضباً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأعلمُ شيئاً لو قاله لذهب عنه ما يجد : أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم » . وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائي في اليوم والليلة ، عن معاذ بن جبل ، قال : « استبَّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خيلَ إلى أن أحدهما يتمزّعُ أنفه من شدة غضبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني لأعلمُ كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب ، فقال : ما هي يا رسول الله ؟ قال ، يقول : ” اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم “ ، قال : فجعل معاذ يأمره ، فأبى ، وجعل يزداد غضباً » . وهذا لفظ أبي داود . وقال الترمذى : مرسل ، يعنى أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلقَ معاذ بن جبل ، فإنه مات قبل سنة عشرين .

قلت : وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب ، كما تقدم ، وبلغه عن معاذ بن جبل ، فإن هذه القصة شهد بها غير واحد من الصحابة رضی الله عنهم :

فروى البخارى : عن سليمان بن صُرَد قال : « استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن عنده جلوس ، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : ” أعوذ بالله من الشيطان الرجيم “ ، فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : إني لستُ بمجنون ! ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي .

فصل

ومعنى " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " — أى : أستجير بجناب الله من الشيطان أن يضرنى فى دينى أو دنياى ، أو يصدنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه . فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله . ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ، لأنه لا يقبل رشوة ، ولا يؤثر فيه جميل ، لأنه شريرٌ بالطبع ، ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه .

وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة .^(١)
و « الشيطان » فى لغة العرب : مشتق من « شطن » ، إذ بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيدٌ بفسقه عن كل خير . وقيل : مشتق من « شاط » ، لأنه مخلوق من نار . ومنهم من يقول : كلاهما صحيح فى المعنى ، ولكن الأول أصح ، وعليه يدل كلام العرب .

وقال سيبويه : العرب تقول « تشيطن فلان » إذا فعل فعل الشياطين ، ولو كان من « شاط » لقالوا « تشيط » . و « الشيطان » مشتق من البعد ، على الصحيح . ولهذا يسمون كل من تمرد من جنى وإنسى وحيوان « شيطاناً » ، قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطينَ الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرفَ القول غروراً ﴾ .

وفى مسند أحمد ، عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجنّ ، فقلت : أوللإنس شياطين ؟ قال : نعم^(٢) » .

(١) أعاد الحفاظ رحمه الله ذكر الآيات الثلاث . وقد مضى من قبل ، ص : ٦١ .

(٢) رواه النسائى ٢ : ٣١٩ هكذا مختصراً . وهو فى المسند ضمن روايتين مطولتين ٥ :

١٧٨ ، ١٧٩ (حلبى) . ورواه أيضاً ضمن حديث مطول عن أبى أمامة ٥ : ٢٦٥ .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذرٍّ أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود ، فقلت : يا رسول الله ، ما بال الكلب الأسود من الأحمر من الأصفر ؟ فقال : الكلب الأسود شيطان » .
وروى الطبري : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركب برذوناً ، فجعل يتبختر به ، فجعل يضربه فلا يزدادُ إلا تبختراً ، فنزل عنه وقال : ما حملتموني إلا على شيطان ، ما نزلتُ عنه حتى أنكرتُ نفسي . وإسناده صحيح .
و « الرحيم » : « فعيل » بمعنى مفعول ، أى : أنه مرجوم مطرود عن الخير كله . كما قال تعالى : ﴿ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ويقذفون من كل جانب .
دحوراً ولهم عذابٌ وأصعبُ * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ * ،
وقال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ﴾ وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (١)

افتتح بها الصحابة كتاب الله . واتفق العلماء على أنها بعضُ آية من سورة النمل . ثم اختلفوا : هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ؟ أو من كل سورة كتبت في أولها ؟ أو أنها بعضُ آية من أول كل سورة ؟ أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ؟ أو أنها إنما كتبت للفصل ، لا أنها آية ؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً ، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع .

وفي سنن أبي داود ، بإسناد صحيح ، عن ابن عباس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ » . وأخرجه الحاكم في المستدرك .

وفي صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة، وعدّها آية». لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عنها. وروى له الدارقطني متابعاً عن أبي هريرة مرفوعاً. وروى مثله عن عليّ، وابن عباس، وغيرهما.

ومن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعليّ. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهرى. وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل — في رواية عنه، وإسحق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله. ^(١) وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور. وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة، لا منها، وهذا رواية عن الإمام أحمد، وحكاها أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة.

هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا.

فأما ما يتعلق بالجمهور بها، فففرع على هذا: فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال إنها آية في أولها. وأما من قال بأنها من أوائل السور، فاختلفوا: فذهب الشافعي إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً. فجهر

(١) وهو القول الصحيح، الذي تنصره الدلائل الصحاح، من الكتاب والسنة. ومن أقواها: أن جميع المصاحف الأمهات، التي كتبها عثمان بن عفان، وأقرأها الصحابة جميعاً، دون ما عداها — كتبت فيها البسملة في أول كل سورة سوى براءة. وأن الصحابة رضوان الله عليهم، إذ جمعوا القرآن في المصاحف، جردوه من كل شيء غيره، فلم يكتبوا أسماء السور، ولا أعداد الآي، ولا كلمة «آمين». ومنعوا أن يجرؤ أحد على كتابة ما ليس من كتاب الله في المصاحف، حرصاً منهم على حفظ كتاب الله، وخشية أن يشبهه على أحد ممن بعدهم فيظن غير القرآن قرآناً. أفيقل — مع هذا كله — أن يكتبوا مائة وثلاث عشرة بسملة زيادة على ما أنزل على رسول الله؟ ! ألا يدل هذا دلالة قاطعة منقولة بالتواتر العمل المؤيد بالكتابة المتواترة — على أنها آية من القرآن في كل موضع كتبت فيه؟ وقد فصلنا القول في ذلك، في بحث طويل، في شرحنا على الترمذی ج ٢ ص ١٦ - ٢٥.

بها من الصحابة : أبو هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، ومعاوية . ونقله الخطيب ، عن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، وأبي قلابة ، والزهرى ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم .

والحجة في ذلك : أنها بعضُ الفاتحة ، فيجهر بها كسائر أبعاضها .

وأيضاً : فقد روى النسائي في سننه ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، صحيحهما ، والحاكم في المستدرک، عن أبي هريرة : « أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة ، وقال بعد أن فرغ : إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم » . وصححه الدارقطني ، والخطيب ، والبيهقي ، وغيرهم .

وروى أبو داود، والترمذی، عن ابن عباس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتح الصلاة بـ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ » . ثم قال الترمذی : وليس إسناده بذلك .

وقد رواه الحاكم في المستدرک ، عن ابن عباس ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر . بـ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ » . ثم قال : صحيح .

وفي صحيح البخارى ، عن أنس بن مالك : أنه سُئل عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كانت قراءته مَدًّا ، ثم قرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ يمدّ « بسم الله » ، ويمدّ « الرحمن » ويمدّ « الرحيم » .

وفي مسند الإمام أحمد ، وسنن أبي داود ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرک الحاكم ، عن أم سلمة ، أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقطعُ قراءته : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ﴾ » . وقال الدارقطني : إسناده صحيح .

وروى الإمام الشافعى ، والحاكم في المستدرک ، عن أنس : أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة ، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرة الثانية بَسَمَلَ .

وفي هذه الأحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا

القول عما عداها . فأما المعارضاتُ والرواياتُ الغريبةُ وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها — فله موضع آخر .

وذهب آخرون إلى أنه لا يُجهر بالبسملة في الصلاة . وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن مُغفَل ، وطوائف من سلف التابعين والخلف . وهو مذهب أبي حنيفة ، والثوري ، وأحمد بن حنبل . وعند الإمام مالك : أنه لا يقرأ البسملة بالكلية ، لا جهرًا ولا سرًّا .

واحتجوا بما في صحيح مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بـ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ » .

وبما في الصحيحين ، عن أنس بن مالك ، قال : « صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، فكانوا يستفتحون بـ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ » .

ولمسلم : « لا يذكرون ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ في أول قراءة ولا آخرها » . ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل .

فهذه مأخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسئلة . وهي قريبة ، لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر . والله الحمد والمنة .

فصل في فضلها

روى الإمام أحمد في مسنده : عن عاصم ، قال : سمعت أبا تميمه يحدث عن رديف النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « عُثر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : تعيس الشيطان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقل تعيس الشيطان ، فإنك إذا قلت تعيس الشيطان تعاضم ، وقال : بقوتى صرعتُهُ ، وإذا قلت : ﴿ بسم الله ﴾ تصاغر حتى يصير مثل الذباب » . هكذا وقع في رواية الإمام أحمد ^(١) .

(١) هو في المسند ٥ : ٥٩ ، ٧١ ، ٣٦٥ (خلى) ، بأربعة أسانيد .

وقد روى النسائي في اليوم والليلة ، وابن مردويه عن أسامة بن عُمر ، قال : « كنتُ رديف النبي صلى الله عليه وسلم - فذكره - وقال : لا تقل هكذا ، فإنه يتعاضم حتى يكون كالبيت ، ولكن قل ﴿ بسم الله ﴾ ، فإنه يصغرُ حتى يكون كالذباب » (١) .

فهذا من تأثير بركة « بسم الله » . ولهذا تُستحب في أول كل عمل وقول : فتستحب في أول الخطبة ، لما جاء : « كل أمر لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم » .

وتستحب البسمة عند دخول الخلاء ، لما ورد من الحديث في ذلك .

وتستحب في أول الوضوء ، لما جاء في مسند الإمام أحمد ، والسنن ، من رواية أبي هريرة ، وسعيد بن زيد ، وأبي سعيد ، مرفوعاً : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » . وهو حديث حسن . ومن العلماء من أوجبها عند الذِّكْر ههنا ، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً .

وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة ، وأوجبها آخرون عند الذِّكْر ، ومطلقاً في قول بعضهم ، كما سيأتي بيانه في موضعه . إن شاء الله .

وهكذا تستحب عند الأكل ، لما في صحيح مسلم : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لربيبة عُمر بن أبي سلمة : « قل " بسم الله " ، وكل يمينك ، وكل مما يليك » . ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه .

وكذلك تستحب عند الجماع ، لما في الصحيحين عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يُقَدَّرَ بينهما ولدٌ لم يضره الشيطان أبداً » .

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في

(١) ورواه أبو داود : ٤٩٨٢ ، عن « أبي المليح » ، عن رجل ، قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم

قوله « بسم الله » هل هو اسم أو فعل — متقاربان . وكل قد ورد به القرآن . أما من قدره باسمٍ تقديره : بسم الله ابتدائي — فلقوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ . ومن قدره بالفعل فلقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ . وكلاهما صحيح ، فإن الفعل لا بد له من مصدر ، فلك أن تقدّر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله ، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءةً أو وضوءاً أو صلاةً . فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله ، تبركاً وتيمناً واستعانةً على الإتمام والتقبل . والله أعلم .

” الله “ : علمٌ على الربّ تبارك وتعالى . ويقال : إنه الاسم الأعظم ، لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالمُ الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له . كما قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

وفي الصحيحين ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائةً إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » . وجاء تعدادها في رواية الترمذی ، وابن ماجه . وبين الروایتين اختلافٌ زیادة ونقصان .

وهو اسمٌ لم يُسمَ به غيره تبارك وتعالى ، ولهذا لا يُعرف في كلام العرب له اشتقاقٌ من « فَعَلَ يَفْعُل » . فذهب مَنْ ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامدٌ لا اشتقاق له . وقد نقله القرطبي عن الشافعي ، والخطابي ، وإمام الحرمين ، والغزالي ، وغيرهم . ورؤى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام فيه لازمة . قال الخطابي : ألا ترى أنك تقول « يا الله » ولا تقول « يا الرحمن » ،

فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخالُ حرف النداء على الألف واللام .
وقيل : إنه مشتق ، واستدلوا عليه بقول رؤية بن العجاج :

لله دَرَّ الغانيات المدَّة سَبَحْنَ واسترْجَعْنَ من تألّهي^(١)

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو « التَّأَلَّى » من « أَلَّه يَأَلُّهُ إِلهَةٌ وتَأَلَّهًا » . كما روى عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ وَيَذَرَكْ وَلَا تَهْتِكْ ﴾ ، قال : عبادتك ، أى : أنه كان يُعبد ولا يَعبد . وكذا قال مجاهد وغيره .

وأصل ذلك « الإله » ، فحذفت الهمزةُ التي هي فاء الكلمة ، فالتقت اللامُ التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف ، فأدغمت إحداهما في الأخرى فصارتا في اللفظ لاماً واحدةً مشددةً ، وفخمت تعظيماً ، فقيل « الله » .

” الرحمن الرحيم “ : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . و « رَحْمَانٌ » أشدُّ مبالغةً من « رحيم » . وفي كلام ابن جرير ما يُفهم منه حكايةُ الاتفاق على هذا . وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك . قال القرطبي : والدليل على أنه مشتقٌ ما خرَّجه الترمذى وصحَّحه ، عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقتُ الرَّحْمَ وشَقَقْتُ لها اسماً من اسمي ، فمن وَصَلَهَا وَصَلْتَهُ ، ومن قَطَعَهَا قَطَعْتَهُ » . قال : وهذا نصٌّ في الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق . قال : وإنكار العرب لاسم الرحمن ، لجهلهم بالله وبما وجب له . قال القرطبي : ثم قيل : هما بمعنى واحد ، كندمان ونديم ، قاله أبو عبيد . وقيل : ليس بناءُ « فعلان » كـ « فَعِيل » ، فإنَّ « فعلان » لا يقع إلا على مبالغة الفعل ، نحو قولك « رجل غضبان » للرجل الممتلئ غضباً ، و « فَعِيل » قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال أبو على الفارسي : ” الرحمن “ اسم عامٌ في جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله تعالى ، و ” الرحيم “ إنما هو من جهة المؤمنين ، قال الله

(١) « المدَّة » : بضم الميم وتشديد الدال ، من « المدَّة » بفتح الميم وسكون الدال . وهو المدح .

قيل : إن الهاء بدل من الحاء . وقيل : المدَّة في نعت الهيئة والجمال ، والمدح في كل شيء .

تعالى : ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ . وقال ابن عباس : هما اسمان رفيقان ، أحدهما أرق من الآخر ، أى أكثر رحمةً . ثم حكى عن الخطابي وغيره : أنهم استشكلوا هذه الصفة ، وقالوا : لعله أرفق ، كما فى الحديث : «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف»^(١) وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يُسئل يغضب . وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من لم يسأل الله يغضب عليه» .

قالوا : ولهذا قال : ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾ . وقال : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ . فذكر الاستواء باسمه الرحمن ، ليعم جميع خلقه برحمته . وقال : ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ . فخصصهم باسمه «الرحيم» . قالوا : فدل على أن «الرحمن» أشد مبالغة فى الرحمة ، لعمومها فى الدارين لجميع خلقه ، و «الرحيم» خاصة بالمؤمنين . لكن جاء فى الدعاء المأثور : «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» . واسمه تعالى «الرحمن» خاص به ، لم يُسم به غيره ، كما قال تعالى : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ . وقال تعالى : ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ . ولما تجهرم مسيلمة الكذاب^(٢) وتسمى برحمن اليمامة ، كساه الله جلابيب الكذب وشهر به ، فلا يقال إلا : مسيلمة الكذاب . فصار يُضرب به المثل فى الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب . وأما «الرحيم» فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال : ﴿لقد جاءكم رسول

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد فى المسند : ٩٠٢ ، من حديث على ، مرفوعاً . ورواه بنحوه أيضاً الشيخان ، من حديث عائشة . انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٨٥ .

(٢) هذا الحرف «تجهرم» حرف غريب ، لم أجده فى شيء من المعاجم ، ولا فى المصادر الأخرى . وأنا أستسيغه جداً بلون العربى ، لا أجذب نافرأ منه . ويخيل إلى أنه حرف مولد من مجموع مادتين ، كأنه من مادتي «جهر» و «جرم» ، كأنه يراد به : تجاهر بجرمه . كما مزجوا من مادتين أو أكثر «حمدل» ، و «حسبل» ، و «يسمل» ، و «هلل» ، و «حوقل» ، ونحو ذلك .

من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ ﴿١﴾ ، كما وصَفَ غيرَه بغير ذلك من أسمائه ، كما في قوله : ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ .

والحاصل : أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيرُه ، ومنها ما لا يسمى به غيرُه ، كاسم « الله » و « الرحمن » و « الخالق » و « الرزاق » ، ونحو ذلك . فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن ، لأنه أخص وأعرف من الرحيم ، لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشهر الأسماء ، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص .

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف « الرحمن » حتى ردَّ الله عليهم ذلك بقوله : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ . ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل : « اكتب ”بسم الله الرحمن الرحيم“ ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم » . رواه البخارى . وفي بعض الروايات : « لا نعرفُ الرحمنَ إلا رحمةً ياممةً » . وقال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمنُ ، أنسجدُ لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ . والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحودٌ وعنادٌ وتعنُّتٌ في كفرهم ، فإنه وُجِدَ في أشعارهم في الجاهلية تسميةُ الله تعالى بالرحمن ، قال ابن جرير : وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهال :

أَلَا ضَرَبْتَ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِيئَهَا أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنِ رَبِّي يَمِينَهَا

وقال سلامةُ بنُ جندبٍ الطهوى :

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتَيْنَا عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَاءُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطَاقُ ^(١)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)

قال أبو جعفر بن جرير : معنى ”الحمد لله“ الشكرُ لله خالصاً دون

(١) في المطبوعة «إذ عجلنا» - بدل «عجلتنا» . والصواب من الأزهريّة . وهو الموافق لما في الطبرى ١ : ١٣١ من طبعتنا .

سائر ما يُعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصوها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد . في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه . مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه . ومع ما نهبهم عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم . فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً . وقال ابن جرير رحمه الله " الحمد لله " : ثناء " أثني به على نفسه ، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا الحمد لله . قال : وقد قيل : إن قول القائل " الحمد لله " ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنی . وقوله « الشكر لله » ثناء عليه بنعمه وأياديه .

ثم شرع في رد ذلك بما حاصله : أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر .

وهذا الذي ادعاه فيه نظر ، لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالحنان واللسان والأركان ، كما قال الشاعر :

أفادتكُمُ النعماءُ مني ثلاثةٌ
يدى ولسانى والضميرَ المحجَّباً

ولكن اختلفوا : أيهما أعم ، الحمد أو الشكر ؟ على قولين . والتحقيق : أن بينهما عمومًا وخصوصًا . فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه ، لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته ، وحمدته لكرمه . وهو أخص ، لأنه لا يكون إلا بالقول . والشكر أعم من حيث ما يقعان به ، لأنه يكون بالقول والعمل والنية ، كما تقدم . وهو أخص ، لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية ، لا يقال شكرته لفروسيته ، وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إلى . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين . والله أعلم .

وقال الجوهري : " الحمد " نقيض الذم ، تقول : حمدت الرجل أحده حمدًا ومحمدةً ، فهو حميدٌ ومحمود . والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم

من الشكر . وقال في الشكر : هو الثناءُ على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرتُ له ، وباللام أفصح .

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل : عن الأسود بن سريع ، قال : « قلت : يا رسول الله ، ألا أنشدك محمد بن حمدتُ بها ربِّي تبارك وتعالى ؟ فقال : أما إن ربك يحب الحمد » . ورواه النسائي^(١) .

وروى الترمذي ، والنسائي ، وابنُ ماجه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضلُ الذكرُ لا إله إلا الله » ، وأفضلُ الدعاءُ " الحمد لله " . قال الترمذي : حسن غريب .

وفي سنن ابن ماجه ، عن ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يا ربَّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلتُ بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء ، فقالا : يا ربنا ، إن عبدك قد قال مقالةً لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله - وهو أعلمُ بما قال عبدهُ - : ماذا قال عبدي ؟ قالوا : يا رب ، إنه قال : يا ربَّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتبها كما قال عبدي ، حتى يلقياني ، فأجزيت بهما »^(٢) .

والألف واللام في " الحمد " لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى . كما جاء في الحديث : « اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله » - الحديث .

و " الرب " هو المالكُ المتصرف . ويطلق في اللغة على السيد ، وعلى المتصرف للإصلاح . وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى . ولا يُستعمل " الرب " لغير الله ، بل بالإضافة ، تقول : ربَّ الدار ، ربَّ كذا . وأما " الرب " فلا يقال إلا لله عز وجل .

(١) هو في المسند : ١٥٦٥٠ (ج ٣ ص ٤٣٥ حلبى) . ونسبه السيوطى في الدر المنثور

١ : ١٢ ، لأحمد والبخارى في الأدب المفرد والنسائي والحاكم وصححه ، وغيرهم .

(٢) هذا الحديث ليس في الأزهرية ، وقد صحَّاه من سنن ابن ماجه : ٣٨٠١ . وإسناده

جيد ، ليس فيه مجروح .

و "العالمين" جمع "عالم" . وهو كل موجود سوى الله عز وجل . و "العالم" جمع لا واحد له من لفظه . والعوالمُ أصنافُ المخلوقات في السموات وفي البر والبحر . وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً .

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣)

وقوله تعالى " الرحمن الرحيم " تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن إعادته . قال القرطبي : إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم ، بعد قوله " رب العالمين " ليكون من باب قرن الترغيب بعد التهيب ، كما قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِن زَبَكَ لَسْرِيعَ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . قال : فالرب فيه تهيب ، والرحمن الرحيم ترغيب . وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمِعَ في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من رحمته أحد » .

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤)

قرأ بعض القراء " ملك " . وقرأ آخرون "مالك" وكلاهما صحيح متواتر في السبع . ويقال « ملك » بكسر اللام وبإسكانها ، ويقال « ملك » أيضاً . وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ " ملكى يوم الدين " . وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى ، وكلاهما صحيحة حسنة . ورجح الزمخشري " ملك " لأنها قراءة أهل الحرمين ، ولقوله ﴿ لَمَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ﴾ ، ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلِكُ ﴾ . و "مالك" مأخوذ من المِلْك ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ . و " ملك " مأخوذ من المُلْك ، كما قال تعالى : ﴿ لَمَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ، اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ . وقال : ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلِكُ ﴾ . وقال ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ .

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه ، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه « رب العالمين » ، وذلك عام في الدنيا والآخرة . وإنما أضيف إلى

يوم الدين لأنه لا يدعى أحدٌ هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ . وقال تعالى : ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾ . وقال تعالى : ﴿يوم يأت لا تكلم نفسٌ إلاّ بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد﴾ . وعن ابن عباس ، قال : يومُ الدين يومُ الحساب للخلائق ، وهو يومُ القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إلا من عفا عنه . وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف . وهو ظاهر .

والملك في الحقيقة هو الله عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾ . وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً . «أخضع اسم عند الله رجلٌ تسمى بملك الأملاك ، ولا مالك إلا الله» . وفيهما عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : «يقبض الله الأرض ويطوى السماء يمينه ، ثم يقول : أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» . وفي القرآن العظيم : ﴿إن الملك اليوم ، لله الواحد القهار﴾ . فأما تسمية غيره في الدنيا بملك ، فعلى سبيل المجاز . كما قال تعالى : ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ . ﴿وكان وراءهم ملك﴾ . ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾ وفي الصحيحين : «مثل الملوك على الأسرة» .

و "الدين" الجزاء والحساب ، كما قال تعالى : ﴿يومئذ يوفيهُمُ الله دينهم الحق﴾ . وقال : ﴿أئنا لمدينون﴾ ، أى مجزيون مُحاسبون . وفي الحديث : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» ^(١) . أى حاسب نفسه لنفسه ، كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ، ﴿يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ .

(١) من حديث رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم ، من حديث شداد بن أوس ، مرفوعاً .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من "إياك". وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر ، وهي قراءة شاذة مردودة ، لأن «إيا» ضوءُ الشمس . وقرأ بعضهم «أياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء . وقرأ بعضهم «هياك» بالهاء بدل الهمزة . و"نستعين" بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع ، سوى يحيى بن وثّاب والأعمش ، فإنهما كسراها ، وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم . والعبادة في اللغة : من الذلة ، يقال : طريقٌ مُعَبَّدٌ ، وبغير مُعَبَّد ، أى مذلل . وفي الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . وقُدّم المفعول وهو "إياك" وكرّر ، للاهتمام والحرص . أى : لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك . وهذا هو كمال الطاعة .

والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين . وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحةُ سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة "إياك نعبد وإياك نستعين" ، فالأول تبرؤ من الشرّك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عز وجل . وهذا المعنى في غير آية من القرآن ، كما قال تعالى : ﴿فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون﴾ . ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ . ﴿ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً﴾ . وكذلك هذه الآية الكريمة "إياك نعبد وإياك نستعين" .

وتحوّل الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبه ، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى ، فلهذا قال "إياك نعبد وإياك نستعين" . وفي هذا دليل على أن أول السورة خبرٌ من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنی ، وإرشادٌ لعباده بأن يشنوا عليه بذلك . ولهذا لا تصح صلاةٌ من لم يقل ذلك وهو قادر عليه . كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . وفي صحيح مسلم ، عن أبي

هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، إذا قال العبد ” الحمد لله رب العالمين “ ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال ” الرحمن الرحيم “ ، قال الله : أثنى على عبدى ، فإذا قال ” مالك يوم الدين “ ، قال الله : مجّدتنى عبدى ، فإذا قال ” إياك نعبد وإياك نستعين “ ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال ” اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين “ ، قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل . »

وإنما قدّم ” إياك نعبد “ على ” وإياك نستعين “ لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمام والحزم هو أن يُقدّم ما هو الأهمُّ فالأهمُّ ، والله أعلم . فإن قيل : فما معنى النون في قوله تعالى ” إياك نعبد وإياك نستعين “ ؟ فإن كانت للجمع فالداعى واحد ، وإن كانت للتعظيم فلا يمتنع هذا المقام ؟ وقد أجيب : بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد ، والمصلى فردٌ منهم ، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم ، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي ’خلقوا لأجلها‘ ، وتوسط لهم بخير . ومنهم من قال : يجوز أن تكون للتعظيم ، كأن العبد قيل له : إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض ، فقل ” إياك نعبد وإياك نستعين “ ، وإن كنت خارج العبادة فلا تقل ” نحن “ ولا ” فعلنا “ ، ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف ، لاحتياج الجميع إلى الله عز وجل وفقهرهم إليه . ومنهم من قال : ” إياك نعبد “ ألطفُ فى التواضع من إياك عبَدْنَا ، لما فى الثانى من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحدٌ أن يعبدَه حقَّ عبادته ولا يثنى عليه كما يليق به . والعبادةُ مقام عظيم ، يشرف به العبد ، لانتسابه إلى جناب الله تعالى .

وقد سمى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعبده فى أشرف مقاماته ، فقال : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ﴾ ، ﴿ وأنه لما قام عبدٌ الله يدعوه ﴾ ،

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً﴾ . فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه فى الدعوة ، وإسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة فى أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول : ﴿ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ .

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦)

لما تقدّم الثناء على المسئول تبارك وتعالى ، ناسب أن يعقب بالسؤال ، كما قال : « فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل » . وهذا أكمل أحوال السائل ، أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته ، لأنه أنجح للحاجة ، وأنجع للإجابة . ولهذا أرشد الله إليه ، لأنه الأكمل . وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه ، كما قال موسى : ﴿رب إني لما أنزلت إلی من خير فقير﴾ . وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسئول ، كقول ذى النون : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ . وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول ، كقول الشاعر :
أذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا : الإرشاد والتوفيق . وقد تعدى الهداية بنفسها كما ههنا "أهدنا الصراط المستقيم" . فتضمن معنى : ألهمنا ، أو وفقنا ، أو ارزقنا ، أو أعطنا . ﴿وهديناه النجدين﴾ ، أى بينا له الخير والشر . وقد تعدى بلى كقوله تعالى : ﴿اجتبه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ . ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ ، وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة ، وكذلك قوله : ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ . وقد تعدى باللام ، كقول أهل الجنة : ﴿الحمد لله الذى هدانا لهذا﴾ . أى : وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً .

وأما "الصراط المستقيم" ، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن "الصراط المستقيم" هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ، وكذلك فى لغة جميع العرب .

قال : ثم تستعير العرب الصراطَ فتستعمله في كل قول وعمل وُصفَ باستقامة أو اعوجاج ، فتصفُ المستقيمَ باستقامته ، والمعوجَ باعوجاجه .
ثم اختلفت عباراتُ المفسرين من السلف والخلف في تفسير ” الصراط “ .
وإن كان يرجعُ حاصلها إلى شيء واحد ، وهو المتابعة لله وللرسول . فرؤى :
أنه كتاب الله .

وفي هذا الحديثُ الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ، عن النّوّاس بن سَمْعَانَ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جَنْبَيْ الصراطِ سُورَانِ ، فيهما أبوابٌ مفتحة ، وعلى الأبوابِ ستورٌ مرخاةٌ ، وعلى باب الصراطِ داعٍ يقول : يا أيها الناس ، ادخلوا الصراطَ جميعاً ولا تعوجوا ، وداعٍ يدعو من فوق الصراطِ ، فإذا أراد الإنسانُ أن يفتح شيئاً من تلك الأبوابِ ، قال : ويحك لا تفتحه . فإنك إن تفتحه تَلْجِجُهُ ، فالصراطُ الإسلامُ ، والسورَانِ حدودُ الله ، والأبوابُ المفتحة محارمُ الله ، وذلك الداعي على رأس الصراطِ كتابُ الله ، والداعي فوق الصراطِ واعظُ الله في قلب كل مسلم » (١) . ورواه الترمذی ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، والطبري . لإسناده حسن صحيح . والله أعلم .
وقال مجاهد ” الصراط المستقيم “ : الحق . وهذا أشمل . ولا منافاة بينه وبين ما تقدم .

وروى ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن أبي العالية ” الصراط المستقيم “ :
هو النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعده ، قال عاصم : فذكرنا ذلك للحسن ، فقال : صدق أبو العالية ونصح .

وكل هذه الأقوال صحيحة ، وهي متلازمة . فإن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر — فقد اتبع الحق ، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن ، وهو كتابُ الله .

(١) هو في المسند : ١٧٧١١ (ج ٤ ص ١٨٢ - ١٨٣ حاي) . وفي بعض ألفاظه مخالفة لما ثبت هنا . فلعله اختلف في نسخ المسند . ورواية الطبري ، التي أشار إليها ابن كثير - مختصرة ، وهي برقى : ١٨٦ ، ١٨٧ .

وجبله المتين وصراطه المستقيم . فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً والله الحمد .
وروى الطبراني ، عن عبد الله قال ” الصراط المستقيم “ : الذي تركنا
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والذي هو أولى بتأويل هذه
الآية عندي ، أعنى ” اهدنا الصراط المستقيم “ أن يكون معنيّاً به : وَفَقْنَا لِلثَّابِتِ
على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك ، من قول وعمل . وذلك
هو الصراط المستقيم ، لأنّ من وَفَّق لما وَفَّق له مَنْ أنعم الله عليه من النبيين
والصديقين والشهداء ، فقد وَفَّق للإسلام وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ،
والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهاج النبي صلى الله
عليه وسلم ومنهاج الخلفاء الأربعة وكلّ عبد [لله] صالح ، وكلّ ذلك من
الصراط المستقيم .

فإن قيل : فكيف يسأل المؤمنُ الهدايةَ في كل وقت من صلاة وغيرها ،
وهو متصف بذلك ؟ وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟
فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية ، لما أرشده
الله تعالى إلى ذلك ، فإنّ العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى ، في
تثبيته على الهداية ورسوخه فيها ، وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها ، فإنّ
العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في
كل وقت أن يُعِدّه بالمعونة والثبات والتوفيق . فالسعيدُ من وفقه الله تعالى لسؤاله ،
فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ، ولا سيما المضطرّ المحتاج المفتقر
إليه آناء الليل وأطراف النهار . وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ . فقد
أمر الذين آمنوا بالإيمان ، وليس في ذلك تحصيل الحاصل ، لأن المراد
الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك . والله أعلم .
وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ

(١) عبد الله : هو ابن مسعود . وإسناد الطبراني إليه إسناد صحيح .

هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب ﴿٦﴾ . وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرّاً . ففنى قوله تعالى ”اهدنا الصراط المستقيم“ : استمر بنا عليه ، ولا تعدل بنا إلى غيره .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٧)

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد ”اهدنا الصراط المستقيم“ إلى آخرها أن الله يقول : « هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » . وقوله ” صراط الذين أنعمت عليهم “ مفسر للصراط المستقيم . وهو بدل منه عند النحاة ، ويجوز أن يكون عطف بيان . والله أعلم . و « الذين أنعم الله عليهم » هم المذكورون في سورة النساء حيث قال : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله علماً ﴾ .

وقوله تعالى ” غير المغضوب عليهم ولا الضالين “ يعنى : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، ممن تقدّم وصفهم ونعتهم ، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه ، غير صراط المغضوب عليهم ، وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين ، وهم الذين فقدوا العلم ، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بـ ” لا “ ليدل على أن ثمّ مسلكين فاسدين ، وهما طريقة اليهود والنصارى . وقد زعم بعض النحاة أن ” غير “ ههنا استثنائية ، فيكون على هذا منقطعاً ، لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم . وما أوردناه أولى . ومنهم من زعم أن ” لا “ في قوله ” ولا الضالين “ زائدة ، وأن تقدير الكلام عنده : غير المغضوب عليهم والضالين .

والصحيح ما قدمناه . ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ : غير المغضوب عليهم وغير الضالين . وإسناده صحيح . وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير .

فيدل على ما قلناه من أنه : إنما جيء بـ "لا" لتأكيد النفي ، وللفرق بين الطريقتين ، لتجنب كل منهما ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به . واليهودُ فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم . ولهذا كان الغضبُ لليهود ، والضلالُ للنصارى ، لأن من علم وترك استحق الغضب ، بخلاف من لم يعلم . والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه ، وهو اتباعُ الحق - ضلوا . وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه ، لكن أخص أوصاف اليهود الغضبُ ، وأخص أوصاف النصارى الضلال . وهذا جاءت الأحاديث والآثار :

فروى الإمام أحمد عن عدى بن حاتم ، قال : « جاءت خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا عمتي وناساً ، فلما أتوا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صُفِّوا له ، فقالت : يا رسول الله ، نأى الوافد ، وانقطع الولد ، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة ، فمن عليّ ، من الله عليك ، قال : من وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم ، قال : الذى فر من الله ورسوله ؟ قالت : فن عليّ ، فلما رجع ورجلٌ إلى جنبه - ترى أنه عليّ - قال : سليه مُحَلَّناً ، فسألته فأمر لها ، فأتتني فقالت : لقد فعلتَ فعلةً ما كان أبوك يفعلها ، فإنه أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي ، وذكر قريتهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فعرفتُ أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فقال : يا عدى ما أفرّك ؟ أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل من إله إلا الله ؟ ما أفرّك ؟ أن يقال الله أكبر ؟ فهل شيء أكبر من الله عز وجل ؟ قال : فأسلمت فرأيت وجهه استبشر ، وقال : إن المغضوب عليهم اليهود ، وإن الضالين النصارى . وذكر الحديث . ورواه الترمذى وقال : حسن غريب ^(١) . وروى عبد الرزاق عن عبد الله بن شقيق : « أنه أخيره من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بوادى القرى على فرسه . وسأله رجل من بنى القين ، فقال ، يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ قال : المغضوب عليهم ، وأشار

(١) هو بثوله في المسند ٤ : ٣٧٨ - ٣٧٩ (حلبى) . وفي الترمذى ٤ : ٦٧ . ورواه أحمد قبل ذلك ٤ : ٢٥٧ ، من وجه آخر ، مختصراً .

إلى اليهود ، والصابغون : هم النصارى » ^(١) . وقد رُوي مرسلًا ، لم يذكر فيه « من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكذا قال ابن عباس ، والربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد . وقال ابن أبي حاتم : ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافًا .

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة ، من أن اليهود مغضوبٌ عليهم والنصارى صالون - الحديث المتقدم ، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في البقرة : ﴿ بشئ ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ﴾ . وقال في المائدة : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل ﴾ . وقال : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة ، وهي سبع آيات ، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه ، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلى . وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حوهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية ، تبارك وتعالى وتنزه أن يكون له شريك أو نظير أو مائل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم ، وتبشيتهم عليه حتى يُفصى ذلك بهم إلى جواز الصراط الحسى يوم القيامة ، المفصى بهم إلى جنات النعيم ، في جوار النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل ، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم

(١) رواه الطبري : ١٩٨ ، من طريق عبد الرزاق . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ : ٣١٠ - ٣١١ ، بنحوه من روايتين ، وقال : « رواه كله أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . وهو كما قال .

القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون . وما أحسن ما جاء إسنادُ الإنعام إليه في قوله " صراط الذين أنعمت عليهم " وحذف الفاعل في الغضب في قوله " غير المغضوب عليهم " وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة . كما قال : ﴿ ألم تر إلى الذين تَوَلَّوْا قوماً غضب الله عليهم ﴾ . وكذلك إسنادُ الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أضلهم بقدره . كما قال : ﴿ من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ . وقال : ﴿ من يضل الله فلا هادى له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال ، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذاً حذوهم ، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم . وهذا حال أهل الضلال والغنى . وقد ورد في الحديث الصحيح : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى الله ، فاحذروهم »^(١) . يعنى في قوله : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ . فليس — بمحمد الله — لمبتدع في القرآن حجة " صحيحة " ، لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل ، مفرقاً بين الهدى والضلال ، وليس فيه تناقض ولا اختلاف ، لأنه من عند الله ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها « آمين » ويقال « آمين » بالقصر أيضاً . ومعناه : اللهم استجب .

والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حُجْر ، قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، فقال : آمين ، ومدّ بها صوته » . وقال الترمذى : حديث حسن . وروى عن علي وابن مسعود وغيرهم . وعن أبي هريرة ، قال : « كان

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة . وسيأتى في الآية : ٧ من سورة آل عمران ، إن شاء الله . وقد فصلنا القول في تخريجه ، في الطبرى : ٦٦٠٥ - ٦٦١٥ ، وفى صحيح ابن حبان : ٧٢ ، ٧٥ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال : آمين ، حتى يُسمع من يليه من الصف الأول . رواه أبو داود وابن ماجه ، وزاد فيه : « يرتج بها المسجد » . والدارقطني وقال : هذا إسناد حسن .

قال أصحابنا وغيرهم : ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ، ويتأكد في حق المصلي ، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً ، وفي جميع الأحوال . لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أمّن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » . ولسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال أحدكم في الصلاة آمين ، والملائكة في السماء آمين ، فوافقت إحداهما الأخرى - غفر له ما تقدم من ذنبه » . وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً : « إذا قال - يعني الإمام - ولا الضالين ، فقولوا : آمين ، يحبك الله » . وقال أصحاب مالك لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم ، لما رواه مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وإذا قال ولا الضالين ، فقولوا آمين » . الحديث . واستأنسوا أيضاً بحديث أبي موسى وقد قدمنا في المتفق عليه : « إذا أمّن الإمام فأمنوا » . وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ^(١) . وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهر . وحاصل الخلاف : أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً ، وإن أمّن الإمام جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم ، وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك ، لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديم : أنه يجهر به ، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك ، لما تقدم « حتى يرتج المسجد » . ولنا قول آخر ثالث : أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم ، لأنهم يسمعون قراءة الإمام ، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد . والله أعلم .

(١) حديث أبي هريرة في الموطأ ، ص : ٨٧ . وحديث أبي موسى مضى قبل أسطر ، وليس فيها دلالة لما يقول أصحاب مالك ، فإن هذا من الاختصار في الكلام . وقد روى مالك نفسه في الموطأ - قبل هذا الحديث - حديث أبي هريرة الماضي : « إذا أمّن الإمام فأمنوا » . فالحديثان عن أبي هريرة في معنى واحد ، وإن اختلف اللفظان قليلا .

تفسير

سورة البقرة

ذكر ما ورد في فضلها

روى أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذى يُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » . وقال الترمذى : حسن صحيح^(١) . وروى أبو عبيد عن عبد الله - يعنى ابن مسعود - قال : إن الشيطان يفرّ من البيت يسمع فيه سورة البقرة . ورواه النسائى فى اليوم والليلة ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢) . وعن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شىء سناماً ، وإن سنام القرآن البقرة » ، وإن من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ، ومن قرأها فى بيته نهائراً لم يدخله شيطان ثلاثة أيام » . رواه الطبرانى ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن مردويه^(٣) . وقد روى الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً ، وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ

(١) هو فى المسند : ٧٨٠٨ ، ٨٩٠٢ . وصحيح مسلم ١ : ٢١٧ . والترمذى ٤ : ٤٢ ،

بنحوه .

(٢) هو فى المستدرک ٢ : ٢٥٩ - ٢٦٠ ، بنحوه . ووافقه الذهبى على تصحيحه . وهو وإن كان موقوفاً لفظاً ، فإنه مرفوع حكماً ، لأنه مما لا يعلم بالرأى . وقد رواه ابن مردويه ، والنسائى فى اليوم والليلة ، عن ابن مسعود ، مرفوعاً مطولاً ، على ما ذكره الحافظ ابن كثير بعده . وإسناده عندهما صحيح . ثم يؤيده حديث أبى هريرة المرفوع ، الذى قبله .

(٣) ذكره الهيثمى فى الزوائد ٦ : ٣١١ - ٣١٢ ، وقال : « رواه الطبرانى ، وفيه سعيد بن خالد الخزاعى المدنى ، وهو ضعيف » . ولكن الذى فى صحيح ابن حبان (٢ : ١٣٠ - ١٣٢) من مخطوطة الإحسان : « خالد بن سعيد المزنى » . و « المزنى » خطأ ، صوابها « المدنى » . وخالد هذا مترجم فى لسان الميزان ، وأشار إلى هذا الحديث ، وذكر أنه هو « خالد بن سعيد بن أبى مريم التيمى المدنى ، مولى ابن عجلان » ، المترجم فى التهذيب . وهو ثقة ، ذكره ابن حبان فى الثقات . وترجمه البخارى فى الكبير ١/٢ : ١٤٠ . وابن أبى حاتم ٣٣٣/٢/١ - فلم يذكر فيه جرحاً .

كل واحد منهم - يعنى - ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنًا ، فقال : ما معك يا فلان ؟ فقال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأنت أيرهم . فقال رجل من أشرفهم : والله ما منعنى أن أتعلّم البقرة إلا أنى خشيتُ أن لا أقوم بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا القرآن واقرؤه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به ، كمثّل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه فى كل مكان ، ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه ، كمثّل جراب أوكى على مسك . هذا لفظ الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن ^(١) . وعن أسيد بن الحضير ، قال : « بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوطة عنده ، إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ يا بن حضير ، قال : فأشفقت - يا رسول الله - على يحيى ، وكان منها قريباً ، فرفعتُ رأسى وانصرفت إليه ، فرفعتُ رأسى إلى السماء ، فإذا مثل الظلة ، فيها أمثال المصابيح ، فخرجتُ حتى لا أراها ، قال : وتندى ما ذاك ؟ قال : لا ، قال : تلك الملائكة دنتُ لصوتك ، ولو قرأتَ لأصبحتُ ينظر الناسُ إليها لا تتوارى منهم » . رواه البخارى ، ورواه أيضاً أبو عبيد فى كتاب فضائل القرآن . وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن الشماس ، فيما رواه أبو عبيد بإسناد جيد ، إلا أن فيه إبهاماً . ثم هو مرسل . والله أعلم .

ذكر ما ورد فى فضلها مع آل عمران

روى الإمام أحمد عن بُريدة ، قال : « كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمعتَه يقول : تعلموا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة ، قال : ثم سكبت ساعةً ثم قال : تعلموا سورة البقرة وآل عمران ، فإنهما الزّهراوان ، يُظللان صاحبهما يوم القيامة كأنهما

غمامتان أو غيابتان أو فِرْقَان من طير صوافٍ ، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب ، فيقول له : هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك ، القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر ، وأسهرت ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة ، فيعطى المُلْك بيمينه والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاجُ الوقار ، ويكسى والداه حلتان لا يقوم لهما أهل الدنيا ، فيقولان : بيم كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال : اقرأ واصعدْ فى درج الجنة وغرفها ، فهو فى صعود ما دام يقرأ ، هذا كان أو ترتيلاً^(١) . ولبعضه شواهد : فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرؤا القرآن ، فإنه شافع لأهله يوم القيامة ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيابتان ، أو كأنهما فِرْقَان من طير صوافٍ ، يحاجتان عن أهلها يوم القيامة ، ثم قال : اقرؤا البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة » رواه أحمد ، ومسلم^(٢) . الزهراوان : المنيرتان . والغياية : ما أظلك من فوقك . والفِرْق : القطعة من الشيء . والصواف : المصطفة المتضامة . والبطلة : السحرة ، ومعنى « لا تستطيعها » أى : لا يمكنهم حفظها ، وقيل : لا تستطيع النفوذ فى قارئها . والله أعلم . ومن ذلك حديث النوَّاس بن سميان الكلابى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدّمهم سورة البقرة وآل عمران ، وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعدُ ، قال : كأنهما غمامتان ، أو ظلتان سوداوان بينهما شرّق ، أو كأنهما فرقان من طير صوافٍ يحاجتان عن صاحبيهما » . رواه أحمد ، ومسلم ،

(١) هو فى المسند ٥ : ٣٤٨ (حلبى) . وفى إسناده « بشر بن المهاجر الغنوى » ، وثقه ابن معين ، وأخرج له مسلم . وتكلم فيه أحمد وغيره . ولذلك قال الحافظ ابن كثير هنا : « وهذا إسناد حسن على شرط مسلم » .

(٢) المسند ٥ : ٢٤٩ (حلبى) ، وهذا لفظه . ومسلم ١ : ٢٢٢ . ورواه ابن حبان فى صحيحه :

١١٦ بتحقيقنا . والحاكم فى المستدرک ١ : ٥٦٤ .

والترمذى ، وقال : حسن غريب^(١) . وثبت في الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعة واحدة .

ذكر ما ورد في فضل السبع الطُّوَل^(٢)

روى أبو عبيد عن واثلة بن الأسقع ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : « أعطيتُ السبعَ الطُّوَلَ مكانَ التَّوراةِ ، وأعطيتُ المئينَ مكانَ الإنجيلِ ، وأعطيتُ المثاني مكانَ الزَّبُورِ ، وَفُضِّلَتْ بِالْمَفْصَلِ » . هذا حديث غريب . وقد رواه أبو عبيد عن سعيد بن أبي هلال ، قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — فذكره^(٣) . وروى أبو عبيد عن سعيد بن جبير ، في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ ﴾ ، قال : هي السبع الطُّوَلُ : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس . وقال مجاهد : هي السبع الطول . وهكذا قال مكحول وغيره في تفسير الآية بذلك وفي تعدادها ، وأن يونس هي السابعة .

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف .

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود : « أنه رى الجحمةَ من بطن الوادى ، فجعل البيتَ عن يساره ، ومنى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقامُ الذى أنزلت عليه سورةُ البقرة » . وروى ابن مردويه ، عن عتبة بن مرثدٍ ، قال : « رأى

(١) المسند : ١٧٧١٤ (ج ٤ ص ١٨٣ حلبي) . و « الشرق » بفتح الشين مع فتح الراء وإسكانها : الضوء ، أو الشمس .

(٢) « الطول » — بضم الطاء وفتح الواو : جمع « طول » .

(٣) هكذا ذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث من كتاب أبي عبيد بإسنادين فيما مقال فثانيتها منقطع ، لأن سعيد بن أبي هلال من أتباع التابعين . وفي أولها « سعيد بن بشير الأزدي » ، قال ابن كثير هنا : « فيه لين » . والحق أنه ثقة ، كما بينا في تخريج أحاديث الطبري : ٥٤٣٩ . ولكن الحديث ثابت بإسناد آخر ليس فيه مقال . فرواه الطيالسي : ١٠١٢ بإسناد صحيح . ورواه أحمد : ١٧٠٤٩ (٤ : ١٠٧ حلبي) عن الطيالسي . وكذلك رواه الطبري : ١٢٦ من طريق الطيالسي . وفصلنا الكلام فيه هناك . ولكن فيه عندهم : أن المئين مكان الزبور ، وأن المثاني مكان الإنجيل .

النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه تأخراً ، فقال : يا أصحاب سورة البقرة « . وأظنّ هذا كان يوم حنين ، يوم ولوا مدبرين ، أمر العباس فناداهم : « يا أصحاب الشجرة » . يعنى أهل بيعة الرضوان . وفي رواية : « يا أصحاب سورة البقرة » . يُنشطهم بذلك ، فجعلوا يقبلون من كل وجه . وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مُسلمة ، جعل الصحابة يفرّون لكثافة جيش بنى حنيفة ، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون : يا أصحاب سورة البقرة ، حتى فتح الله عليهم . رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور : فمنهم من قال : هي مما استأثر الله بعلمه ، فردّوا علمها إلى الله ولم يفسروها . حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود ، وقاله الشعبي والثوري ، واختاره ابن حبان . ومنهم من فسرّها . واختلف هؤلاء في معناها : فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما هي أسماء السور . قال الزمخشري في تفسيره : وعليه إطباق الأكثر ، ونقل عن سيبويه أنه نص عليه . ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة "الم السجدة" و"هل أتى على الإنسان" » . وقال مجاهد : ألم ، وحم ، والمص ، وص : فواتح افتتح بها القرآن .

وقال بعض أهل العربية : هي حروف من حروف المعجم ، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً ، كما يقول القائل : ابني يكتب في - أ ب ت ث - أى في حروف المعجم الثمانية والعشرين . فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها ، حكاه ابن جرير .

قلت : مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً ، وهي : ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك : « نص » حكيم قاطع له سر » . وهي نصف الحروف عدداً . قال الزمخشري : وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف ، يعنى من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ، ومن المستعيلة والمنخفضة ، ومن حروف القلقة . وقد سردها مفصلة ، ثم قال : فسبحان الذى دقت في كل شئ حكيمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها ، وقد علمت أن معظم الشئ وُجْله ينزل منزلة كله .

ومن ههنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاماً فقال : لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سُدىً ؛ ومن قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية - فقد أخطأ خطأ كبيراً . فتعين أن لها معنى في نفس الأمر ، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شئ قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا ، وقلنا : ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ . ولم يجمع العلماء فيها على شئ معين . وإنما اختلفوا ، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا فالوقوف حتى يتبين . هذا مقام .

المقام الآخر : في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي ؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها . فقال بعضهم : ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماعُ المشركين ، إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن ، حتى إذا استمعوا له تلاعليهم المؤلف منه . حكاه ابن جرير . وهو ضعيف ، لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور ، لا يكون في بعضها ، بل غالبها ليس كذلك . ولو كان كذلك أيضاً لانبغى الابتداءُ بها في أوائل الكلام معهم ، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك . ثم إن هذه السورة والتي تليها - أعنى البقرة وآل عمران - مدينتان ، ليستا خطاباً للمشركين . فانتقض ما ذكره . وقال آخرون : بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه

من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها . وقد حكى هذا المذهب الرازي عن المبرد وجمع من المحققين . وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا . وقرره الزخشرى فى كشافه ونصره أتم نصر . وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية ، وشيخنا الحافظُ المجتهد أبو الحجاج المزي ، وحكاها لى عن ابن تيمية . قال الزخشرى : ولم ترد كلها مجموعةً فى أول القرآن ، وإنما كررت ليكونَ أبلغَ فى التحدى والتبكيث ، كما كررت قصص كثيرة ، وكرر التحدى بالصريح فى أماكن . قال : وجاء منها على حرف واحد ، كقوله « ص . ن . ق » ، وحرفين ، مثل « حم » ، وثلاثة ، مثل « ألم » ، وأربعة ، مثل « المر . والمص » ، وخمسة ، مثل « كهيعص . وحمسق » . لأن أساليب كلامهم على هذا ، من الكلمات ما هو على حرف ، وعلى حرفين ، وعلى ثلاثة ، وعلى أربعة ، وعلى خمسة ، لا أكثرَ من ذلك .

قلت : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته . وهذا معلوم بالاستقراء ، وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة . ولهذا يقول تعالى : ﴿ ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ . ﴿ ألم . الله الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ . ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ﴾ . ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ . ﴿ ألم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ . ﴿ حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ . ﴿ حمسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ . وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر . والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ! فقد ادعى ما ليس له ، وطار فى غير مطاريه .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

قال ابن عباس " ذلك الكتاب " أى : هذا الكتاب . وكذا قال مجاهد

وعكرمة وسعيد بن جبير أن " ذلك " بمعنى : هذا . والعرب تُقارض بين هذين الاسمى الإشارة ، فيستعملون كلاهما مكان الآخر . وهذا معروف في كلامهم . و " الكتاب " : القرآن . ومن قال : إن المراد بـ " ذلك الكتاب " الإشارة إلى التوراة والإنجيل ! كما حكاه ابن جرير وغيره — فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزاع ، وتكلف مالا علم له به . و " الريب " : الشك .

ومعنى الكلام : أن هذا الكتاب ، وهو القرآن — لا شك فيه أنه نزل من عند الله ، كما قال تعالى في السجدة : ﴿ ألم تنزل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ﴾ . وقال بعضهم : هذا خبر ومعناه النهى ، أى : لا ترتابوا فيه . ومن القراء من يقف على قوله " لا ريب " ويتبدى بقوله " فيه هدى للمتقين " . والوقف على قوله تعالى " لا ريب فيه " أولى ، للآية التى ذكرنا ، ولأنه يصير قوله " هدى " صفة للقرآن ، وذلك أبلغ من كون فيه هدى . و " هدى " يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت ، ومنصوباً على الحال . ونخصت الهداية للمتقين ، كما قال : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ . وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن ، لأنه هو فى نفسه هدى ، ولكن لا يناله إلا الأبرار . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ .

وعن ابن عباس " للمتقين " ، أى : الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به . وقال قتادة " للمتقين " هم : الذين نعتهم الله بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ ، الآية التى بعدها . واختار ابن جرير : أن الآية تعم ذلك كله . وهو كما قال . وقد روى الترمذى ، وابن ماجه ، عن عطية السعدى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » . قال الترمذى : حسن غريب .

ويطلق الهدى ويراد به : ما يقرّ في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ . وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ . وقال : ﴿ مَنْ يَضِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ . وقال : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، مَنْ يَضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات . ويطلق ويراد به : بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ . وقال : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ على تفسير من قال : المراد بهما الخير والشر . وهو الأرجح . والله أعلم . وأصل التقوى : التوقى مما يكره ، لأن أصلها « وَقَوَى » من الوقاية .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

عن عبد الله قال " الإيمان " : التصديق . وقال ابن عباس " يؤمنون " : يصدقون . وقال الزهري " الإيمان " : العمل . وقال الربيع بن أنس " يؤمنون " : يخشون .

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً . وقد تدخل الحشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل . و « الإيمان » كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل .

قلت : أما « الإيمان » في اللغة ، فيطلق على التصديق الخفى . وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ . وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال ، كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . فأما إذا استعمل مطلقاً ، فالإيمان الشرعى المطاوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة ، بل قد حكاه الشافعى

وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد : إجماعاً أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص . وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث . ومنهم من فسره بالخشية : كقوله : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ . وقوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ . والخشية : خلاصة الإيمان والعلم ، كما قال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . وقال بعضهم : يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة ، وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ وقال : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ . فعلى هذا يكون قوله ” بالغيب ” حالاً ، أى فى حال كونهم غيباً عن الناس .

وأما ” الغيب ” المراد ههنا ، فقد اختلفت فيه عبارات السلف . وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد . قال أبو العالية ” يؤمنون بالغيب ” : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وكذا قال قتادة . وعن ابن عباس ” بالغيب ” قال : بما جاء منه ، يعنى من الله تعالى . وقال زير : الغيب القرآن . وقال عطاء بن أبي رباح : من آمن بالله فقد آمن بالغيب . وقال زيد بن أسلم ” بالغيب ” قال : بالقدر . فكل هذه متقاربة فى معنى واحد ، لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً ، فذكرنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وما سبقوا به ، فقال عبد الله : إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بيناً لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب . ثم قرأ : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب — إلى قوله — المفلحون ﴾ . رواه سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم . وقال الحاكم : صحيح على ح (٧)

شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١) . وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد ، عن أبي جمعة ، قال : « تغذينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ، فقال : يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك ؟ قال : نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني »^(٢) . [ورواه ابن مردويه بأطول من هذا . وفي آخره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم] قال : « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء ، بل قومٌ بعدكم ، يأتيهم كتابٌ بين لوحين ، يؤمنون به ويعملون بما فيه ، أولئك أعظمُ منكم أجراً ، مرتين »^(٣) . وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوَجَادَة ، التي اختلف فيها أهل الحديث ، كما قررته في أول شرح البخاري ، لأنه مدحهم على ذلك ، وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحثية ، لا مطلقاً .

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٣)

قال ابن عباس : إقامة الصلاة : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع ، والإقبال عليها فيها . وقال قتادة : إقامة الصلاة : المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها .

وقال ابن عباس "ومما رزقناهم ينفقون" : زكاة أموالهم . وقال الضحاك : كانت النفقات قرباناً يتقربون بها إلى الله على قدر ميستهم وجهدهم ، حتى نزلت فرائضُ الصدقات سبع آياتٍ ، في سورة براءة ، مما يذكر فيهنّ الصدقات ، هنّ الناسخات المثبتات . وقال قتادة : فأنفقوا مما أعطاكم الله ، هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم ، يوشك أن تفارقها .

واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات ، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم : أن يكونوا لجميع اللّازم لهم في أموالهم مؤدّين ،

(١) هو في المستدرک ٢ : ٢٦٠ .

(٢) هو في المسند بإسنادين : ١٧٠٤٣ ، ١٧٠٤٤ (٤ : ١٠٦ حلي) .

(٣) هذه الرواية المطولة ، أشار إليها الحافظ ابن حجر في الإصابة ، في ترجمة « أبي جمعة الأنصاري » ٧ : ٣٢ . ثم ذكر أنه « أخرجه أحمد والداري ، وصححه الحاكم » .

زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته من أهل وعيال وغيرهم ، ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والمِلْك وغير ذلك ، لأنّ الله عمّ وصَفهم ، ومَدَحهم بذلك ، وكلّ من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه . قلت : كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، فإن الصلاة حقّ الله وعبادته ، وهي مشتملة على توحيده والثناء عايه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّي إليهم ، وأولى الناس بذلك القرباء والأهلون والمماليك ثم الأجانب ، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى ” وما رزقناهم ينفقون “ . ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحجّ البيت » . والأحاديث في هذا كثيرة .

وأصل ” الصلاة “ في كلام العرب : الدعاء . ثم استعملت ” الصلاة “ في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير : وأرى أن الصلاة سميت « صلاة » لأن المصلّي يتعرض لاستنجاح طلبتّيه من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل ربّه من حاجاته [تعرّض الداعي بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤلّه] . [وقيل في اشتقاقها أقوال أخر] ^(١) . واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر . والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤)

قال ابن عباس ” والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك “ أى : يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم ، ولا يحددون ما جاؤهم به من ربههم ” وبالآخرة هم يوقنون “ أى : بالبعث

(١) الزيادة الأولى ، تنمة كلام الطبري . تركها الحافظ المؤلف ، والمعنى لا يتم بدونها . والزيادة الثانية ، تلخيص لكلام المؤلف ، لم نجد حاجة للإطالة به ، خصوصاً وأنه غير ثابت في المخطوطة الأزهرية .

والقيامة والحنة والنار والحساب والميزان . وإنما سميت "الآخرة" لأنها بعد الدنيا .
وقد اختلفت المفسرون في الموصوفين هنا : هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله
﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ ، ومن هم ؟ على
ثلاثة أقوال ، حكاه ابن جرير : أحدها : أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون
ثانياً ، وهم كل مؤمن ، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم . والثاني : هما
واحد ، وهم مؤمنو أهل الكتاب . وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على
صفات ، كما قال تعالى : ﴿ سبِّح اسم ربك الأعلى ﴾ الذي خلق فسوى *
والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاءً أحوى ﴾ . الثالث : أن
الموصوفين أولاً مؤمنو العرب ، والموصوفون ثانياً بقوله "والذين يؤمنون بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون" لمؤمني أهل الكتاب . واختاره ابن جرير .
ويستشهد لما قال بقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل
إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ ، الآية . وبقوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب
من قبله هم به يؤمنون ﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا
من قبله مسلمين ﴾ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة
وما رزقناهم ينفقون ﴾ . وبما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب
آمن بنبيه وآمن بي ، ورجل مملوك أدّى حقَّ الله وحقَّ ماله . ورجل أدب
جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها » . وأما ابن جرير فما استشهد على
صحته ما قال إلا بمناسبة ، وهي : أن الله وصف في أول هذه السورة المؤمنين
والكافرين . فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين : منافق وكافر ، فكذلك
المؤمنون صنفهم إلى عربي وكتابي . قلت : والظاهر قول مجاهد : أربع آيات
من سورة البقرة في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في
المنافقين . فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها ، من عربي وعجمي
وكتابي ، من إنسي وجني . وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى ،
بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها . فلا يصح الإيمان بالغيب وإقامة

الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة ، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك . وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ ، الآية . وقال : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ﴾ ، الآية . وقال : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم ﴾ . وقال : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ . وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك ، فقال : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ . وقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ — إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه . لكن المؤمنى أهل الكتاب خصوصية ، وذلك : أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلاً ، فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين . وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملًا ، كما جاء فى الصحيح : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » . ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذى بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتمَّ وأكمل ، وأعمَّ وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الإسلام . فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحثيثة فغيرهم قد يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم . والله أعلم .

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

يقول تعالى " أولئك " أى : المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذى رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة . وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات

وترك المحرمات ” على هدى “ أى : على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى
 ” وأولئك هم المفلحون “ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْ تُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦)

يقول تعالى ” إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا “ أى : غَطَّوْا الحق وستره ، وقد كتب
 الله تعالى عليهم ذلك — سواء عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جثتهم
 به . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ
 كُل آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . وقال فى حق المعاندين من أهل الكتاب :
 ﴿ وَلَنْ آتِيَتِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُل آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ ، الآية . أى : إن من
 كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِدَ له ، ومن أضله فلا هادى له ، فلا تذهب
 ففسلك عليهم حسرات ، وبتلغهم الرسالة ، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ،
 ومن تولّى فلا تحزن عليهم ولا يُهمنك ذلك ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾
 و ﴿ إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل ﴾ . وعن ابن عباس فى قوله ” إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْ تُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ “ قال : كان رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره
 الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأوّل ، ولا يضل
 إلا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر الأوّل . وقوله تعالى ” لَا يُؤْمِنُونَ “ محمّله من
 الإعراب أنه جملة مؤكدة لتي قبلها ” سواء عليهم أن تُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ “ أى :
 هم كفار فى كلا الحالين . فلهذا أكّد ذلك بقوله ” لَا يُؤْمِنُونَ “ . ويحتمل أن
 يكون ” لَا يُؤْمِنُونَ “ خبراً لأنّ تقديره : إن الذين كفروا لا يؤمنون ، ويكون قوله
 ” سواء عليهم أن تُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ “ جملةً معترضة . والله أعلم :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴾ (٧)

قال السدى ” ختم الله “ أى : طبع الله . وقال قتادة فى هذه الآية :
 استحوز عليهم الشيطان إذ أطاعوه ، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى

أبصارهم غشاوة"، فهم لا يبصرون هدًى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون .
 وقال ابن جرير : وقال بعضهم : إنما معنى قوله " ختم الله على قلوبهم " إخبارٌ من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق ، كما يقال : إن فلاناً أصم عن هذا الكلام — إذا امتنع من سماعه ورَفَعَ نفسه عن تفهمه تكبراً . قال : وهذا لا يصح ، لأن الله قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم .

قلت : وقد أطنب الزمخشري في تقرير ماردّه ابن جرير ههنا ، وتأول الآية من خمسة أوجه ، وكلها ضعيفة جداً . وما جرّاه على ذلك إلاّ اعتزّاله ، لأنّ الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيحٌ عنده . يتعالى الله عنه في اعتقاده . ولو فهم قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ، وقوله : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ . وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح — فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال . والله أعلم .

قال ابن جرير : والحقّ عندى في ذلك ما صحّ بنظيره الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ثم روى] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستعتب صُقيل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه . فذلك الرّان الذى قال تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ » . ورواه الترمذى والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح^(١) . ثم قال ابن جرير : فأخبر صلى الله عليه وسلم أنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مَخْلَص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره الله في

(١) الحديث في الطبرى ، رقم : ٣٠٤ . بتخريجه . ورواه أيضاً أحمد : ٧٩٣٩ . والحاكم

٢ : ٥١٧ ، وصححه هو والذهبي .

قوله "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم" نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصّف الله أنه ختم على قلوبهم ، إلاّ بعد فضّه خاتمه وحلّه رباطه .

واعلم أنّ الوقف التامّ على قوله "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم" . وقوله "وعلى أبصارهم غشاوة" جملةٌ تامة ، فإنّ الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة - وهى الغطاء - تكون على البصر . قال ابن جريج : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتَمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ . وقال : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ . قال ابن جرير ومن نصب "غشاوة" من قوله "وعلى أبصارهم غشاوة" ، يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره : وجعل على أبصارهم غشاوة ، ويحتمل أن يكون نصبها على الإتيان على محل "وعلى سمعهم" كقوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ^(١) . لما تقدّم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين ، شرع تعالى في بيان حال المنافقين ، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس ، أطنب في ذكرهم بصفات متعدّدة ، كلّ منها نفاق ، كما أنزل سورة براءة فيهم ، وسورة المنافقين فيهم ، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور ، تعريفاً لأحوالهم ، لتُجتنب ويُجتنب من تلبس بها أيضاً . فقال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٨)

يُحٰدِثُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخٰدِعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٩)

النفاق : هو إظهار الخير وإسرار الشر . وهو أنواع : اعتقاديّ ، وهو الذى يخلد صاحبه في النار ، وعمليّ ، وهو من أكبر الذنوب ، كما سيأتى تفصيله في موضعه إن شاء الله . وهذا كما قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله

(١) نصب « غشاوة » قراءة شاذة ، ردها الطبري ولم يجز القراءة بها . وهو كما قال رحمه الله .

فعلته ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهد مغيبه . وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان خلافه : من الناس من كان يظهر الكفر مستكراً وهو في الباطن مؤمن . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ، وكانوا ثلاث قبائل : بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج ، وبنو النَّضِير ، وبنو قُرَيْظَة ، حلفاء الأوس . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقل من أسلم من اليهود ، إلا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، ولم يكن إذ ذاك نفاقاً أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكه تخاف ، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة . فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله — قال عبد الله بن أبي ابن سلول ، وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج ، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقى في نفسه من الإسلام وأهله . فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه ، فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب . فن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب . فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد ، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً ، بل يهاجر ويترك ماله وولده وأرضه ، رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين ، لئلا يغتر بظواهر أمرهم المؤمنون ، فيقع لذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر . وهذا من المخذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خيراً . فقال تعالى : ” ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين “ أى : يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر ، كما قال : ﴿ إذا جاءك المنافقون

قالوا نشهد إنك لرسول الله ﷺ ، أى : إنما يقولون ذلك إذا جاؤك فقط لا فى نفس الأمر ، ولهذا يؤكدون فى الشهادة بإنّ ولام التأكيد فى خبرها ، كما أكدوا قولهم ” آمنا بالله واليوم الآخر “ وليس الأمر كذلك ، كما كذبهم الله فى شهادتهم وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ .
وبقوله ” وما هم بمؤمنين “ .

وقوله تعالى ” يخادعون الله والذين آمنوا “ أى : بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأنّ ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شئء ، ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ . ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله ” وما يُخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون “ يقول : وما يغترون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم . كما قال تعالى : ﴿ إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ . ومن القراء من قرأ ” وما يخدعون إلا أنفسهم “ . وكلا القراءتين يرجع إلى معنى واحد .

قال ابن جرير فإن قال قائل : كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً ، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقيّة ؟ قيل : لا تمتنع العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غر الذى فى ضميره تقيّة لينجو مما هو له خائف — مخادعاً . فكذلك المنافق سمى مخادعاً لله وللمؤمنين بإظهاره ما أظهره بلسانه تقيّة مما تخلّص به من القتل والسبّاء والعذاب العاجل ، وهو لغير ما أظهر مستبطن ، وذلك من فعله — وإن كان خديعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا — فهو لنفسه بذلك من فعله خادع ، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها ، أنه يُعطيها أمنيّتها ، ويسقيها كأس سرورها ، وهو مُوردّها به حياض عطبيّتها ، ومجرّعها به كأس عذابها ، ومُزيرها من غضب الله وأليم عقابه مالا قيسل لها به . فذلك خديعته نفسه ، ظناً منه — مع إساءته إليها فى أمر معادها — أنه إليها محسن ، كما قال تعالى ” وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون “ إعلاماً منه عباده المؤمنين : أن

المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسقاطهم عليها ربّهم بكفرهم وشكّهم وتكذيبهم غيرُ شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١٠)

” في قلوبهم مرض “ شك ” فزادهم الله مرضاً “ شكاً . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ” في قلوبهم مرض “ قال : هذا مرض في الدين ، وليس مرضاً في الأجساد ، وهم المنافقون . والمرض : الشك الذي دخلهم في الإسلام ” فزادهم الله مرضاً “ قال : زادهم رجساً ، وقرأ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض ” فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ . قال : شرّاً إلى شرهم ، وضلالةً إلى ضلالتهم . وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن ، وهو الجزء من جنس العمل . وكذلك قاله الأولون . وهو نظير قوله تعالى أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ . وقوله ” بما كانوا يكذبون “ وقرئ ” يكذبون “ (١) وقد كانوا متصفين بهذا وهذا ، فلهم كانوا كذبةً ويكذبون بالغيب ، يجمعون بين هذا وهذا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۚ (١١)
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢)

الفساد : هو الكفرُ والعمل بالمعصية . قال ابن جرير : فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربّهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه ، وشكّهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته ، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب ، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً . فذلك إفساد المنافقين في الأرض ، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها . وهذا الذي قاله حسن ، فإن من الفساد في الأرض

(١) أى بفتح الياء مع سكن الكاف . وبضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال المكسورة . وكلاهما من القراءات السبعة .

اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفُسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ . فقطع الله المولاة بين المؤمنين والكافرين . كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ . ثم قال : ﴿ إِنْ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ . فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان ، اشتبه أمره على المؤمنين ، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل ، لأنه هو الذى غرّ المؤمنين بقوله الذى لا حقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين . ولو أنه استمر على حالته الأولى لكان شره أخف ، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح . [ولكنهم يقولون] : نريد أن ندارى الفريقتين من المؤمنين والكافرين ، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء ! ويقول الله ” ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون “ يقول : ألا أن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين ” آمنوا كما آمن الناس “ أى : كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار ، وغير ذلك مما أُخْبِرَ المؤمنون به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر — ” قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء “ يعنون — لعنهم الله — أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنهم . و ” السفهاء “ جمع سفيه . كما أن الحكماء جمع حكيم . والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار . ولهذا سَمَّى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله : ﴿ وَلَا تَوَرَّوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ . قال عامة علماء السلف : هم النساء والصبيان . وقد تولى الله سبحانه جوابهم فى هذه المواطن كلها فقال ” ألا إنهم هم السفهاء “ فأكد وحصر السفاهة فيهم ” ولكن لا يعلمون “ يعنى : ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل ، وذلك أرْدَى لهم ، وأبلغ فى العمى والبعد عن الهدى .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۚ﴾ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين ” قالوا : آمنا “ أى : أظهروا لهم الإيمان والموالة والمصافاة ، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعةً وتقيةً ، وليستركوهم فيما أصابوا من خيرٍ ومغرم ” وإذا خلوا إلى شياطينهم “ يعنى : وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم . فضمن ” خلوا “ معنى انصرفوا ، لتعديته بـ ” إلى “ ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به . ومنهم من قال ” إلى “ هنا بمعنى ” مع “ . والأول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير . ” إلى شياطينهم “ من يهود الذين يأمرهم بالكذب وخلاف ما جاء به الرسول . قاله ابن عباس . وقال مجاهد : شياطينهم : أصحابهم من المنافقين والمشركين . قال ابن جرير : وشياطين كل شئ : مردته . ويكون الشياطين من الإنس والجن ، كما قال تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطينَ الإنس والجن يُوحى بعضهم إلى بعض زُخرفَ القول غروراً﴾ . وفى المسند عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعَوَّذْ بِاللّٰهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّٰهِ ، وَلِلْإِنْسِ شَيَاطِينٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ » (١) . وقوله تعالى ” قالوا إنا معكم “ أى : إنا على مثل ما أنتم عليه ” إنا نحن مستهزون “ أى : إنا نحن نستهزى بالقوم ونلعب بهم .

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلةً على صنيعهم ” الله يستهزى بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون “ أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة فى قوله : ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ ، الآية . وقوله : ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير

(١) مضى أيضاً ، ص : ٦٤ . وهو فى المسند ٥ : ١٧٨ (حاجى) ، ضمن حديث مطول .

لأنفسهم ، إنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذاب مهين ﴿ . فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وتخريجه ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به . وقوله تعالى ” وَيَمْدُدْهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ “ يمددهم : يملئ لهم ، يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم . كما قال : ﴿ وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَآءَ ، وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ . والطغيان : هو المجاوزة في الشيء ، كما قال : ﴿ إِنَّا لَطَغِي الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ . والعمة : الضلال ، يقال « عَمِيَ فلان يَعْمَهُ عَمَّهُا وَعَمُّوْهَا ، إذا ضل . وقوله ” فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ “ في ضلالهم وكفرهم الذي قد غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلّالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً . لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٦)

” أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى “ : استحبوا الضلالة على الهدى . وهذا يشبه في المعنى قوله تعالى في ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ . وحاصل قول المفسرين : أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلالة ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة . وهو معنى قوله تعالى ” أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى “ أى : بذلوا الهدى ثمناً للضلالة . وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر ، كما قال فيهم : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ . أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى ، كما يكون حال فريق آخر منهم ، فإنهم أنواع وأقسام . ولهذا قال تعالى ” فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين “ أى : ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ” وما كانوا مهتدين “ أى : راشدين في صنيعهم ذلك . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة : قد والله رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿ (١٨)

وتقرير هذا المثل : أن الله سبحانه شَبَّهَهُمْ في اشتراطهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنَّس بها - فبينما هو كذلك إذْ طَفَّتْ ناره ، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى ، وهو مع ذلك أصمُّ لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك . فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغى على الرشد . وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع . والله أعلم .

وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله " فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون " صم بكم عمى فهم لا يرجعون " . وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام . وقوله " ذهب الله بنورهم " أى : أذهب عنهم ما ينفعهم ، وهو النور ، وأبقى لهم ما يضرهم ، وهو الإحراق والدخان " وتركهم في ظلمات " وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق " لا يبصرون " لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها ، وهم مع ذلك " صم " لا يسمعون خيراً " بكم " لا يتكلمون بما ينفعهم " عمى " في ضلالة وعماية البصيرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة .

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَّجْعَلُونَ أَصْصِمَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (٢٠)

وهذا مثل آخر ضرب به الله تعالى لضرب آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارةً ويشكّون تارةً أخرى ، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وتردّدهم ”كصيب“ – والصيّبُ : المطر – نزل من السماء في حال ظلماتٍ ، وهي الشكوك والكفر والنفاق ، ”ورعد“ وهو ما يزعجُ القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع ، كما قال تعالى : ﴿ يحسبون كلَّ صيحة عليهم ﴾ . وقال : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لم ينكسكم وما هم منهم ﴾ ، ولكنهم قوم يفرّقون . لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مبدّخلًا لو تّوّا إليه وهم يمحّحون ﴾ . و ”البرق“ هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، ولهذا قال ”يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين“ أى : ولا يجدى عنهم حذرهم شيئاً ، لأن الله محيط بهم بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته . كما قال : ﴿ هل أأتاك حديث الجنود ﴾ فرعونَ وثمودَ . بل الذين كفروا في تكذيب . والله من ورائهم محيط ﴾ . ثم قال ”يكاد البرق يخطف أبصارهم“ قال ابن عباس : أى : بشدة ضوء الحق ”كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا“ أى : كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين . وهكذا يكونون يوم القيامة عند ما يعطى الناسُ النور بحسب إيمانهم ، فمنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فراسخ ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نوره تارةً ويضىء له أخرى فيمشى على الصراط تارةً ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية ، وهم الخُلص من المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ . وقال في حق المؤمنين : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ . وقال : ﴿ يوم لا يخزى اللهُ النبيّ والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير ﴾ .

فإذا تقرّر هذا صار الناس أقساماً : مؤمنون خلص ، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة . وكفار خلص ، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها . ومنافقون وهم قسبان : خلص ، وهم المضروب لهم المثل الناري ، ومنافقون مُترّدون ، تارة يظهر لهم لُمع من الإيمان ، وتارة يخبوا . وهم أصحاب المثل المائي ، وهم أخفّ حالاً من الذين قبلهم .

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور ، من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور - بالمصباح في الزجاج التي كأنها كوكب دري ، وهي قلبُ المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدّ ولا تخليط ، كما سيأتي تقريره في موضعه ، إن شاء الله . ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء ، وهم أصحاب الجهل المركّب ، في قوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ . ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط ، وهم الذين قال تعالى فيهم : ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . فقسم الكفار ههنا إلى قسمين : داعية ومقلد ، كما ذكرهما في أول سورة الحج : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . وقال : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ (١) . وقد قسم الله المؤمنين في سورة الواقعة وآخرها ، وفي سورة الإنسان ، إلى قسمين : سابقون وهم المقرّبون ، وأصحاب يمين وهم الأبرار .

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات : أن المؤمنين صنفان :

(١) الآية ٣ من سورة الحج . والتي ذكر المؤلف قلبها هي الآية ٨ . ولم يرد بذلك نسق التلاوة ، وإنما أراد أن الله سبحانه وصف الداعية ووصف المقلد . فذكر الآيتين للاستدلال على وصف كل منهما . وطابعو التفسير لم يلاحظوا مقصد الحافظ المؤلف ، فقدموا وأخروا ، اتباعاً لنسق التلاوة .

مقرَّبون وأبرار. وأن الكافرين صنفان : دعاة ومقلِّدون . وأن المنافقين أيضاً صنفان : منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق . كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاثٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه واحدةٌ منهنَّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَّعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتَّضمن خان » . استدلوا به على أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق ، إمّا على هذا الحديث ، أو اعتقاديّ كما دلت عليه الآية - كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء ، كما تقدم ، وكما سيأتى إن شاء الله . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال سول الله صلى الله عليه وسلم : « القلوب أربعة : قلبٌ أجرد ، فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلفٌ مربوطٌ على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفَّح . فأما القلبُ الأجرد فقلبُ المؤمن ، سراجُه فيه نوره ، وأما القلبُ الأغلفُ فقلبُ الكافر ، وأما القلبُ المنكوس فقلبُ المنافق ، عَرَفَ ثم أنكر ، وأما القلبُ المصفَّح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق . ومثل الإيمان فيه كمثل البَقْلَةِ يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأى المَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ على الأخرى غَلَبَتْ عليه » . وإسناده جيد حسن (١) .

وقوله تعالى " ولو شاء الله لذهَّب بسمعهم وأبصارهم " لما تركوا من الحق بعد معرفته " إن الله على كل شيء قدير " . قال ابن جرير : إنما وصف الله نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير . ومعنى " قدير " قادر ، كما معنى « عليم » عالم .

(١) هو في المسند : ١١١٤٦ (٣ : ١٧ ح) . ومجمع الزوائد ١ : ٦٣ . وقال : « رواه أحمد والطبراني في الصغير . وفي إسناده ليث بن أبي سليم » . وأشرنا إليه في تخريج أحاديث الطبري : ١٤٩٧ ، وبيننا أن إسناده صحيح .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ (٢٢)

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته ، بأنه تعالى هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغِهِ عليهم النعمَ الظاهرةَ والباطنةَ ، بأن جعل لهم الأرض فراشاً ، أى مهداً كالفرش مقررّةً موطّأةً مثبتةً بالرواسي الشاخات ، والسماء بناءً ، وهو السقف . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ . وأنزل لهم من السماء ماءً — والمراد به السحاب ههنا — في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد ، رزقاً لهم ولأنعامهم ، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن . ومن أشبه آية بهذه قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ومضمونه : أنه الخالق الازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقُهم ، فهذا يستحقّ أن يُعبد وحده ، ولا يُشركَ به غيره . ولهذا قال ” فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون “ أى : لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسولُ من توحيده هو الحقّ الذي لا شكّ فيه .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : « قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظمُ ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » — الحديث . وكذلك حديث معاذ : « أتدري ما حقُّ الله على عباده ؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً » — الحديث . وعن الطّفَيْل بن سَخْبَرَةَ — أخى عائشة أم المؤمنين لأُمها — قال : « رأيت فيما يرى النائم كائناً أتيت على نفرٍ من اليهود ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتمُ القومُ لولا أنكم تقولون عُزَيْرُ ابنُ الله ، قالوا :

وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمَ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، قَالَ : ثُمَّ مَرَرْتُ
 بِغُفْرٍ مِنَ النَّصَارَى ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَحْنُ النَّصَارَى ، قُلْتُ : إِنَّكُمْ
 لَأَنْتُمْ الْقَوْمَ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، قَالُوا : وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمَ لَوْلَا أَنْكُمْ
 تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ
 النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا ؟ فَقُلْتُ :
 نَعَمْ ، فَقَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَمَا بَعْدُ ، فَإِنْ طَفِيلًا رَأَى رُؤْيَا
 أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا
 أَنْ أَتَاهَاكُمْ عَنْهَا ، فَلَا تَقُولُوا " مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ " وَلَكِنْ قُولُوا " مَا شَاءَ اللَّهُ
 وَحْدَهُ " . رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ بِنَحْوِهِ ^(١) . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :
 « قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ ، فَقَالَ : أَجْعَلْتَنِي
 لِلَّهِ نِدَاءً ؟ ! قُلْ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ » . رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ ^(٢) .
 وَهَذَا كُلُّهُ صِيَانَةٌ وَحِمَايَةٌ لِحَنَابِ التَّوْحِيدِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ
 ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : الْأَنْدَادُ ، هُوَ الشَّرْكُ ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ الْفُلِّ عَلَى صِفَاةٍ
 سُودَاءٍ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : وَاللَّهِ ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ ، وَحَيَاتِي ،
 وَيَقُولَ : لَوْلَا كَلْبَةٌ هَذَا لَأَتَانَا اللَّصُوصُ الْبَارِحَةَ ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى
 اللَّصُوصُ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِمُصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلَا اللَّهُ

(١) الحديث رواه أيضاً أحمد في المسند ٥ : ٧٢ (حلبى) . وإسناده صحيح . ورواه الدارمى
 في سننه ٢ : ٢٩٥ مختصراً . وأشار إليه البخارى في التاريخ الكبير ٢/٢ : ٣٦٤ - ٣٦٥ في ترجمة
 الطفيل . ورواه الحافظ المزي في ترجمته أيضاً ، في تهذيب الكمال . وروى هذه القصة أيضاً -
 مختصرة - حذيفة بن اليمان : « أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ . . . » .
 رَوَاهَا عَنْهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٥ : ٣٩٣ (حلبى) . وكذلك رواها ابن ماجة : ٢١١٨ ، من حديث
 حذيفة ، ثُمَّ رَوَاهَا مِنْ حَدِيثِ الطُّفَيْلِ بْنِ سُبْحَةَ - فَلَمْ يَذْكُرْ لَفْظَهُ . قَالَ الْبُصَيْرِيُّ فِي زَوَائِدِهِ ، فِي
 حَدِيثِ الطُّفَيْلِ : « رَجُلَانِ الْإِسْنَادُ ثِقَاتٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ » . فَالظَّاهِرُ أَنَّ حَذِيفَةَ شَهِدَ قِصَّةَ الطُّفَيْلِ ،
 أَوْ لَعَلَّهُ سَمِعَهَا مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ شَهِدَاهَا .

(٢) أبعد المؤلف النجعة ، إذ ذكر الحديث من رواية ابن مردويه ، وهو بين يديه في المسند
 بنحوه : ١٨٣٩ ، ١٩٦٤ ، ٢٥٦١ ، ٣٢٤٧ . ومن عادته أن يقدم المسند على غيره . والحديث
 رواه أيضاً البخارى في الأدب المفرد ، ص : ١١٦ . وأشار إليه ابن حجر في الفتح ١١ : ٤٧٠ .
 وهو في الدر المنثور ١ : ٣٥ .

وفلان ، لا تجعل فيها « فلان » . هذا كله به شرك . [ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا حديثاً طويلاً ، عن المسند للإمام أحمد ، من حديث الحرث بن الحرث الأشعري : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بهن ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن . . . » ، وذكر الحديث ، وفيه : « وأوطن : أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله . بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى الذى عليه إلى غير سيده ، فأيكّم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ ! وإن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » - إلى آخر الحديث . ثم قال الحافظ ابن كثير [: هذا حديث حسن . والشاهد منه في هذه الآية قوله : « وإن الله خلقكم ورزقكم . فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » ^(١) .

وهذه الآية دالة على توحيدة تعالى بالعبادة وحده لا شريك له . وقد استدلل بها كثير من المفسرين - كالرازي وغيره - على وجود الصانع تعالى . وهى دالة على ذلك بطريق الأولى ، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية ، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ، ووضعها في مواضع النفع بها محكمة - علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤ ﴾

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة ، بعد أن قرّر أنه لا إله إلا هو ، فقال مخاطباً للكافرين " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا " يعنى محمداً صلى الله

(١) وهذا الحديث بطوله - في المسند : ١٧٢٣٦ : ٤ : ١٣٠ (حلي) . ورواه الطيالسي في ١١٦١ ، ١١٦٢ . ورواه الترمذي ٤ : ٣٧ - ٣٨ ، عن محمد بن إسماعيل ، وهو البخاري ، ثم رواه أيضاً من طريق الطيالسي . وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح غريب » . وقد أشار إليه البخاري في التاريخ الكبير ٢/١ - ٢٥٨ - ٢٥٩ ، في ترجمة الحرث الأشعري ، كما دلت في الإشارة الموجزة .

عليه وسلم "فأتوا بسورة" من مثل ما جاء به ، إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك . وقد تحدّاهم تعالى بهذا في غير موضع من القرآن . فقال في سورة القصص : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ . وقال في سورة سبحان : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ . وقال في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سُورٍ مثله مفتریات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . وقال في سورة يونس : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ . أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . وكل هذه الآيات مكية . ثم تحدّاهم بذلك أيضاً في المدينة ، فقال في هذه الآية "وإن كنتم في ريب" أى : شك "مما نزلنا على عبدنا" يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم "فأتوا بسورة من مثله" يعنى : من مثل القرآن . قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير . بدليل قوله : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ ، وقوله : ﴿ لا تأتون بمثله ﴾ . وقد تحدّاهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة عدواتهم له وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى "فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا" . و"لن" لنفى التأييد ، أى : ولن تفعلوا ذلك أبداً . وهذه أيضاً معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مُقَدِّماً ، غير خائف ولا مشفق — أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً . وكذلك وقع الأمر ، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن . وأنى يتأتى ذلك لأحد ، والقرآن كلام الله خالق كل شيء ؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ؟ !

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى . قال الله تعالى : ﴿ الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه — أو بالعكس على

الخلاف - فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى . فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء^(١) ، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَمَتُ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ . أى : صدقاً فى الإخبار وعدلاً فى الأحكام . فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء . كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها ، كما قيل فى الشعر : إن أعذبه أكذبه . وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الحمر ، أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة ، التى لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفى أو الدقيق ، أو إبرازه إلى الشيء الواضح . ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد . وسائرهما هذر لا طائل تحته . وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة ، عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير . فإنه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكررت حلا وعلا ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء . وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات . وإن وعد أنى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن . كما قال فى الترغيب : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . وقال : ﴿ فيها ما تشبه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ . وقال فى التهيب : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾ . ﴿ أفأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم ﴾

(٩) هكذا ثبت فى المطبوعة . لأن هذه القطعة ، من أول قوله : « ومن تدبر . . . » - إلى أول قوله : « ولذا ثبت فى الصحيحين ، ص ١٢٠ س ١٦ ليست فى الأثرية . وأخشى أن يكون فى الكلام سقط ونقص . وأن يكون مراد الكلام : أنه أخبر عن مغيبات ماضية لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم علم بها قبل هذا الوحي ، وأخبر عن أشياء مستقبلية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء .

الأرضَ فإذا هي تمور . أم أمنتُم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ، فستعلمون كيف نذير ﴿ . وقال في الزجر : ﴿ فكلأ أخذنا بذنبيه ﴾ . وقال في الوعظ : ﴿ أفرأيتَ إن متعنهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ — إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة . وإن جاءت الآياتُ في الأحكام والأوامر والنواهي ، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهي عن كل قبيح رذيل ذئء ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعتَ الله تعالى يقول في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرْعَها سمعك ، فإنها خير يأمر به ، أو شرّ ينهى عنه . ولهذا قال تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلالَ التي كانت عليهم ﴾ . وإن جاءت الآياتُ في وصف المعاد وما فيه من الأحوال ، وفي وصف الجنة والنار ، وما أعدَّ الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم ، والملاذِّ والعذاب الأليم — بشرت به وحذرت وأُنذرت ، ودعتُ إلى فعل الخير واجتناب المنكرات ، وزهدتُ في الدنيا ورغبتُ في الأخرى ، وثَبَّتتُ على الطريقة المثلى ، وهدتُ إلى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم .

ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعطيَ من الآيات ما مثله آمنَ عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . لفظ مسلم ^(١) . وقوله « وإنما كان الذي أوتيتُ » أي : الذي اختصتُ به من بينهم هذا القرآنُ المعجز للبشر أن يعارضوه ، بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست بمعجزة . والله أعلم . وله صلى الله عليه وسلم من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء — ما لا يدخل تحت حصر . والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى "فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين" أما

(١) صحيح مسلم ١ : ٥٣ (بولاق) .

”الوقود“ بفتح الواو فهو : ما يلقى في النار لإضرارها كالخشب ونحوه . كما قال : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ .

وقوله تعالى ” أعدت للكافرين “ الأظهر أن الضمير في ” أعدت “ عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده على الحجارة . ولا منافاة بين القولين في المعنى ، لأنهما متلازمان . و ” أعدت “ أى : أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله . وقد استدلل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن ، لقوله تعالى ” أعدت “ أى : أرصدت وهيئت . وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها : « تحاجت الجنة والنار » . ومنها : « استأذنت النار ربها فقالت : رب أكل بعضى بعضاً ، فأذن لها بنفسين ، نفس في الشتاء ونفس في الصيف » . وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى . وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ، ووافقهم القاضي مُنذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس .

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا هَذَا الَّذِي رُزِقُوا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهَا مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٥)

لما ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صدّقوا إيمانهم الصادق بأعمالهم الصالحة . وهذا معنى تسمية القرآن ” مثاني “ على أصح أقوال العلماء ، كما سنبيطه في موضعه . وهو : أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر ، أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء ، أو عكسه . وحاصله : ذكر الشيء ومقابله . وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه ، كما سنوضحه إن شاء الله . فلهذا قال تعالى ” وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار “ . فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار [كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة . ومعنى ” تجري من تحتها

«أنهار» [(١) أى : من تحت أشجارها وغرفها . وقد جاء في الحديث : أن أنهارها تجري من غير أ حدود . وجاء في الكوثر : أن حافتيه قباب اللؤلؤ المحجوف . ولا منافاة بينهما ، وطینها المسك الأذفر ، وحصاؤها اللؤلؤ والجوهر . نسأل الله من فضله ، إنه هو البرّ الرحيم . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » . رواه ابن أبي حاتم (٢) .

وقوله تعالى "كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل" معناه : مثل الذى كان بالأمس . "وأثوا به متشابهاً" يعنى : فى اللون والمرأى ، وليس يشبهه فى الطعم .

وقوله تعالى "ولهم فيها أزواج مطهرة" قال ابن عباس : مطهرة من القذر والأذى . وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمأثم .

وقوله تعالى "وهم فيها خالدون" هذا هو تمام السعادة ، فلهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل فى نعيم سرمدي أبدي على الدوام . والله المستول أن يحشرنا فى زمريهم ، إنه جواد كريم ، برّ رحيم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ (٢٧)

قال السدى فى تفسيره — عن ابن مسعود وغيره — : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعنى قوله ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ﴾ ، وقوله ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ ، الآيات الثلاث — قال المناقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب

(١) هذه الزيادة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية . وقد سقطت خطأ فى المطبوعة .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٣٧ ، وأنه رواه أيضاً : ابن حبان ، والمالك ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث .

هذه الأمثال . فأنزل الله هذه الآية إلى قوله ” هم الخاسرون “ .
ومعنى الآية : أنه تعالى أخبر أنه ” لا يستحي “ أى : لا يستنكف ، وقيل :
لا يخشى ” أن يضرب مثلاً ما “ [أى] : أى مثل كان ، بأى شيء كان ،
صغيراً أو كبيراً و ” ما “ ههنا للتقليل . وتكون ” بعوضه “ منصوبةً على البدل ،
كما تقول : لأضربن ضرباً ما ، فيصدق بأذى شيء . واختار ابن جرير
أن ” ما “ موصولة و ” بعوضه “ معربة بإعرابها . قال : وذلك سائغ فى كلام
العرب ، أنهم يعربون صلة ” ما ومن “ بإعرابها ، لأنهما يكونان معرفة تارة
ونكرةً أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :

يَكْفِي بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِبْنَانَا

قال : ويجوز أن تكون ” بعوضه “ منصوبةً بحذف الجار ، وتقدير الكلام :
إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها . وقوله ” فما فوقها “
فيه قولان : أحدهما : فما دونها فى الصغر والحقارة . كما إذا وُصف رجل بالثوم
والشح ، فيقول السامع : نعم وهو فوق ذلك ، يعنى فيما وَصَفْتَ . والثانى
” فما فوقها “ : فما هو أكبر منها ، لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة .
وهذا اختيار ابن جرير . فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان
فى الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مِثْلِ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا
ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفُ
الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ . وقال : ﴿ مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ
العنكبوت اتخذت بيتاً ، وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتُ أَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا
ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت
من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة
الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . وقال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ ، الآية . ثم قال : ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ﴾ ، الآية . كما قال : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ الآية . وقال : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ ، الآية . وقد قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ . وفي القرآن أمثال كثيرة . قال بعض السلف : إذا سمعتُ المثل في القرآن فلم أفهمه بكيتُ على نفسي ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ﴾ . ” فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم “ : قال قتادة : أى : يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله . ” وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً “ — كما قال في سورة المدثر : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنةً للذين كفروا ، ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً * ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقولَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً * كذلك يضل الله من يشاء ويهdy من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ . وكذلك قال ههنا ” يضل به كثيراً ويهdy به كثيراً “ قال ابن مسعود وغيره : يضل به كثيراً : يعنى به المنافقين ، ويهdy به كثيراً : يعنى به المؤمنين ، فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم ، لتكذيبهم بما علموه حقاً يقيناً من المثل الذى ضربه الله لما ضربه له ، وأنه لما ضربه له موافق ، فذلك إضلال الله إياهم به . ” ويهdy به “ يعنى المثل ، كثيراً من أهل الإيمان والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هداهم ، وإيماناً إلى إيمانهم ، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً ، وإقرارهم به ، وذلك هداية من الله لهم به ^(١) . ” وما يضل به إلا الفاسقين “ قال قتادة : هم المنافقون ، فسقوا فأضلهم الله على فسقهم .

(١) هذا النص عن ابن مسعود وغيره ، ثبت محرفاً كثيراً في المطبوعة ، وقليلًا في الأثرية .

و "الفاسق" في اللغة : هو الخارج عن الطاعة . وتقول العرب . فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة فُوسِقه ، لخروجها عن جحرها للفساد . وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خمس فواسق ، يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ؛ والفأرة ، والكلب العقور » . فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ، ولكن فسق الكافر أشدّ وأفحش . والمراد من الآية الفاسق : الكافر - والله أعلم - بدليل أنه وصفهم بقوله "الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون" . وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين . كما قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كهن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ ، الآيات ، إلى أن قال : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصّف هؤلاء الفاسقين بنقضه : فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته - في كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك وتركهم العمل به . وقال آخرون : بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم . وعهدُ الله الذي نقضوه : هو ما أخذهم عليه في التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم إذا بُعث ، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم . ونقضهم ذلك : هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك وكتائبهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه . فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً . وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله . وهو قول مقاتل بن حيان . وقال آخرون : بل غنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق . وعهده إلى

جميعهم في توحيده بما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته ، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم . قالوا : ونقضهم ذلك : تركهم الإقرار بما ثبت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوا به حق . وهو حسن . وقال آخرون : العهد الذي ذكره تعالى : هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم ، الذي وصّف في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، قالوا بلى شهدنا ﴿ ، الآيتين . ونقضهم ذلك : تركهم الوفاء به . حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره .

وقوله ” ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل “ قيل : المراد به صلة الأرحام والقربات ، كما فسر قتادة . كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ ﴾ . ورجحه ابن جرير . وقيل : المراد أعم من ذلك ، فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعه وتركوه . وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى ” أولئك هم الخاسرون “ قال : في الآخرة . وهذا كما قال تعالى : ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ وقال ابن جرير ” الخاسرون “ : جمع خاسر ، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم - بمعصيتهم الله - من رحمته ، كما يخسر الرجل المال في تجارته بأن يوضع من رأس المال في بيعه ، وكذلك المنافق والكافر ، خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة ، أحوج ما كانوا إلى رحمته . يقال منه : خسر الرجل يخسر - خسرأً وخسرأناً وخساراً .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَئًا فَأَخْيَيْكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتْكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨)

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده ” كيف تكفرون بالله “ أى : كيف تعبدون وجوده أو تعبدون معه غيره ؟ ” وكنتم أمواتاً فأحياكم “ أى : قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ

لا يوقنون ﴿٢٨﴾ . وقال : ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ . والآيات في هذا كثيرة . وقال ابن عباس " كنتم أمواتاً فأحياكم " : أمواتاً في أصلاب آبائكم ، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ، ثم يميتكم موته الحق ، ثم يحييكم حين يبعثكم . قال : وهى مثل قوله : ﴿أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ . وهذا هو الصحيح . وهو كقوله تعالى : ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩)

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه في أنفسهم ، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض ، فقال " هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء " أى : قصد إلى السماء . والاستواء ههنا مضمن معنى القصد أو الإقبال ، لأنه عدى بـ "إلى" "فسوآهن" أى : فخلق السماء سبعا . والسماء ههنا : اسم جنس ، فلهذا قال "فسوآهن" . "وهو بكل شيء عليم" أى : وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال : ﴿ألا يعلم من خلق﴾ . وتفصيل هذه الآية فى سورة آسم السجدة ، وهو قوله : ﴿قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دُخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمراً ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم﴾ . فى هذا دلالة على أنه تعالى ابتداءً بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعا ، وهذا شأن البناء ، أن يُبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك . فأما قوله تعالى : ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء ، بناها * رفع سمكها فسوآها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ - فقد قيل : إن "ثم" ههنا إنما هى لعطف الخبر على

الخبر ، لا لعطف الفعل على الفعل . وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيره هذه الآية - الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير أيضاً ، من رواية ابن جريج قال أخبرني إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، من آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » . وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم . وقد تكلم عليه على بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ ، وجعلوه من كلام كعب ، وأنّ أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأخبار ، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً ، وقد حرّر ذلك البيهقي ^(١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)

يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم في الملا الأعلى قبل إيجادهم ،

(١) الحديث في صحيح مسلم ٢ : ٣٤٠ ، من طريق ابن جريج . وكذلك رواه البيهقي في الأسماء والصفات ، ص : ٢٧٥ . وتعليق البخاري إياه ثابت في التاريخ الكبير ١٣/١ - ١٤ : ١٤٠ ، في ترجمة أيوب بن خالد ، حيث أشار إلى الحديث ، ثم قال : « وقال بعضهم : عن أبي هريرة عن كعب . وهو أصح » . وأعله البيهقي بعد روايته ، فقال : « وزعم بعض أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ ، لخالفته ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ . وزعم بعضهم إن إسماعيل بن أمية إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أيوب بن خالد ، وإبراهيم غير محتج به » . ثم روى بإسناده : أن محمد بن يحيى سأل علي بن المديني عن هذا الحديث ؟ فقال : « ما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى » . ثم قال البيهقي : « وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذي ، عن أيوب بن خالد ، إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف . وروى عن بكر بن الشroud ، عن إبراهيم بن أبي يحيى ، عن صفوان بن سليم ، عن أيوب بن خالد . وإسناده ضعيف » . أقول : و « بكر بن الشroud » : قال فيه ابن معين : « ليس بثقة » - كما في الكبير للبخاري ١/٢ - ٩٠ . والحديث سيذكره المؤلف الحافظ مرة أخرى ، مع تعليقه ، في تفسير الآيات : ٩ - ١٢ من سورة فصلت ، وسنشير إليه هناك ، إن شاء الله .

فقال تعالى ” وإذ قال ربك للملائكة “ أى : واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك . حكى ابن جرير عن بعض أهل العربية — وهو أبو عبيدة — أنه زعم أن ” إذ “ ههنا زائدة ، وأنّ تقدير الكلام : وقال ربك . وردّه ابن جرير . قال القرطبي : وكذا ردّه جميع المفسرين ، حتى قال الزجاج : هذا اجترأ من أبي عبيدة . ” إني جاعل في الأرض خليفة “ أى : قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل . كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ . وقال : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ . وقال : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ . ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ . وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط ، إذ لو كان كذلك لما أحسن قول الملائكة ” أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء “ . فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك . وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية . فإن الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون . أو أنهم قاسوه على من سبق ، كما سندكر أقوال المفسرين فى ذلك . وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، كما قد يتوهمه بعض المفسرين ! وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون : يا ربنا ، ما الحكمة فى خلق هؤلاء ، مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن ” نسيح بحمدك ونقدس لك “ أى : نصلى لك ، كما سيأتى . أى : ولا يصدّر منا شيء من ذلك ، وهلاً وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال : ” إني أعلم ما لا تعلمون “ أى : إني أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف — على المفاسد التى ذكرتموها — ما لا تعلمون أنتم ، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون ، والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون ، والعلماء العاملون والخاشعون ، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم . قال ابن جرير : وإنما معنى ” الخلافة “ التى ذكرها الله — إنما

ج (٩)

هي خلا

فلان^١ فلا

خلائف

الأعظم »

» و

والتطهير

وبقولهم »

بذلك الم

ونبرئت مما

من صفاتا

إني أعلم م

أنبياء ورس

﴿ وَعَا

بِأَسْمَاءِ هُوَ

إِنَّكَ أَنْتَ

بِأَسْمَائِهِمْ

مَا تُبَدُّونَ

هذا ما

أسماء كل ش

ذاك لمناسبة

ذلك ، فأخبر

هذا ، ليبين ،

(١) آيا

على أن الله خلق

الأسماء كلها“ قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وقال مجاهد نحو ذلك ، وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف : أنه علمه أسماء كل شيء . واختار ابن جرير : أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية ، لأنه قال ” ثم عرضهم “ وهذا عبارة عما يعقل . وهذا الذي رجح به ليس بلازم ، فإنه لا يبنى أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب . كما قال : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير ﴾ . والصحيح : أنه علمه أسماء الأشياء كلها ، ذواتها وصفاتها وأفعالها . ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم ، فيقولون : أنت أبو الناس ، خلقتك الله بيده ، وأجهدك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، فاشفع لنا عند ربك حتى يرزقنا من مكاننا هذا » . [وساق المؤلف الحديث بطوله . وذكر أنه رواه أيضاً مسلم والنسائي وابن ماجه . ثم قال] : . ووجه إيراد ههنا والمقصود منه قوله عليه السلام : « فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده وأجهدك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء » . فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات . ولهذا قال ” ثم عرضهم على الملائكة “ يعني المسميات ” فقال

نسله إلى قيام الساعة . أدلة صحيحة صريحة ، لا تحتمل تأويلاً ، ولا تقبل جدلاً في دلالتها ، بما تدل به الألفاظ على المعاني . فمن عجب أن يأتي بعد ذلك من ينتسبون إلى الإسلام ، ويتسمون بأسماء المسلمين ، فيقبلوا نظرية التطور الإفرنجية ، التي يقول دروين وأتباعه وأشباهه ، يقبلونها ويسلمون بها ويؤمنون ، إيمانهم بالقطعي من الدين ، بل أشد وأوثق . ثم يتأولون الدلائل القطعية الثبوت والدلالة ، من الكتاب والسنة ، فيحرفونها عن مواضعها ، كما فعل اليهود في دينهم من قبل . ثم لا يستحون أن ينكروا الأحاديث المتواترة المعنى في ذلك . ثم يدور كلامهم وأدبهم وعلومهم على حساب هذه النظرية التي لم تثبت قط ، والتي لا تقوم أمام النقد ، والتي تهافتت تهافتاً شديداً . ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون ، ويسمون أنفسهم علماء وهم مقلدون !! تعالى الله عما يفترون .

أُنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " أَنَّى لَمْ أَخْلُقْ خَلْقًا إِلَّا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْهُ ، فَأَخْبِرُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وقال ابن جرير : ومعنى ذلك : فقال أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم - أيها الملائكة - القائلون أنجعل في الأرض من يفسد في الأرض ويسفك الدماء من غيرنا أم منا ؟ فنحن نسيح بحمدك ونقدس لك = إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في قيلكم أَنَّى إِنْ جَعَلْتُ خَلِيفَتِي فِي الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِكُمْ عَصَانِي ذَرِيتَهُ وَأَفْسَدُوا وَسَفَكُوا الدَّمَاءَ ، وَإِنْ جَعَلْتُكُمْ فِيهَا أَطْعَمُونِي وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرِي بِالْعَظِيمِ لِي وَالتَّقْدِيسِ ، فَإِذَا إِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تَشَاهِدُونَهُمْ ، فَأَنْتُمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مُوجُودٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ الَّتِي لَمْ تَوْجَدْ أَحَرَى أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عَالِمِينَ .

" قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " هذا تقدیس و تنزیه من الملائكة لله تعالى ، أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى . ولهذا قالوا " سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " أى العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك ، وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة في ذلك والعدل التام . روى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس : « سبحانه الله » قال : تنزيه الله نفسه عن السوء ، ثم قال : قال عمر لعلى وأصحابه عنده : « لا إله إلا الله » قد عرفناه ، فما « سبحانه الله » ؟ فقال له على : كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها ، وأحب أن تُقال .

وقوله تعالى " قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم " قال مجاهد : اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء . وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك . فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء " قال " الله تعالى للملائكة " ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " أى : ألم أتقدم إليكم أنى أعلم الغيب الظاهر والخبى . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ . وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ . وقال ابن جرير معنى قوله ” وأعلم ما تبدون “ : وأعلم - مع علمي غيب السموات والأرض - ما تظهرون بألسنتكم ” وما كنتم تكتمون “ : ما كنتم تخفونه في أنفسكم ، فلا يخفى على شيء ، سواءً عندي سرائركم وعلايتكم . والذي أظهره بألسنتهم : قولهم ” أتجعل فيها من يفسد فيها “ . والذي كانوا يكتمونه : ما كان منظوياً عليه إبليس من الخلاف على الله في أمره والتكبر عن طاعته . قال : وصح ذلك كما تقول العرب : قُتِلَ الْجَيْشُ وَهَزُمُوا ، وَإِنَّمَا قُتِلَ الْوَاحِدُ أَوِ الْبَعْضُ وَهُزِمَ الْوَاحِدُ أَوِ الْبَعْضُ ، فَيُخْرِجُ الْخَبَرَ عَنِ الْمَهْزُومِ مِنْهُ أَوِ الْمَقْتُولِ مَخْرَجَ الْخَبَرِ عَنْ جَمِيعِهِمْ . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يِنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ ، ذُكِرَ أَنَّ الَّذِي نَادَى إِنَّمَا كَانَ وَاحِداً مِنْ بَنِي تَمِيمٍ . قال : وكذلك قوله : ” وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون “ .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ

وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم ، امتن بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم . وقد دل على ذلك أيضاً أحاديث كثيرة . منها حديث الشفاعة المتقدم ، وحديث موسى عليه السلام : « رب أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة ، فلما اجتمع به قال : أنت آدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته » ؟ وذكر الحديث ؛ كما سيأتي إن شاء الله .

والغرض : أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم ، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وترسم بأفعالهم ، فلهذا دخل في الخطاب لهم ، وذُكِرَ في مخالفة الأمر . وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ^(١) . وقال قتادة في قوله تعالى ” وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم “ : فكانت الطاعة لله

والسجدة لآدم ، أكرم الله آدمَ أنْ أسجدَ له ملائكته . وقال بعض الناس : كان هذا سجودَ تحية وسلام وإكرام ، كما قال تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ . وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ، ولكنه نسخ في ملتنا . وقال قتادة في قوله تعالى ” فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين “ — : حسد عدو الله إبليس آدمَ عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال : أنا نارى وهذا طينى . وكان بدءُ الذنوب الكبر ، استكبرَ عدو الله أن يسجدَ لآدمَ عليه السلام .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٥) فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿ (٣٦)

يقول الله تعالى — إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس — أنه أباحه الجنة ، يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء ” رَغَدًا “ أى : هنيئاً واسعاً طيباً . وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي ذر ، قال : « قلت يا رسول الله ، أرايتَ آدمَ ، أنبيأَ كان ؟ قال : نعم نبيأَ رسولاً كلمه الله قبلاً ، فقال : ” اسكنْ أنتَ وزوجك الجنة “ » (١) .

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٥١ ، ونسبه للطبرانى وأبى الشيخ فى العظمة وابن مردويه . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨ : ١٩٨ ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وأحمد بنحنوه فى حديث طويل ، وفيه المسموعى ، وقد اختلط . » والظاهر أن لفظ الطبرانى مثل لفظ ابن مردويه الذى هنا . ولم يكشف لنا الهيثمى عن إسناده . أما رواية أحمد ، فذلك حديث آخر طويل ، فى المسند ٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ (حلى) ، عن أبى ذر . وفيه « قلت : يا رسول الله ، أى الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم ، قلت : ونبى كان ؟ قال : نعم ، نبى مكلم . . . » . وهذا المطول ذكره الهيثمى فى الزوائد ١ : ١٥٩ - ١٦٠ ، و ٨ : ٢١٠ ، ونسبه لأحمد ، وأعله باختلاط المسموعى . وهذا تحليل غير جيد ، فإن أحمد رواه أولاً عن وكيع عن المسموعى ، ثم رواه ثانياً عن يزيد بن هرون عن المسموعى . والمسموعى : ثقة ، ولكنه تغير قبل موته بسنة أو سنتين . وقد صرح أحمد — كما فى التهذيب — بأن سماع وكيع منه قديم ، يعنى قبل تغيره .

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم : أهي في السماء أو في الأرض ؟ فالأكثر على الأول . وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف ، إن شاء الله تعالى . وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة . ويقال إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة .

وأما قوله ” ولا تقربا هذه الشجرة “ فهو اختبار ” من الله تعالى وامتحان “ لآدم . وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ [وذكر المؤلف الحافظ هنا الأقوال في ذلك . ثم قال] :

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والصواب في ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهي آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، فأكلا منها . ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة . وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين . وجائز أن تكون واحدة منها . وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به . والله أعلم .

وقوله تعالى ” فأزلهما الشيطان عنها “ يصح أن يكون الضمير في قوله ” عنها “ عائداً إلى الجنة . فيكون معنى الكلام كما قال عاصم بن بهدلة ، وهو ابن أبي النجود ” فأزلهما “ أى : فنحاهما . ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة ، فيكون معنى الكلام — : فأزلهما ، أى : من قبيل الزلل . فعلى

وهذا المعنى — سؤال أبي ذر عن آدم — رواه أيضاً أحمد في المسند ٥ : ٢٦٥ - ٢٦٦ (حلب) من حديث أبي أمامة الباهلي ، مطولا . وفي إسناده على بن يزيد الألهاني ، وهو ضعيف . ولكن رواه الحاكم ٢ : ٢٦٢ ، مختصراً ، عن أبي أمامة : « أن رجلا قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟ قال : نعم ، معلم مكلم . . . » . وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وهو كما قال .
وقوله في الحديث — هنا — « قبل » : هو بكسر القاف وفتح الباء ، ويجوز فتحهما وضمهما ، أى : « عياناً ومقابلة » ، لا من وراء حجاب ، ومن غير أن يول أمره أو كلامه أحداً من ملائكته ، كما قال ابن الأثير .

وسيدكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الروايات وغيرها ، فيما سيأتي في تفسير الآية : ١٦٣ من سورة النساء . ولعلنا نشير لذلك هناك ، إن شاء الله .

هذا يكون تقدير الكلام "فأزلهما الشيطان عنها" أى : بسببها . كما قال : ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنْ أَفْكَ﴾ ، أى : يُصرف بسببه من هو مأفوك . ولهذا قال تعالى : "فأخرجهما مما كانا فيه" أى : من اللباس والمنزل والرحب والرزق الهنيء والراحة . "وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين" أى : قرار وأرزاق وآجال "إلى حين" أى : إلى وقت مُؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة . وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه نُخلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » . رواه مسلم والنسائى (١) .

﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧)
 قيل : إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . وعن ابن عباس : « "فتلقى آدم من ربه كلمات" قال : أى رب ، ألم تخلقنى بيدك ؟ قال : بلى ، قال : أى رب ، ألم تنفخ فى من روحك ؟ قال : بلى ، قال : أرايت إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : بلى » . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه (٢) . وقوله تعالى "إنه هو التواب الرحيم" أى : أنه يتوب على من تاب إليه وأناب . كقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ . وقوله : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ . وقوله : ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ . وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب . وهذا من لطفه بخلقه ، ورحمته بعبيده ، لا إله إلا هو التواب الرحيم .

(١) وقد دأب الكتاب والأدباء فى عصرنا هذا على فرية أن آدم عليه السلام خدعته حواء حتى أكل من الشجرة !! يصطنعون قول الكاذبين المفتريين من أهل الكتاب ، بما حرفوا وكذبوا . ثم اجترأوا واجترأت الصحف الماجنة والمجلات الداعرة ، على السخرية بآدم وحواء ، وتصويرها فى صور قبيحة منكرة ، جرأة منهم على الدين ، واستهزاء بأول النبيين . وما كان لمسلم أن يفعل هذا أو يقوله . أعاذنا الله مما يقولون ويصنعون .

(٢) هذا الحديث ذكره ابن كثير من رواية ضعيفة من روايات السدى ، بنحو هذا ، ثم نسب للحاكم . فحررت لفظه من رواية الحاكم فى المستدرک ٢ : ٥٤٥ ، بشئ من الاختصار . وقد وافقه الذهبى على تصحيحه .

﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَا
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٣٩) ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس ، حين أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية : أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل . ”فمن تبع هداى“ أى : من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ”فلا خوف عليهم“ أى : فيما يستقبلون من أمر الآخرة ”ولا هم يحزنون“ على ما فاتهم من أمور الدنيا . كما قال فى سورة طه : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإذا يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ . قال ابن عباس : فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ . كما قال ههنا ”والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون“ أى : مخلدون فيها ، لا تحيد لهم عنها ولا تحيص . وقد روى ابن جرير عن أبى سعيد - واسمه سعد بن مالك بن سنان - الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتهم إمامة حتى إذا صاروا فحمًا أذن فى الشفاعة » . ورواه مسلم ^(١) .

﴿ يَبْدِئُ إِسْرَءِيلَ أَذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝ (٤٠) وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا
وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ۝ (٤١) ﴾

يقول تعالى آمراً بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل ، وهو نبي الله (١) هذا لفظ الطبرى : ٧٩٧ . وهو فى صحيح مسلم ١ : ٦٧ - ٦٨ ، بأطول من هذا .
وفصلنا تخريجه فى الطبرى .

يعقوب عليه السلام . وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق . كما تقول : يا ابن الكريم افعل كذا ، يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم ، ونحو ذلك . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ ذريةً من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ . فلاسرائيل : هو يعقوب ، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عباس ، قال : « حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ؟ قالوا : اللهم نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد » . وقوله تعالى « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » قال مجاهد : نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سئى وفيما سوى ذلك : فجبر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون . وقال أبو العالية : نعمته : أن جعل منهم الأنبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب . قلت : وهذا كقول موسى عليه السلام لهم : ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ . يعنى فى زمانهم . « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » قال ابن عباس : بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ جاءكم - أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أخطائكم . وقال أبو العالية : عهدُهُ إلى عباده دينهُ الإسلام وأن يتبعوه . وقوله تعالى « وإياى فارهبون » أى : فاخشون . وقال ابن عباس : أى : أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات التى قد عرقم ، من المسخ وغيره . وهذا انتقال من الترغيب إلى التهيب ، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ، والاعتاظ بالقرآن وزواجه ، وامتنال أوامره وتصديق أخباره ، والله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم . ولهذا قال « وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم » يعنى به القرآن الذى أنزله على محمد النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً ، مشتملاً على الحق من الله تعالى ، مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل . وقوله « ولا تكونوا أول كافر به » .

قال ابن عباس : ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . وقال أبو العالية : يقول : ولا تكونوا أول من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وكذا قال الحسن والسدي والربيع بن أنس . واختار ابن جرير أن الضمير في قوله "به" عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله "بما أنزلت" . وكلا القولين صحيح ، لأنهما متلازمان ، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ، ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفر بالقرآن . وأما قوله "أول كافر به" فيعني به : أول من كفر به من بني إسرائيل ، لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير . وإنما المراد : أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة ، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خطبوا بالقرآن ، فكفروهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم . وقوله "ولا تشتروا آياتي ثمناً قليلاً" يقول : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية . وقوله "وإياي فاتقون" روى ابن أبي حاتم ، عن طلق بن حبيب ، قال : التقوى : أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، والتقوى : أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله ^(١) . ومعنى قوله "وإياي فاتقون" : أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤٢ ﴾
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٣

يقول تعالى - ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيسهم الحق بالباطل وتمويهه به ، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل - : "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتُموا الحق وأنتم تعلمون" فنهاهم عن الشئين معاً ، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به . ولهذا قال ابن عباس "تلبسوا" : تخلطوا ، وقال : "وتكتُموا الحق وأنتم تعلمون" أى : لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به ،

(١) طلق بن حبيب العنزي : تابعي ثقة . كان من أعيان أهل زمانه . مترجم في التهذيب . وترجمه أبو نعيم في الحلية ٣ : ٦٣ - ٦٦ . وروى معنى قوله هذا ، نحوه .

وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم . قلت :
 ”وتكتموا“ يحتمل أن يكون مجزوماً ، ويحتمل أن يكون منصوباً ، أى :
 لا تجمعوا بين هذا وهذا ، كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن .
 ”وأقيموا الصلاة“ قال مقاتل : أمرهم أن يصلوا مع النبي صلى الله عليه
 وسلم ”وآتوا الزكاة“ أمرهم أن يؤتوا الزكاة ، أى : يدفعوها إلى النبي صلى الله
 عليه وسلم ”واركعوا مع الراكعين“ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد
 صلى الله عليه وسلم ، يقول : كونوا منهم ومعهم . وقوله تعالى ”واركعوا مع
 الراكعين“ أى : وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ، ومن أخص ذلك وأكمله
 الصلاة . وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة . وأبسط
 ذلك في كتاب « الأحكام الكبير » ، إن شاء الله تعالى .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس
 بالبرّ - وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به ،
 وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ؟ ! أفلا
 تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتنبّهوا من رقبتكم ، وتبصّروا من عمايتكم ؟ !
 وعن قتادة في قوله ”أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم“ قال : كان بنو
 إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبرّ ، ويخالفون ، فعيرهم الله عز وجل
 بذلك . فمن أمر بخير فليكن أشدّ الناس فيه مسارعة . وقال ابن عباس ”وتنسون
 أنفسكم“ أى : تتركون أنفسكم ”وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون“ أى : تهون
 الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة ، وتركون أنفسكم ،
 أى : وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم في تصديق رسولى وتنفضون ميثاقى
 وتجحدون ما تعلمون من كتابى . وروى الطبرى عن أبى الدرداء قال : لا يفقه

الرجلُ كلَّ الفقه حتى يَمُتَّ الناس في ذات الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشدَّ مقتاً^(١).

والغرض : أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه . وليس المرادُ ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلف عنهم . كما قال شعيب عليه السلام : ﴿ وما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أنيب ﴾ . فكلُّ من الأمر بالمعروف وفعله واجبٌ ، ولا يسقط أحدهما بترك الآخر ، على أصح قول العلماء من السلف والخلف . وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها . وهذا ضعيف . وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية ، فإنه لا حجة لهم فيها . والصحيح : أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه . ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية ، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة . فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم . ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك . فروى الطبراني في الكبير عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلُ العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به ، كمثل السراج ، يُضيء للناس ويُحرق نفسه » . هذا حديث غريب من هذا الوجه^(٢) . وروى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررتُ ليلةَ أُسرى بي على قوم تُقرض شفاهم بمقاريض من نار ، قال : قلت : مَنْ هؤلاء ؟ قالوا : خطباءُ أمتك من أهل الدنيا ،

(١) الطبري رقم : ٨٤٦ . ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ، ص : ٢١٠ . وتخريجه فصلناه في الطبري .

(٢) هو جزء من حديث ذكره الهيثمي في الزوائد ١ : ١٨٤ - ١٨٥ . وقال : « رواه الطبراني في الكبير . ورجاله موثقون » . ثم ذكر نحوه ٦ : ٢٣١ - ٢٣٢ ، من رواية الطبراني ، من وجهين آخرين فيما مقال .

من كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون .
ورواه عبد بن حميد في مسنده وتفسيره ، وابن مردويه ^(١) . وروى الإمام
أحمد عن أبي وائل ، قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألا تكلم عثمان ؟ فقال :
إنكم تُرون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم ! إني لا أكلمه فيما بيني وبينه ما دون
أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك
خير الناس وإن كان على أميراً - بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ، قالوا : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة
فيلقى في النار فتندلقُ به أقتابه ، فيدورُ بها في النار كما يدورُ الحمار برحاه ،
فيطيف به أهلُ النار ، فيقولون : يا فلان ، ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف
وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنتُ آمرُكم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر
وآتية » . ورواه البخاري ومسلم ^(٢) .

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ^(٣)
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُدْكَفُوا رَّبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ^(٤) ﴾

يقول تعالى أمراً عبادة - فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة - بالاستعانة
بالصبر والصلاة . كما قال مقاتل في تفسير هذه الآية : استعينوا على طلب الآخرة
بالصبر على الفرائض والصلاة . فأما "الصبر" فقيل : إنه الصيام ، نص عليه
مجاهد . وعن جرّ بن كليب ، عن رجل من بني سليم ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : « الصومُ نصفُ الصبر » ^(٣) . وقيل : المراد بالصبر الكف عن
المعاصي ، ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة . وروى ابن أبي حاتم

(١) مسند أحمد : ١٢٢٣٧ (٣ : ١٢٠ حلي) . وبنحوه رواه ابن حبان في صحيحه ، رقم : ٥٢ بتحقيقنا . وفصلنا تخريجه هناك .

(٢) هو في المسند ٥ : ٢٠٥ (حلي) .

(٣) لم يخرجها المؤلف الحافظ . وقد رواه أحمد في المسند ، في حديث ٤ : ١٦٠ ، و ٥ : ٢٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ (حلي) . ورواه الدارمي ١ : ١٦٧ . والترمذي ٤ : ٢٦٥ ،

وقال : « حديث حسن » .

و « جرى - بضم الجيم وفتح الراء وتشديد الياء - بن كليب السدوسي البصري » : تابعي ثقة .
مترجم في التهذيب . والكبير للبخاري ١ / ٢ / ٢٤٢ - ٢٤٣ .

عن عمر بن الخطاب قال : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله ^(١) . وأما قوله ”والصلاة“ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكرُ الله أكبر ﴾ الآية . وروى أحمد عن حذيفة بن اليمان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلتى » . ورواه أبو داود . وقد رواه ابن جرير بلفظ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ فرغ إلى الصلاة » ^(٢) . وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن حذيفة قال : « رجعتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلةَ الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلى ، وكان إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلى » . وعن علي قال : « لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم ، غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويدعو حتى أصبح » ^(٣) . وروى ابن جرير : أن ابن عباس نُعِيَ إليه أخوه قُثم وهو في سفر ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته ، وهو يقول : ”واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين“ ^(٤) .

والضمير في قوله ”وإنها“ عائدٌ إلى الصلاة . نصَّ عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما دل عليه الكلام ، وهو الوصية بذلك ، كقوله تعالى في قصة قارون : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا ، وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍ عظيم ﴾ . أى : وما يلتقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ، وما يُلَقَّاها — أى : يُؤْتَاها ويُلْهِمها —

(١) رجاله ثقات . ولكن فيه انقطاع بين إسحق بن سليمان وأبي سنان ، وهو يزيد بن أمية الدؤل ، أحد كبار التابعين .

(٢) الحديث باللفظين رواه الطبري : ٨٤٩ ، ٨٥٠ . وفصلنا تخريجه هناك . ورواية أحمد في المسند ٥ : ٣٨٨ (حلى) . ورواية أبي داود هي في السنن : ١٣١٩ .

(٣) هذا الحديث والذي قبله ليسا في مخطوطة الأزهر . وإسنادهما صحيحان .

(٤) هو في الطبري : ٨٥٢ . وإسناده صحيح .

إلا ذو حظ عظيم . وعلى كل تقدير فقوله تعالى ” وإنها لكبيرة “ أى : مشقة ثقيلة ” إلا على الخاشعين “ أى الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطوته ، المصدقين بوعده ووعيده . وهذا يشبه ما جاء فى الحديث : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه » .

وقال ابن جرير : معنى الآية : واستعينوا — أيها الأحرار من أهل الكتاب — بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر ، المقربة من مراضى الله ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته ، المتذللين من مخافته . هكذا قال . والظاهر : أن الآية — وإن كانت خطاباً فى سياق إنذار بنى إسرائيل — فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هى عامة لهم ولغيرهم . والله أعلم .

وقوله تعالى ” الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون “ — هذا من تمام الكلام الذى قبله ، أى : وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، أى : محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه ، وأنهم إليه راجعون ، أى : أمورهم راجعة إلى مشيئته ، يحكم فيها ما يشاء بعدله . فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات . فأما قوله ” يظنون أنهم ملاقوا ربهم “ — فقال ابن جرير : العرب قد تسمى اليقين ظناً ، والشك ظناً ، نظير تسميتهم الظلمة سُدفةً والضياء سُدفةً ، والمغيث صارخاً والمستغيث صارخاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده .

قال : والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين — أكثر من أن تُحصَر . ومنه قول الله تعالى : ﴿ ورأى المحرمون النارَ فظنوا أنهم مُواقعوها ﴾ . وروى ابن جرير عن مجاهد : كل ظن فى القرآن يقين ، أى « ظننت » و « ظنوا » . وروى عنه أيضاً قال : كل ظن فى القرآن فهو علم . وسنده صحيح . وفى الصحيح : « أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم

أزواجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرَكَ تَرَاسَ وترْبَع ؟
 فيقول : بلى ، فيقول الله تعالى : أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا ، فيقول الله :
 اليوم أنساك كما نسيتني . وسيأتى مبسوطاً عند قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ .
 إن شاء الله تعالى (١) .

﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
 عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٧)

يُذَكِّرُهُمْ تَعَالَى بِسَالِفِ نِعْمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ ، وَمَا كَانَ فَضْلُهُمْ بِهِ
 — مِنْ إِسْرَافِ الرِّسَالِ مِنْهُمْ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ — عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ
 زَمَانِهِمْ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى :
 ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ
 وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ
 تَعَالَى ” وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ “ قَالَ : بِمَا أَعْطَوْا مِنَ الْمُلْكِ وَالرِّسَالِ وَالْكِتَابِ عَلَى
 عَالَمٍ مِمَّنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالَمًا . وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ
 نَحْوُ ذَلِكَ . وَيَجِبُ الْحَمْلُ عَلَى هَذَا ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ، لِقَوْلِهِ
 تَعَالَى خُطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ . وَفِي
 الْمُسَانِدِ وَالسَّنَنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَبِيدَةَ الْقَشِيرِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَتَمُّ تَوْفُونٍ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَتَمُّ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ » (٢) .
 وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ تَذَكَّرُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٣) .

(١) لم يذكر المؤلف الحافظ شيئاً من ذلك عند تلك الآية ، وهي الآية ٦٧ من سورة التوبة .
 والحديث جزء من حديث طويل ، في صحيح مسلم ٢ : ٣٨٦ ، عن أبي هريرة . ورواه أحمد
 مختصراً : ١٠٣٨٣ (٢ : ٤٩٢ حلي) .

(٢) رواه بنحوه الترمذی : ٨٢ - ٨٣ . والحاكم ٤ : ٨٤ . والطبري - وخرجناه مفصلاً
 هناك : ٨٧٣ ، ٧٦٢١ ، ٧٦٢٢ .

(٣) سورة آل عمران : ١١٠ .

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨)

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً ، عطفَ على ذلك التحذيرَ من حلولِ نقمه بهم يومَ القيامة ، فقال ”واتقوا يوماً“ يعنى يوم القيامة ” لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً“ أى : لا يغنى أحد عن أحد . كما قال : ﴿ولا تزرر وازرةً وزرّاً أخرى﴾ . وقال : ﴿لكل امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه﴾ . وقال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئاً﴾ . فهذه أبلغُ المقامات : أن كلاً من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئاً . وقوله ”ولا يقبل منها شفاعة“ يعنى عن الكافرين . كما قال : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ . وكما قال عن أهل النار : ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ . وقوله ”ولا يؤخذ منها عدل“ أى : لا يقبل منها فداء . كما قال : ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتردى به﴾ . وقال : ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ . وقال تعالى : ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ . وقال : ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير﴾ . فأخبر تعالى : أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابةٌ قريب ولا شفاعةٌ ذى جاه ، ولا يقبل منهم فداءٌ ولو بملء الأرض ذهباً . كما قال تعالى : ﴿من قبل أن يأتى يومٌ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ . وقال : ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ . وقوله تعالى ”ولا هم ينصرون“ أى : ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله ، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ، ولا يقبل منهم فداء ، هذا كله من جانب التلطف ، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم . كما قال : ﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾ . أى : أنه تعالى لا يقبل فيمن

كفر به فدية ولا شفاعه" ، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذٌ ، ولا يجيره منه أحدٌ .
 كما قال : ﴿ وهو يجبر ولا يُجَارُ عليه ﴾ . وقال : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحدٌ ،
 ولا يُوثق وثاقه أحدٌ ﴾ . وقال : ﴿ مالكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .
 وقال : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهةً ، بل ضلوا عنهم ،
 وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ . قال ابن جرير : وتأويل قوله " ولا هم
 ينصرون " يعنى : أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ،
 ولا يُقبل منهم عدل ولا فدية . بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرشى
 والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر . وصار الحكم إلى عدل الجبار
 الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزى بالسيئة مثلها ، وبالחסنة أضعافها .
 وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لا تناصرون * بل هم
 اليوم مستسلمون ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ
 يُدَبِّجُونَ أَبْنَاءَ كُفْرٍ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُفْرٍ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩
 وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
 تَنْظُرُونَ ٥٠ ﴾

يقول تعالى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم " إذ نجيناكم من
 آل فرعون يسومونكم سوء العذاب " أى : خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم
 صعبة موسى عليه السلام ، وقد كانوا يسومونكم ، أى : يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم
 سوء العذاب . وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ، رأى ناراً
 خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بنى إسرائيل ،
 مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل . ويقال : بل
 تحدث سُماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به
 دولة ورفعة . وهكذا جاء فى حديث الفتون ، كما سيأتى فى موضعه فى سورة
 طه إن شاء الله (١) . فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك

(١) حديث الفتون : قصة طويلة فى شأن موسى وفرعون وبنى إسرائيل . رواه النسائى فى السنن
 الكبرى ، والطبرى ، وابن أبى حاتم . وساقه المؤلف الحافظ بطوله ، عند تفسير قوله تعالى (وفتنناك

من بنى إسرائيل ، وأن تترك البنات ، وأمر باستعمال بنى إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها . وههنا فُسر العذاب بذبح الأبناء ، وفي سورة إبراهيم عطف عليه ، كما قال : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ . وسيأتى تفصيل ذلك في أول سورة القصص ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة والمعونة والتأييد .

و " فرعون " : علم على كل من مَلِك مصرَ كافراً من العمالق وغيرهم . كما أن " قيصر " علم على كل من مَلِك الروم مع الشام كافراً . و « كسرى » لكل مَلِك الفرس . و « تبع » لمن مَلِك اليمين كافراً .

وقوله تعالى " وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم " قال ابن جرير : وفي الذى فعلنا بكم - من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون - بلاءٌ لكم من ربكم عظيم ، أى : نعمة عظيمة عليكم فى ذلك . وأصل " البلاء " الاختبار ، وقد يكون بالخير والشر . كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ . وقال : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . قال ابن جرير : وأكثر ما يقال فى الشر " بلوته أبلوه بلاءً " وفى الخير [أبليته] أبليه إبلاء وبلاءً ^(١) . قال زهير بن أبى سلمى :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم
وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يبلى
قال : فجمع بين اللغتين ، لأنه أراد : فأنعم الله عليهما خيرَ النعم التى يختبر بها عباده .

وقوله تعالى " وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأتم تنظرون " معناه : وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام ،

فتروا - فى الآية ٤٠ من سورة طه - ثم قال هناك : « وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه . وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات ، عن كعب الأحبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزرى يقول ذلك أيضاً » . وقد أعرضت عن هذه القصة - فيما أعرضت عنه من الإسرائيليات - فلا أثبتها هناك إن شاء الله ، لتحقق أنها من الإسرائيليات . على ما رسمت فى هذا الكتاب . والحافظ المؤلف رحمه الله أشار إليها فى مواضع من تفسيره . فلن أذكر شيئاً من إشاراته ، إن شاء الله ، إلا ما اضطرت إليه . وبالله التوفيق . (١) الزيادة من الطبرى ، تماماً للنص ، وليصح بها المعنى .

خرج فرعونُ في طلبكم ، ففرقنا بكم البحر . كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً ، كما سيأتى في موضعه ، ومن أبسطها في سورة الشعراء . ” فأنجيناكم “ أى : خلصناكم منهم ، وحجزنا بينكم وبينهم ، وأغرقناهم وأنتم تنظرون ، ليكون ذلك أشنى لصدوركم ، وأبلغ في إهانة عدوكم . وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء ، كما روى أحمد عن ابن عباس ، قال : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فرأى اليهود يصومون يومَ عاشوراء ، فقال : ما هذا اليومُ الذى تصومون ؟ قالوا : هذا يومٌ صالح ، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بموسى منكم ، فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصومه » . ورواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه (١) .

﴿ وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥١ ﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوماً ، وهى المذكورة فى الأعراف فى قوله تعالى : ﴿ وَاَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ . قيل : لأنها ذو القعدة بكامله وعشر من ذى الحجة . وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر .

وقوله ” وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ “ يعنى التوراة ” وَالْفُرْقَانَ “ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ” لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ “ . وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر ، كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف . ولقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتَّخَذِكُمْ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٤)

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل . قال الحسن البصرى : ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع ، حين قال الله : ﴿وَلَا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ . قال : فذلك حين يقول موسى "يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم" أى : إلى خالقكم . وفى قوله ههنا "بارئكم" تنبيه على عظم جرمهم ، أى : فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره . ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق ، إذ سألتهم رؤيتى جهرة عياناً ، مما لا يُستطاع لكم ولا لأمثالكم "فأخذتكم الصاعقة" نار ، "وأتم تنظرون" . فذلك قوله "ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون" . وقال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبة لهم ، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وكذا قال قتادة .

﴿وَوَهَبْنَا لِمَن يَشَاءُ مِنْهُمْ آلَافًا مِّن دُونِهَا وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَمَنْ جَاءَهُمْ مِّن فَضْلِنَا يَقُولْنَ لَا يُدْرِكُهُمْ جَبَلٌ مِّن سَمَاءٍ نَّهَارًا وَلَا لَيْلًا ذَٰلِكَ يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم ، فقال "ووهبنا عليكم الغمام" وهو : جمع « غمامة » ، سمي بذلك لأنه يغيم السماء ، أى يوارىها ويسترها . وهو السحاب الأبيض ، ظللوا به فى التيه ليقيم حرّ الشمس . كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس قال : ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام .

وقوله " وأُنزلنا عليكم المن " اختلفت عبارات المفسرين في " المن " ما هو؟ فقال ابن عباس : كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدُون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا . وقال مجاهد " المن " صمغة . وقال عكرمة " المن " شيء أنزله الله عليهم مثل الطل يشبه الرُّبَّ الغليظ . وقال الربيع بن أنس " المن " شراب كان ينزل عليهم مثل العسل ، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه .

والغرض : أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح " المن " ، فمنهم من فسره بالطعام ، ومنهم من فسره بالشراب . والظاهر - والله أعلم - أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك ، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد . فالمن المشهور إن أكلَ وحده كان طعاماً وحلاوةً ، وإن مُزج مع الماء صار شرباً طيباً ، وإن رُكب مع غيره صار نوعاً آخر . ولكن ليس هو المراد من الآية وحده . والدليل على ذلك ما رواه البخاري عن سعيد بن زيد ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الكمأة من المن » ، وماؤها شفاء للعين . ورواه الإمام أحمد والجماعة إلا أبا داود . وقال الترمذي : حسن صحيح (١) . وروى الترمذي عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العجوة من الجنة ، وفيها شفاء من السم ، والكمأة من المن » ، وماؤها شفاء للعين . تفرد بإخراجه الترمذي ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه من حديث محمد بن عمرو إلا من حديث سعيد بن عامر (٢) . ثم خرجه المؤلف الحافظ ، من روايات الترمذي والنسائي وابن ماجة ، من طريق شهر بن حوشب عن أبي هريرة . وهو في المسند من رواية شهر مراراً ، منها : ٧٩٨٩ ، ٨٠٣٨ . ثم قال الحافظ ابن كثير [: وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة ، فإنه لم يسمعه منه (٣) . بدليل ما رواه النسائي

(١) رواه أحمد في المسند مراراً ، منها : ١٦٢٥ ، ١٦٢٦ .

(٢) هو في الترمذي ٣ : ١٦٩ - ١٧٠ . وإسناده صحيح . و « سعيد بن عامر » : ثقة مأمون ، كما قال ابن معين .

(٣) في المطبوعة « لم يسمع منه » ! وهو خطأ صححناه من المخطوطة الأزهرية . وأيضاً فإن شهر بن حوشب سمع من أبي هريرة كثيراً . وإنما يريد الحافظ ابن كثير : أنه لم يسمع منه هذا الحديث بعينه ، كما هو ظاهر .

عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن أبي هريرة ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يذكرون الكمأة ، وبعضهم يقول : جدرى الأرض ، فقال : الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين » ^(١) . ورؤى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر ، كما روى أحمد عن شهر بن حوشب ، عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري ، قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة ، وهي شفاء من السم » ^(٢) . [ثم ذكر المؤلف الحافظ — هنا — روايات كثيرة لهذا الحديث ، مطولة ومختصرة ، عند النسائي وابن ماجة وابن مردويه . من رواية شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر . ومن روايته عن ابن عباس . ومن روايات أخر . ثم قال] : فقد اختلف — كما ترى — فيه على شهر بن حوشب . ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها ، وقد سمعه من بعض الصحابة ، وبلغه عن بعضهم . فإن الأسانيد إليه جيدة ، وهو لا يتعمد الكذب . وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد .

وأما " السلوى " فقال ابن عباس : طائر شبيه بالسمانى كانوا يأكلون منه . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما .

وقوله تعالى " كلوا من طيبات ما رزقناكم " أمرٌ بإباحة وإرشاد وأمتنان . وقوله " وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " أى : أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا ، كما قال : ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ . فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات . ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ورضى عنهم — على سائر أصحاب الأنبياء ، فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم ، كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته ، منها عام تبوك ، فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد ، لم يسألوا خرق عادة ، ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً

(١) وهذه الرواية ثابتة أيضاً فى المسند : ٨٢٩٠ .

(٢) وهو فى المسند أيضاً : ١١٤٧٣ .

على الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم ، فجمعوا ما معهم ، فجاء قدر مبرك الشاة ، فدعا فيه ، وأمرهم فلقوا كل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء ، سأل الله تعالى ، فجاءت سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا ، الإبل وملؤا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هي لم تتجاوز العسكر . فهذا هو الأكل في الاتباع : المشي مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَكُمْ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾
قَبْدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٥٩﴾

يقول تعالى ، لاثماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة - التي هي ميراث لهم عن أبيهم لإسرائيل - وقاتل من فيها من العمالق الكفرة ، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا ، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم ، كما ذكره تعالى في سورة المائدة . ولهذا كان أصح القولين : أن هذه البلدة هي بيت المقدس ، كما نص على ذلك السدي والربيع بن أنس وقاتدة ، وغيرهم . وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى : ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا﴾ ، الآيات . وقال آخرون : هي أريحا ، وهذا بعيد ، لأنها ليست على طريقهم ، وهم قاصدون بيت المقدس لأريحا . والصحيح الأول : أنها بيت المقدس . ولهذا لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح . وأما أريحا فقريه ليست مقصودة لبنى إسرائيل . ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد "سجداً" أى : شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال . وروى ابن جرير عن ابن عباس في قوله "سجداً" قال : ركعاً من باب صغير . ورواه الحاكم وابن أبي حاتم . وعن عبد الله بن مسعود : قيل لهم "ادخلوا الباب سجداً" فدخلوا مقتنعين رؤسهم .

أى : رافعى رؤسهم خلاف ما أمروا . وقوله ”وقولوا حطة“ قال ابن عباس : مغفرة ، استغفروا . وقال الحسن وقتادة ، أى : احطط عنا خطايانا . ”نغفر لكم خطاياكم وستزيد المحسنين“ هذا جوابُ الأمر ، أى : إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات ، وضاعفنا لكم الحسنات .

وحاصل الأمر : أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها . والشكرُ على النعمة عندها ، والمبادرةُ إلى ذلك — من المحبوب لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ﴾ .

فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر . وفسره ابن عباس بأنه نُعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها ، وأقره على ذلك عمر . ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك ونُعى إليه روحه الكريمة أيضاً . ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوعُ جداً عند النصر ، كما روى : أنه كان يوم الفتح — فتح مكة — داخلاً إليها من الثنية العليا وإنه لخاضعٌ لربه حتى إن عُثونته ليمسّ مورك رحله ، شكراً لله على ذلك .

وقوله تعالى ”فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم“ — عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله لبنى إسرائيل ”ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم“ فبدّلوا ، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم ، فقالوا : حبة فى شعرة » . وهذا حديث صحيح ، رواه البخارى والترمذى ، وقال : حسن صحيح^(١) . وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق [من الحديث]^(٢) : أنهم بدّلوا أمرَ الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمرُوا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رؤسهم ، وأمرُوا أن يقولوا ”حطة“ أى : احططْ عنا ذنوبنا ، فاستهزؤا فقالوا : حنطة فى شعيرة ! وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة . ولهذا أنزل الله

(١) البخارى ٦ : ٣١٢ ، و ٨ : ١٢٥ ، ٢٢٨ (فتح) . ورواه أحمد فى المسند بنحوه :

٨٠٩٥ ، ٨٢١٣ .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية .

بهم بأسه وعذابه ، بفسقهم ، وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال ” فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ “ قال ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من « الرِّجْزِ » يعنى به العذاب . وقال أبو العالية « الرِّجْزُ » : الغضب . وقال سعيد بن جبير : هو الطاعون . وروى ابن أبي حاتم ، والنسائي ، عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم ، قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطاعون رجز عذاب ، عُذِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » . وأصل الحديث في الصحيحين : « إِذَا سَمِعْتُمُ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا » - الحديث . وروى ابن جرير عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ هَذَا الْوَجْعَ - أَوِ السَّقَمَ - رَجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ » . وهذا الحديث أصله مخرج في الصحيحين (١) .

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رَزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٦٠)

يقولوا تعالى : واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقى لكم ، وتيسرى لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يُحمل معكم ، وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عيناً ، لكل سبط من أسباطكم عينٌ قد عرفوها ، فكلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذى أنبعثه لكم بلا سعى منكم ولا كد ، واعبدوا الذى سخر لكم ذلك ” وَلَا تَعْلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ “ : ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها . وهذه القصة شبيهة بالقصة التى فى سورة الأعراف . ولكن تلك مكية ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب ، لأن الله تعالى يقصّ ذلك على رسوله عما فعل بهم . وأما فى هذه السورة - وهى البقرة - فإنها مدنية ، فلهذا كان الخطاب متوجهاً إليهم . وأخبر هناك بقوله :

(١) الطبرى : ١٠٣٦ . والحديث رواه أحمد فى المسند ، بنحوه مطولا : ٢٠٧ - ٢٠٨ ،

﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ . وهو أول الانفجار . وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرًا ، وهو الانفجار ، فناسب ذكر هذا ههنا ، وذلك هناك . والله أعلم .
 ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ إِنَّ نَاصِرَ عَلٰى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنٰى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالى عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هينئاً سهلاً ، واذكروا دبركم وضجركم ممارزقتكم ، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتهم ! وقال الحسن البصرى : فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه ، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وفوم ، فقالوا ” يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها “ . فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة . وأما ” الفوم “ فقد اختلف السلف في معناه : فوقع في قراءة ابن مسعود ” وثومها “ بالثاء ، وكذا فسره مجاهد والربيع بن أنس وسعيد بن جبیر . وقال ابن جرير : فلان كان ذلك صحيحاً فإنه من الحروف المبدلة ، كقولهم : « وقعوا في عاثور شرّ وعافور شر ، وأثافي وأثائي ، ومغافير ومغاثير » ، وأشباه ذلك مما تُقلب الفاء ثاءً والثاء فاءً ، لتقارب مخرجيهما . والله أعلم . وقال آخرون ” الفوم “ الحنطة ، وهو البرّ الذى يُعمل منه الخبز .

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال ” الفوم “ الحنطة بلسان بنى هاشم . قالوا : وفي اللغة القديمة : « فَوُمُوا لَنَا » . يعنى : اختبروا^(١) . وقال البخارى : وقال : بعضهم : الحبوب التى تؤكل كلها فوم .

وقوله تعالى ” قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير “ فيه تقرير

(١) هذه الجملة أثبتت في الأصول قبل كلام ابن جرير في تبادل الفاء والثاء . وليس ذلك بموضع لها ، فقد يضطرب القارىء في معناها . وإنما موضعها الحق هنا ، فنقلناها إليه .

لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة ، مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيّ الطيب النافع .

وقوله تعالى " اهبطوا مصرّاً " هكذا هو منوّن مصروف ، مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية . وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك ، لإجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عباس " اهبطوا مصرّاً " من الأمصار . رواه ابن أبي حاتم عنه . وقال ابن جرير : وقع في قراءة أبيّ بن كعب وابن مسعود " اهبطوا مصرّاً " من غير إجراء . يعنى : من غير صرف . ثم روى عن أبي العالية والربيع بن أنس : أنهما فسرا ذلك بمصرّ فرعون . وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصرّ فرعون على قراءة الإجراء أيضاً ، ويكون ذلك من الاتباع لكتابة المصحف ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا ﴾ . ثم توقف في المراد ما هو : أمصرّ فرعون أو مصرّ من الأمصار ؟ وهذا الذى قاله فيه نظر . والحق : أن المراد مصر من الأمصار ، كما روى عن ابن عباس وغيره . والمعنى على ذلك ، لأن موسى عليه السلام يقول لهم : هذا الذى سألتهم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموه وجدتموه ، فليس يساوى - مع دناءته وكثرته فى الأمصار - أن أسأل الله فيه . ولهذا قال " أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرّاً فإنّ لكم ما سألتكم " أى : ما طلبتم . ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ، ولا ضرورة فيه - لم يُجابوا إليه . والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٦١)

يقول تعالى : " وضربت عليهم الذلة والمسكنة " أى : وضعت عليهم والزموا بها شرعاً وقدرّاً . أى : لا يزالون مُستدكّين ، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار ، وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون . قال الحسن :

أَذْهَبَ اللَّهُ فَلَا مَنَعَةَ لَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ أَدْرَكْتَهُمْ هَذِهِ الْآيَةُ وَإِنَّ الْمَجْهُوسَ لَتَجْبِيهِمُ الْجَزِيَّةُ . وَقَوْلُهُ ” وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ “ قَالَ الضَّحَّاكُ : اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنْ اللَّهِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي بِقَوْلِهِ ” وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ “ — انصرفوا ورجعوا . وَلَا يُقَالُ « بَاءٌ » إِلَّا مُوَصُولًا : إِمَّا بِخَيْرٍ وَإِمَّا بِشَرٍّ . يُقَالُ مِنْهُ « بَاءَ فُلَانٌ » بِذَنْبِهِ يَبُوءُ بِهِ بَوَاءً وَبَوَاءً . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ ، يَعْنِي تَنْصَرِفَ مُتَحَمِّلَهُمَا ، وَتَرْجِعَ بِهِمَا ، قَدْ صَارَا عَلَيْكَ دُونِي . فَغْنَى الْكَلَامِ إِذَا : رَجَعُوا مُنْصَرِفِينَ مُتَحَمِّلِينَ غَضَبَ اللَّهِ ، قَدْ صَارَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ غَضَبٌ ، وَوَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ سُخْطٌ .

وَقَوْلُهُ ” ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ “ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ بِهِ — مِنَ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكِنَةِ وَإِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ — بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَإِهَانَتِهِمْ حَمْلَةَ الشَّرْعِ — وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ — فَانْتَقَصُوهُمْ حَتَّى أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ ، فَلَا كُفْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا : أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ الْحَقِّ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صَحِّحَتِهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « الْكِبَرُ بِطَرُوقِ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ » . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : « كُنْتُ لَا أَحْجُبُ عَنِ النَّجْوَى ، وَلَا عَنْ كَذَا وَلَا عَنْ كَذَا ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ مَالِكُ بْنُ مُرَّارَةَ الرَّهَاقِيُّ ، فَأَدْرَكْتُهُ مِنْ آخِرِ حَدِيثِهِ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ قُسمَ لِي مِنَ الْجَمَالِ مَا تَرَى ، فَمَا أَحَبُّ أَنْ أَحْدَأَ مِنَ النَّاسِ فَفَضَّلَنِي بِشَرِّ أَكِينٍ فَمَا فَوْقَهُمَا ، أَفَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ الْبَغْيُ ؟ فَقَالَ : لَا ، لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْبَغْيِ ، وَلَكِنَّ الْبَغْيَ مَنْ بَطَرَ ، أَوْ قَالَ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَطَ النَّاسَ » ^(١) . يَعْنِي رَدَّ الْحَقِّ وَانْتِقَاصَ النَّاسِ وَالْإِزْدِرَاءَ بِهِمْ وَالتَّعَاضُّمَ عَلَيْهِمْ . وَلِهَذَا لَمَّا ارْتَكَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِ أَنْبِيَائِهِمْ أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ بِأَسْهُ الذِّى لَا يُرَدُّ ، وَكَسَاهُمْ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مُوَصُولًا بِذَلِكَ الْآخِرَةِ ، جَزَاءً وَفَاقًا . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ — يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ — أَنَّ

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتلته نبيٌّ أو قتل نبيّاً ، وإمامٌ ضلالةً ، وممثلٌ من الممثلين » (١) .
 وقوله تعالى " ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون " وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به : أنهم كانوا يعصون ويعتدون . فالعصيان : فعل المناهى ، والاعتداء : المجاوزة في حدّ المأذون فيه أو المأمور به . والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢)

لما بين تعالى حال من خالف أوامرّه ، وارتكب زواجره ، وتعدّى في فعل ما لا إذن فيه ، وانتهك المحارم ، وما أحلّ بهم من النكاح - نبّه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع ، فإن له جزاء الحسن . وكذلك الأمر إلى قيام الساعة : كل من اتبع الرسول النبي الأميّ فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه . كما قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .. وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ . وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد ، قال : قال سلمان : « سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهم - فذكر من صلاتهم وعبادتهم - فترلت "إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر" الآية » (٢) . قلت : هذا لا ينافي ما روى عن ابن عباس "إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر" - قال : فأُنزل الله بعد

(١) المسند : ٣٨٦٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٣ : ١٧٦ . ومجمع الزوائد ١ : ١٨١ .
 والدر المنثور ٤ : ١٧٤ .

(٢) إسناده منقطع . مجاهد لم يسمع من سلمان الفارسي .

ذلك : ﴿ ومن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ . فإن هذا الذي قاله ابن عباس لإخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن بعثه بما بعثه به ، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدًى وسبيل نجاة .

فاليهود أتباع موسى عليه السلام ، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم . و « اليهود » : من الهوادة ، وهي المودة ، أو التهود ، وهو التوبة ، لقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هَدُّنَا إِلَيْكَ ﴾ أى : تبتنا ، فكأنهم سُمُّوا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم بعضاً . فلما بُعث عيسى صلى الله عليه وسلم وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له . فأصحابه وأهل دينه هم « النصارى » ، وسُمُّوا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقد يقال لهم « أنصار » أيضاً ، كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ . وقيل : لأنهم إنما سُمُّوا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة . و « النصارى » : جمع « نَصْرَان » ، كَنَشَاوَى جمع نشوان ، وسَكَارَى جمع سكران . ويقال للمرأة « نَصْرَانَة » . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم — خاتماً للنبيين ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق — وجب عليهم تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانكفاف عما عنه زجر . وهؤلاء هم المؤمنون حقاً . وُسِّيت أمة محمد صلى الله عليه وسلم « مؤمنين » لكثرة إيمانهم وشدة إيمانهم ، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيبوبة الآتية . وأما « الصابئون » فقد اختلف فيهم : فقال مجاهد : الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ، ليس لهم دين . ورؤى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك . وقال أبو العالية والسدى وإسحق بن راهويه وغيرهم : الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور . وقال عبد الرحمن بن زيد : الصابئون أهل دين من الأديان ، كانوا يجزيرة المَوْصل يقولون : لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله ، قال : ولم يؤمنوا برسول . فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون

للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه : هؤلاء الصابئون ، يشبهونهم بهم . يعنى فى قول « لا إله إلا الله » . وأظهر الأقوال - والله أعلم - قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه . ولهذا كان المشركون يَنبِزُون من أسلم بـ « الصابئ » ، أى أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى مذكراً بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك ، له واتباع رسله ، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤسهم ليقروا بما عاهدوا عليه ويأخذوه بقوة وحزم وامتنال . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كَتَبْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . فـ “ الطور ” هو الجبل ، كما فُسر به فى الأعراف ، ونصّ على ذلك ابن عباس وغير واحد . وهذا ظاهر . وقال الحسن فى قوله “ خذوا ما آتيناكم ” يعنى : التوراة . وقوله “ بقوة ” أى : بطاعة ، بعمل بما فيه . “ واذكروا ما فيه ” يقول : اقرؤا ما فى التوراة واعملوا به . وقوله “ ثم توليتم من بعد ذلك ” يقول تعالى : ثم بعد هذا الميثاق المؤكّد العظيم توليتم عنه وانثيتم ونقضتموه . “ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ” أى : توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم “ لكنتم من الخاسرين ” بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة ..

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى "ولقد عامتكم" - يا معشر اليهود - ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعاً لهم ، فتحيَّاتوا على اصطيداد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوا لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة ، نشبت بتلك الحبال والحيل ، فلم تخلص منها يوماً ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت . فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناس في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة . فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم ، لما كانت مشابهةً للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم . وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف ، حيث يقول تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون في السبت ، إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يستطيعون تأتيتهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ - القصة بكاملها . وقوله تعالى "فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" . قال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله كمثل الحمارة يحمل أسفاراً ﴿ . وهو قول غريبٌ خلافُ الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره . قال الله تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنة الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ﴾ ، الآية . وقوله "خاسئين" يعنى : أذلةٌ صاغرين . [ثم نقل المؤلف الحافظ آثاراً عن بعض الصحابة والتابعين ، في مسخ هؤلاء المعتدين على صورة القردة ، وفي تفصيل قصتهم . ثم قال] : قلت : والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة ، بيانُ خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله - من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً . بل الصحيح : أنه معنويٌ صوريٌ . والله أعلم .

وقوله تعالى "فجعلناها نكالاً" قال بعضهم : الضمير في "فجعلناها" عائِدٌ على القردة . وقيل : على الحيتان . وقيل : على العقوبة . وقيل : على القرية . حكاه ابن جرير . والصحيح : أن الضمير عائِدٌ على القرية ، أى :

فجعل الله هذه القريةَ - والمرادُ أهلُها - بسبب اعتدائهم في سبِّهم "نكالا" أى : عاقبتناهم عقوبةً فجعلناهم عبرة . كما قال تعالى عن فرعون : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ . وقوله " لما بين يديها وما خلفها " أى : من القرى . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ - الآية ، على أحد الأقوال . فالمراد : لما بين يديها وما خلفها من المكان .

وقوله تعالى " وموعظة للمتقين " ، قال ابن عباس : الذين مِن بعدهم إلى يوم القيامة ، قلت : المراد بالموعظة ههنا : الزاجر ، أى : جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله ، وما تحيّلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم . كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارمَ الله بأدنى الحيل » . وإسناده جيد . وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح . والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦٧)

يقول تعالى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم . فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة ، وبيان القتال من هو ؟ بسببها . وإحياء الله المقتول ، ونصّه على من قتله منهم .

[ثم ذكر ابن كثير هنا - روايات مطولة - فيها بسط القصة - قصة البقرة - لا تصلح للرواية ، وليست موضع الثقة . ثم قال] :

وهذه السياقاتُ عن عبيدة . وأبى العالية ، والسُّدى ، وغيرهم - فيها اختلاف [مآ] (١) ، والظاهر أنها مأخوذةٌ من كتب بنى إسرائيل . وهى مما يجوز نقلها ، ولكن لا تُصدق ولا تُكذب . فلهذا لا نَعتمد عليها إلا ما وافق الحقَّ عندنا . والله أعلم .

﴿ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٨) قَالُوا
أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ
لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (٦٩) قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنْ
الْبَقَرُ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ،
قَالُوا الْإِنْسَانُ جِثَّتْ بِالْحَقِّ ، فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧١)

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤا لهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على
أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموضع عنهم ،
كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدّ عليهم ، فقالوا
” ادع لنا ربك يبين لنا ما هي “ ما هذه البقرة وأى شيء صفتها ؟ وروى
ابن جرير عن ابن عباس ، قال : لو أخذوا أدنى بقرة اكتشفوا بها ، ولكنهم
شددوا فشدّ [الله] عليهم ^(١) . وإسناده صحيح . وقد رواه غير واحد عن
ابن عباس . وقال ابن جرير : قال لى عطاء : لو أخذوا أدنى بقرة كفّتهم ،
قال ابن جرير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أمروا بأدنى بقرة ،
ولكنهم لما شددوا [على أنفسهم] ^(٢) شدد الله عليهم ، وإيم الله ، لو أنهم
لم يستثنوا ما بيّنت لهم آخر الأبد » ^(٣) .

” قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر “ أى : لا كبيرة هرمة ،
ولا صغيرة لم يلقحها ^(٤) الفحل . كما قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما .
” صفراء “ [أى : لونها أصفر] ^(٥) . وعن الحسن : سوداء شديدة السواد !

(١) لفظ الجلالة زدياة من الأزهرية . وهو ثابت أيضاً فى الطبرى : ١٢٣٥ .

(٢) الزيادة من الأزهرية . وهى ثابتة فى الطبرى : ١٢٤٢ .

(٣) هذا الحديث - المرفوع - مرسل لا تقوم به حجة . وسيأتى معناه ، بعد قليل ، مرفوعاً من
حديث أبي هريرة .

(٤) فى المخطوطة والمطبوعة « لم يلحقها » . وهو خطأ واضح ، لا معنى له .

(٥) هذه الجملة من كلامى ، مضمون ما ذكره الحافظ من الآثار .

وهذا غريب. والصحيح الأول، ولهذا أكد صفرتها بأنه "فالق لونها": صافية اللون. وقوله "إن البقر تشابه علينا": لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا "وإنا إن شاء الله" إذا بينتها لنا "لمهتدون" إليها. وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن بنى إسرائيل قالوا "وإنا إن شاء الله لمهتدون" لما أُعطوا، ولكن استمْتَنُوا». ورواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن مردويه. وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة^(١).

"قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث" أى: إنها ليست مذلة بالحرثة، ولا معدة للسقى في السانية، بل هى مكرمة حسنة^(٢) صبيحة، مسلمة صحيحة لا عيب فيها. "لا شية فيها" أى: ليس فيها لون غير لونها. "قالوا الآن جئت بالحق" قال قتادة: الآن بينت لنا. "فذبجوها وما كادوا يفعلون" قال ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذى أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبجوها. يعنى: أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح - ما ذبجوها إلا - بعد الجهد. وفى هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلماذا ما كادوا يذبجونها. قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك، خوف الفضيحة إن أطلع الله على قاتل القاتل الذى اختصموا فيه. ولم يسنده عن أحد. ثم اختار أن الصواب فى ذلك: أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة. وفى هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم عن ابن عباس، على ما وجهناه. وبالله التوفيق.

(١) فى إسناده «سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور». وسرور بن المغيرة بن زاذان: تكلم فيه الأزدى. والصواب أنه ثقة. ذكره ابن حبان فى الثقات. وترجمه البخارى فى الكبير ٢١٧/٢/٢. وابن أبى حاتم ٣٢٥/١/٢، فلم يذكر فيه جرحاً. وقد ذكر الهيثمى هذا الحديث بنحوه، مختصراً، فى مجمع الزوائد ٦: ٣١٤. وقال: «رواه البزار. وفيه عباد بن منصور، وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات». والحق أن عباد بن منصور ثقة، ولكنه تغير حفظه أخيراً. فلعله وهم فى رفعه. ويكون الراجح وقفه على أبى هريرة، كما قال ابن كثير هنا.

(٢) السانية - بالنون: الدلو العظيمة وأدواتها. وتطلق أيضاً على الدابة نفسها. وفى المطبوعة «الساقية» بالقاف. وفى المطبوعة أيضاً «حسنة» بدل «حسنة». والتصويب فىهما من الأزهريّة.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢ ﴾
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا ، كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣ ﴾

قال البخارى "فادارأتم فيها" : اختلفتم . وهكذا قال مجاهد . "والله مخرج" ما كنتم تكتمون " قال مجاهد : ماتغيّبون . "فقلنا اضربوه ببعضها" هذا البعض أى شىء كان من أعضاء هذه البقرة ، فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن ، وقد كان معيناً فى نفس الأمر . فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين والدنيا لبيّنه الله تعالى لنا ، ولكنه أبهمه ، ولم يخبىء من طريق صحيح عن المعصوم بيانه . فنحن نُبهمه كما أبهمه الله .

وقوله "كذلك يخبى الله الموتى" أى : فضرّبه فخبى . ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل . جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد ، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد^(١) .

والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلقه فى إحياء الموتى فى خمسة مواضع : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ . وهذه القصة . وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وقصة الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها . وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة . وينبّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رمياً ، كما روى أبو داود الطيالسى عن أبى رزّين العُقَيْلى ، قال : « قلت : يا رسول الله ، كيف يخبى الله الموتى ؟ قال : أما مررت بوادٍ مُمَحِلٍ ، ثم مررت به خَصِيراً ؟ قال : بلى : قال : كذلك النشور ، أو قال : كذلك يخبى الله الموتى »^(٢) . وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جناتٍ

(١) فى الأزهرية « والفساد » - بدل « والعناد » .

(٢) مسند الطيالسى : ١٠٨٩ . ورواه الإمام أحمد فى المسند بنحوه : ١٦٢٦١ ، ١٦٢٦٢

١٦٢٦٥ . و « رزّين » : بفتح الراء وكسر الزاى . وأبو رزّين : هو لقيط بن صبرة ، صحابى معروف .

من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ،
أفلا يشكرون ﴿ ٧٣ ﴾ .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ،
وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ
الْمَاءُ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل ، وتقريعاً لهم على ما شهدوه من آيات
الله تعالى وإحيائه الموتى ” ثم قست قلوبكم من بعد ذلك “ كـلـه ” فهي كالحجارة “
التي لا تلين أبداً . ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .
قال العوفي — في تفسيره — عن ابن عباس : فصارت قلوب بني إسرائيل مع
طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة ، بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ،
” فهي “ في قسوتها ” كالحجارة “ التي لا علاجَ لـيـنـها ” أو أشد قسوة “ من
الحجارة . فإن من الحجارة ما يتفجّر منها العيون الجارية بالأنهار . ومنها ما يشقّق
فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية
الله . وفيه إدراكٌ لذلك بحسبه ، كما قال : ﴿ تَسْبَحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ،
إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

تنبيه : اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى ” فهي كالحجارة أو
أشد قسوة “ — بعد الإجماع على استحالة كونها للشك — فقال بعضهم ” أو “
ههنا بمعنى الواو ، تقديره : فهي كالحجارة وأشد قسوة . كقوله تعالى : ﴿ وَلَا
تَطْعَمُهُمْ آثَمًا أَوْ كُفُورًا ﴾ . وقال آخرون ” أو “ ههنا بمعنى : بل ، فتقديره :
فهي كالحجارة بل أشد قسوة ، وكقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ

كخشية الله أو أشدَّ خشية ﴿ . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ .
﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكثروا الكلامَ بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةُ القلب ، وإن أبعد الناس من الله القلبُ القاسى » . رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم ^(١) .

ربع

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ^(٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ^(٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ^(٧٧)

يقول تعالى ” أفطعمون “ أيها المؤمنون أن يؤمن لكم ، أى : ينقاد لكم بالطاعة — هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ” وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه “ أى : يتأولونه على غير تأويله ” من بعد ما عقلوه “ أى : فهموه على الجليّة ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ” وهم يعملون “ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ ، يحرفون الكلم عن مواضعه ﴿ . قال ابن زيد فى قوله ” يسمعون كلام الله ثم يحرفونه “ قال : التوراة التى أنزلها الله عليهم ، يحرفونها ، يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالاً ،

(١) الترمذى ٣ : ٢٨٩ . وإبراهيم - راويه - : هو ابن عبد الله بن الحرث بن حاطب الجمحى . ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : « مستقيم الحديث » . وترجمه البخارى فى الكبير ٢٩٨/١ - ٢٩٩ ، وذكر أن بعض رواياته مراسيل . وبما هذا يجرى فيه . وترجمه ابن أبى حاتم ١١٠/١ ، ولم يذكر فيه جرحاً . فالحديث صحيح الإسناد .

والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً ، إذا جاءهم المُحِقُّ برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطلُ برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه مُحِقٌّ ، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيءٌ أمروه بالحق ، فقال الله لهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

عن ابن عباس " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً " أى : أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، فأُنزل الله " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم " أى : تقرّون بأنه نبيّ وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونَجِدُ في كتابنا ؟ ! اجحدوه ولا تقرّوا به ! يقول الله تعالى " أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون " .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)
قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٩)

يقول تعالى " ومنهم أميون " أى : ومن أهل الكتاب . قاله مجاهد ، " والأُميون " ، جمع أميّ ، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة . وهو ظاهر في قوله تعالى " لا يعلمون الكتاب " أى : لا يدرون ما فيه . ولهذا في صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أنه أميّ » ، لأنه لم يكن يحسن الكتابة . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخِطُهِ بِيَمِينِكَ ، إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْتَطِلُونَ ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ ، الشَّهْرُ

هكذا وهكذا» — الحديث^(١) . أى : لا نفتقر فى عبادتنا ومواقفها إلى كتاب ولا حساب . وقال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ . قوله تعالى ” إلا أمانى “ قال ابن عباس : قولاً يقولون بأفواههم كذباً . وقال مجاهد : إن الأميين الذين وصفهم الله ، أنهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزل الله على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرون الكذب ، ويتخرون الأباطيل كذباً وزوراً . ” والتمنى “ فى هذا الموضع : هو تخلق الكذب وتخرصه . ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما تغنىت ولا تمنيت . يعنى : ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب . وقال ابن عباس : ” وإن هم إلا يظنون “ أى : ولا يدرون ما فيه ، وهم يجدون نبوتك بالظن .

وقوله : ” فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً “ — الآية : هؤلاء صنف آخر من اليهود ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . و ” الويل “ الهلاك والدمار ، وهى كلمة مشهورة فى اللغة . وعن ابن عباس ” فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم “ قال : هم أحبار اليهود .

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرؤنه مخضاً لم يشب ؟ ! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العالم عن مسألتهم ؟ ! ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم^(٢) . وقال الحسن البصرى : الثمن القليل : الدنيا بخذافيرها . وقوله ” فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما

(١) رواه أحمد فى المسند مراراً ، منها : ٥٠١٧ ، ٥١٣٧ ، من حديث ابن عمر . ورواه الشيخان أيضاً . انظر الفتح ٤ : ١٠٨ - ١٠٩ ، وصحيح مسلم ١ : ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٢) رواه البخارى فى ثلاثة مواضع ٥ : ٢١٥ ، و ١٣ : ٢٨٢ ، ٤١٤ (فتح) .

وقد ذكرناه فى مقدمتنا لهذا الكتاب ، عند الكلام على الإسرائيليات ، ص : ١٩ .

يكسبون“ أى : فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ،
وويل لهم مما أكلوا به من السحت .

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا
فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠)

يقول تعالى لإخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادَّعَوْهُ لأنفسهم من أنهم لن تمسهم
النارُ إلا أياماً معدودة ثم ينجون منها ، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله ” قل أَتَّخِذُكُمْ
عند الله عهداً “ أى : بذلك ؟ فإن كان قد وقع فهو لا يُخْلِفُ عهده . ولكن
هذا ما جَرَى ولا كان . ولهذا أتى بـ « أَمْ » التى بمعنى : بل ، أى : بل تقولون
على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة ، قال : « لما فتحت خيبر
أُهديتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاةٌ فيها سمٌ ، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : اجتمعوا لى من كان من اليهود ههنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم : مَنْ أبوكم ؟ قالوا : فلان ، قال : كذبتم ، بل أبوكم فلان ،
فقالوا : صدقتَ وبررتُ ، ثم قال لهم : هل أنتم صادقٌ عن شىءٍ إن سألْتكم
عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبتناك عرفتَ كذبنا كما عرفتَه فى أبينا ،
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها
يسيراً ثم تخلُّفونا فيها ! فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسئُوا ، والله
لا نخلفُكم فيها أبداً ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم
صادقٌ عن شىءٍ إن سألْتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، فقال : هل جعلتم
فى هذه الشاة سمّاً ؟ فقالوا : نعم ، فقال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا
إن كنتَ كاذباً أن نستريحَ منك ، وإن كنتَ نبياً لم يضرَّك » ورواه أحمد
والبخارى والنسائى ، بنحوه (١) .

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى : ليس الأمر كما تمنيتم ، ولا كما تشتهون ، بل الأمر : أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة ، بل جميع عمله سيئات - فهذا من أهل النار . " والذين آمنوا " بالله ورسوله " وعملوا الصالحات " من العمل الموافق للشرعية - فهو من أهل الجنة . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ ليس بآمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يُجْزَ له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأُولَٰئِكَ يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ . ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهم مثلاً : كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سواداً ، وأجّجوا ناراً ، فأنضجوا ما قذفوا فيها » (١) . وقال ابن عباس " والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " أى : من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدون فيها . يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً ، لا انقطاع له .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأُولَٰئِكَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٨٣)

يذكر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذ ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً ، وهم يعرفونه ويدركونه . فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه ، ولذلك خلقتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تعالى أن يعبد وحده لا شريك له . ثم بعده حق المخلوقين ، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ أن اشكروا لى ولوالديك إلى المصير ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ ، الآية — إلى أن قال : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود : « قلت : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أى ؟ قال : برّ الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله » . ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « أن رجلاً قال : يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبك ، ثم أدناك ثم أدناك » . قال : « واليتامى » وهم : الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء . « والمساكين » الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم . وسأأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التى أمرنا الله تعالى بها صريحاً فى قوله : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ ، الآية . وقوله تعالى « وقولوا للناس حسناً » أى : كلموهم طيباً ، ولينبأوا لهم جانباً . ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف ، كما قال الحسن البصرى : فالحسن من القول : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحلم ويعفو ويصفح ، ويقول للناس حسناً كما قال الله ، وهو كل خلق حسن رضىه الله . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، وإن لم تجد فالنك أخاك بوجه منطلق » . وأخرجه مسلم ، والترمذى وصححه .

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفي الإحسان : الفعلى والقولى . ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعنيين من ذلك ، وهو الصلاة والزكاة فقال " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " . وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله ، أى : تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه ، على عمد بعد العلم به ، إلا القليل منهم . وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء بقوله : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ . فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها . والله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَّرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَى فَسُدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٨٦)

يقول الله مكرراً على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج . وذلك : أن أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا فى الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قيسنقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودى الآخر

من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابه ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفسكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة . ولهذا قال تعالى " أفْتُمْنُون ببيع بعض الكتاب وتكفرون ببعض " . ولهذا قال تعالى " وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم " أى : لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجونه من منزله ولا يظهروا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ . وذلك : أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر »^(١) . وقوله تعالى " ثم أقررتم وأنتم تشهدون " أى : ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به " ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم " . والذي أرشدت إليه الآية الكريمة ، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة^(٢) . فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما يكتُمونه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ومخرجه ومُهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله .

(١) رواه أحمد في المسند بنحوه ٤ : ٢٧٠ (حلبى) . وكذلك رواه مسلم ٢ : ٢٨٤ . والبخارى بنحوه ١٠ : ٣٦٧ (فتح) . وذكره الطبري في تفسيره ١٤٦٣ ، مطلقاً بغير إسناد .
(٢) وما يملأ النفس ألماً وحزناً : أن صار أكثر الأمم التي تنتسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه ، ووقعوا في مثل هذا العمل الذي ذم الله اليهود من أجله ، وجعل جزء من يفعله خزيّاً في الحياة الدنيا وردّاً في الآخرة إلى أشد العذاب . فزى أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعترفونه ، ويزعمون القيام بأمره - ثم هم يخالفونه في التشريع ، في شؤونهم المالية والجنايئة والخلقية ، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله في سنته لا يوافق هذا العصر ! ويجعلون من حَقهم أن يشعروا ما شاؤا ، وافق الكتاب والسنة أم خالفه ! ويصطنعون قوانين أوربة الوثنية الملحدة ، ويشربونها في قلوبهم . يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم . ولا يتعظون بما أُنذِرهم به ربهم من المثل بالأم قبلهم .

واليهود - عليهم لعائن الله - يتكاثرون بينهم . ولهذا قال تعالى " فما جزاءُ من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا " أى : بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره " ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب " جزاءً على ما كتموه من كتاب الله الذى بأيديهم " وما الله بغافل عما يعملون ^(١) * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة [أى : استحبوها على الآخرة] واختاروها ^(٢) " فلا يخفف عنهم العذاب " أى : لا يفتر عنهم ساعة واحدة " ولا هم ينصرون " أى : وليس لهم ناصر يتقدمهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ، ولا يجيرهم منه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٨٧)

ينعت تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة ، والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم . فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرّفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبیین الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ ، الآية . ولهذا قال تعالى " وقفينا من بعده بالرسول " قال السدى : أتبعنا ، وقال غيره : أردفنا ، والكل قريب . كما قال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ . حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم ، فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام . ولهذا أعطاه الله من البينات - وهى المعجزات - ما يدلّهم به على صدقه فيما جاءهم به . فاشتدّ تكذيب بنى إسرائيل

(١) قراءة حفص - المعروفة والى فى أيدى الناس فى المصاحف - « تعملون » بالناء . ولكن سياق الكلام يدل على أن الحافظ ابن كثير يقرؤها هنا بالياء ، وهى قراءة نافع وابن كثير وغيرها من القراء العشر . وهى ثابتة بالياء فى المخطوطة الأزهرية . وانظر النشر لابن الجزرى ٢ : ٢١١ .

(٢) الزيادة من الأزهرية .

له ، وحسدُهم وعنادهم ، لمخالفته التوراة في البعض ، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى : ﴿ وَلَا حِيلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ، الآية . فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة ، ففريقاً يكذبون ، وفريقاً يكذبونه ويقتلونهم ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها . فلهذا كان يشق ذلك عليهم ، فيكذبونهم ، وربما قتلوا بعضهم . ولهذا قال تعالى ” أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون “ .

وروح القدس : هو جبريل ، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية ، وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره . مع قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ . وعن عائشة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد . فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله : اللهم أيد حسان بروح القدس كما تافع عن نبيك » . رواه البخاري تعليقاً . ورواه أبو داود والترمذي [موصولاً] . وقال الترمذي : حسن صحيح . وعن أبي هريرة : « أن عمر بن الخطاب مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد . فلحظ إليه ، فقال : قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك الله ، أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أجب عني ، اللهم أيد بروح القدس ؟ فقال : اللهم نعم » . وفي بعض الروايات : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : « اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك » .

أ ثم ذكر ابن كثير أقوالاً أخرى في معنى « روح القدس » - لا تقوم لها قائمة . ثم قال [] : قال ابن جرير : وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال : الروح في هذا الموضع جبريل ، لأن الله عز وجل أخبر أنه أيد عيسى به ، كما أخبر في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ، إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، ج ١ (١٢)

ولإذ علمتكم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿ ، الآية . فذكر أنه أيده به ، فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل لكان قوله ﴿ إذ أيدتكم بروح القدس وإذ علمتكم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ - تكرير قول لا معنى له . والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم . قلت : ومن الدليل على أنه جبريل : ما تقدم في أول السياق . والله الحمد .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨)

عن ابن عباس "غلف" أى : فى أكنة . وقال السدى : يقولون : عليها غلاف ، وهو الغطاء . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله "غلف" قال : يقول : قلبى فى غلاف فلا يخلص إليه ما تقول ، وقرأ : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ﴾ . وهذا هو الذى رجحه ابن جرير ، واستشهد بما روى عن حذيفة ، قال : القلوب أربعة ، فذكر منها : وقلب أغلف مغضوب عليه ، وذاك قلب الكافر^(١) . وعن ابن عباس قال : يقولون : قلوبنا غلف مملوءة ، لا نحتاج إلى علم محمد ولا غيره . وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير "وقالوا قلوبنا غلف" بضم اللام . أى : جمع غلاف ، أى أوعية . بمعنى : أنهم ادّعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر ، كما كانوا يمتنون بعلم التوراة . ولهذا قال تعالى "بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا مَّا يُؤْمِنُونَ" أى : ليس الأمر كما ادّعوا ، بل قلوبهم مملوءة مطبوع عليها ، كما قال فى سورة النساء : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ . وقد اختلفوا فى معنى قوله "قليلًا مَّا يُؤْمِنُونَ" وقوله ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ . فقال بعضهم : قليل من يؤمن منهم ، وقيل : قليل إيمانهم ، بمعنى : أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ، لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد صلى الله

(١) رواه الطبرى موقوفاً على حذيفة هكذا . وفى إسناده انقطاع . وقد جاء معناه مرفوعاً متصلاً ، من حديث أبى سعيد الخدرى . رواه أحمد فى المسند : ١١١٤٦ ، بإسناد صحيح . وقد فصلنا تخريجهم فى الطبرى : ١٤٩٧ .

عليه وسلم . وقال بعضهم : إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قال ” فقليلا ما يؤمنون “ وهم بالجميع كافرون — كما تقول العرب : قلما رأيتُ مثلَ هذا قط . تريد : ما رأيتُ مثلَ هذا قط . حكاه ابن جرير . والله أعلم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

يقول تعالى ” ولما جاءهم “ يعنى اليهود ” كتاب من عند الله “ وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ” مصدق لما معهم “ يعنى من التوراة ، وقوله ” وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا “ أى : وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم . يقولون : إنه سيُبعث نبيّ في آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم . وروى محمد بن إسحق ، عن ابن عباس : « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ! فقال سلام بن مسكّم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذى كننا نذكر لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم ” ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم “ الآية » (١) .

(١) نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢ : ١٦١ ، في ترجمة « داود بن سلمة » — عن تفسير ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحق . ثم قال : « كذا رأيت في نسخة [يعنى من تفسير ابن أبي حاتم] . ووقع في نسخة أخرى : فقال لهم معاذ وبشر بن البراء أخو بني سلمة . كذا ذكره الطبرى من هذا الوجه ، فلعل الأول تصحيف » . ورواية الطبرى هي في التفسير برقم : ١٥٢٠ ، وليس فيها « داود بن سلمة » ، بل فيها — كما قال ابن حجر — « أخو بني سلمة » . وكذلك هو في سيرة ابن هشام ٣٧٨ — ٣٧٩ (طبعة أوربة) عن ابن إسحق . فترجح جداً أن ذكر « داود بن سلمة » خطأ من بعض النسخين . وظهر أن ابن كثير نقل الحديث من نسخة من ابن أبي حاتم وقع فيها التلطط ، كالتى رآها بعده ابن حجر .

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝﴾ (١٠)

قال السدى "بئسما اشتروا به أنفسهم" يقول : باعوا به أنفسهم ، يعنى : بشئ ما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه . وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية لـ " أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده " ولا حسد أعظم من هذا . " فباءوا بغضب على غضب " قال ابن عباس : فالغضب على الغضب : فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم ، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إلههم (١) . قلت : ومعنى " باؤا " استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب .

وقوله " وللكافرين عذاب مهين " لما كان كفرهم سببه البغى والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر - قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ . وقد روى أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ فى صور الناس ، يعلوهم كل شىء من الصغار ، حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم يقال له بؤلس فتعلوهم نار الأنبار ، يُسْقَوْنَ من طينة الحبال ، عصارة أهل النار » (٢) .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ (١١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝﴾ (١٢)

رج

(١) خبر ابن عباس هذا محرف فى المطبوعة . وصحناه من المخطوطة الأزهرية . وهى موافقة للنص فى تفسير الطبرى : ١٥٤٦ .

(٢) المسند : ٦٦٧٧ . وإسناده صحيح . وقد خرجناه وشرحناه هناك . و « بؤلس » : بضم الباء وفتح اللام وآخره سين . كما ضبطه المنذرى فى الترغيب ٤ : ١٨ - ١٩ .

يقول تعالى " وإذا قيل لهم " أى : لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب " آمنوا بما أنزل الله " أى : على محمد صلى الله عليه وسلم ، صدقوه واتبعوه " قالوا نؤمن بما أنزل علينا " أى : يكفيننا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ، ولا نقرّ إلا بذلك " ويكفرون بما وراءه " يعنى : بما بعده " وهو الحق مصداقاً لما معهم " أى : وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم الحق . " مصداقاً " : منصوب على الحال ، أى : فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك . كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . قال تعالى " فلم تقتلون أنبياء الله من قبل " أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله . فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والنشهى . كما قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ . وقال أبو جعفر بن جرير : قل يا محمد لليهود بنى إسرائيل - [الذين] ^(١) إذا قلت لهم : آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا - : لم تقتلون = إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم = أنبياءه ^(٢) ، وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم ، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم ؟ وذلك من الله تكذيباً لهم فى قولهم " نؤمن بما أنزل علينا " وتغييراً لهم .

" ولقد جاءكم موسى بالبينات " أى : بالآيات الواضحة والدلائل القاطعة على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله . والبينات : هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وقلق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر ، وغير ذلك من الآيات التى شاهدها " ثم اتخذتم العجل " أى : معبوداً من

(١) الزيادة ضرورية ، من الطبرى ٢ : ٣٥٠ طبعنا .

(٢) من قوله « يا معشر اليهود » إلى هنا - محرف جداً فى المطبوعة . وثبت فى الأثرية على

الصواب الموافق لنص الطبرى .

دون الله في زمان موسى وآياته . وقوله ”من بعده“ أى : من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله . كما قال تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجباً جسدأً له خوار ﴾ ، ” وأنتم ظالمون“ في هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله . كما قال تعالى : ﴿ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلّوا قالوا لئن لم يرجحنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمِعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشَرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣)

يعدد تبارك وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق ، وعنوّهم وإعراضهم عنه ، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ، ثم خالفوه . ولهذا [قال] : (١) ” قالوا سمعنا وعصينا “ وقد تقدم تفسير ذلك ” وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم “ قال قتادة : أشربوا حبّه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم . وروى أحمد عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : « حبُّك الشيءَ يُعمى ويُصم » . ورواه أبو داود (٢) .

وقوله : ” قل بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين “ أى : بشما تعتمدون في قديم الدهر وحديثه ، من كفركم بآيات الله ، ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد صلى الله عليه وسلم . وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين . فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان ، وقد فعلتم هذه الأفاعيل

(١) الزيادة من الأزهرية .

(٢) المسند ٥ : ١٩٤ ، و ٦ : ٤٥٠ (حلبى) . أبو داود : ٥١٣٠ .

القبیحة ، من نقضكم الموائيق ، وكفرکم بآیات الله ، وعبادتکم العجل من دون الله ؟ !

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٩٤ ﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٩٥ ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦ ﴾

عن ابن عباس ، أى : « ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ” ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين “ أى : يعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك ، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات » . رواه الطبري من طريق ابن إسحق .

وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : « لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه » ، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لما أتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » . ورواه الإمام أحمد ^(١) . وهذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين ، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب : منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة . ونقله ابن جرير عن قتادة وأبي العالية والربيع بن أنس . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه

ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿٩٣﴾ . فهم عليهم لعائن الله — لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، دُعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو المسلمين ، فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون ، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى ، بعد قيام الحجة عليهم في 'ناظرة وعتوهم وعنادهم — إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذل الجزية عن يد وهم صاغرون ، فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً . ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين : ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً ﴾ . أى : من كان في الضلالة منا أو منكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه ، كما سيأتى تقريره في موضعه ، إن شاء الله ^(١) .

وأما من فسر الآية على معنى " إن كنتم صادقين " أى : فى دعواكم فتمنوا الآن الموت ، ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة ، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم ، ومال إليه ابن جرير — فهذا فيه نظر . وذلك : أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل ، إذ يقال : لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت . وكمن من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة ، كما جاء فى الحديث : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » ^(٢) . ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا : فهذا أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة ، وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت ، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم ؟

(١) انظر تفسير الآية : ٦١ من سورة آل عمران . والآية : ٧٥ من سورة مريم .

(٢) انظر شرح الترمذى ٣ : ٢٦٤ .

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى . فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيء من ذلك ، بل قيل لهم كلام نصّف : إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس وأنكم أبناءُ الله وأحبّاءُ وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار = فباهلوا على ذلك وادّعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أنّ المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة . فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة ، لما يعلمون من كذبهم واقترائهم وكتائبهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه . فعلم كلُّ أحدٍ باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ولهذا قال تعالى ” ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة “ أى : على طول عُمرٍ ، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الحاسرة ، لأن الدنيا سجنُ المؤمن وجنة الكافر . فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم . وما يحذرون واقع بهم لا محالة ، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم . وهذا من باب عطف الخاص على العام . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ” ومن الذين أشركوا “ قال : الأعاجم . وكذا رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . قال : وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي (١) . وقال مجاهد ” يود أحدهم لو يعمر ألف سنة “ ، قال : حبّستُ إليهم الخطيئة طولَ العمر . وعن ابن عباس ” وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر “ أى : ما هو بمنحّيه من العذاب . وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت ، فهو يحب طولَ الحياة ، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم (٢) . ” والله بصير بما يعملون “ أى : خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر ، وسيجازي كلَّ عامل بعمله .

(١) يعنى : على أنه في حكم المسند المرفوع . وهو في المستدرک ٢ : ٢٦٣ .

(٢) هذا القول عن ابن عباس ، رواه الطبري مفرقاً : ١٦٠٠ ، ١٥٩٠ . وقوله « بمنحيه » : بالحاء المهملة ، من التنحية . وهو الثابت في الأزهرية والطبري .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله : أجمع أهل العلم
بالتأويل جميعاً أنّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أنّ
جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل وليّ لهم . ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله
قالوا ذلك . فقال بعضهم : إنّما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت
بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر نبوته . وروى عن ابن عباس
أنه قال : « حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :
يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبيّ ؟ فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما
أخذ يعقوبُ على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنني على الإسلام ،
فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوني عما شئتم ،
قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل
على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل ؟
وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبيّ الأُمّي في النوم ؟ ^(١) ومن
وليّه من الملائكة ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : عليكم عهدُ الله لئن أنا
أنبأتكم لتتابعنني ؟ فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق ، فقال : نشدتكم بالذي أنزل
التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل - يعقوب - مرض مرضاً شديداً
فطال سقمه منه ، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرم من أحبّ الطعام
والشراب إليه ، وكان أحبّ الطعام إليه لحمان الإبل ، وأحبّ الشراب إليه
ألبانها ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد

(١) في ابن كثير - مخطوطاً ومطبوعاً - « في التوراة » ! ولا معنى لها هنا ، والسياق ينفيها .
وصححه من الطبري : ١٦٠٥ ، والمسنّد : ٢٥١٤ . وطبقات ابن سعد ١ / ١ / ١١٥ - ١١٦ .

عليهم ، وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيضٌ غليظٌ وأن ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد ، [قال] : وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد ، قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة ؟ فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال : فإن وليتى جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعتك وصدقتك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله عز وجل " قل من كان عدواً لجبريل " - إلى قوله - " كأنهم لا يعلمون " فعندها باؤا بغضبٍ على غضبٍ . وقد رواه أحمد في مسنده ^(١) وعبد بن حميد في تفسيره . وقال البخارى : قوله " من كان عدواً لجبريل " قال عكرمة " جَبَر " و " مَيْك " و " سَرَاف " عَبْدٌ و " إيل " الله ^(٢) . وحكاية البخارى عن عكرمة ما تقدم - هو المشهور ، أن " إيل " هو الله . وكذا قال غير واحد من السلف . ومن الناس من يقول " إيل " عبارة عن : عبد ، والكلمة الأخرى هى اسم الله ، لأن كلمة " إيل " لا تتغير فى الجميع ، فوزانته : عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد الملك ، عبد القدوس ، عبد السلام ، عبد الكافي ، عبد الجليل ، ف " عبد " موجودة فى هذا كله ، واختلفت الأسماء المضاف إليها ، وكذلك جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، ونحو ذلك . وفى كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف . والله أعلم .

(١) رواه أحمد في المسند ، مطولاً ومختصراً ، بأسانيد صحاح : ٢٥١٤ ، ٢٥١٥ ، ٢٤٧١ ، ٢٤٨٣ . وذكر ابن كثير هنا رواية المسند : ٢٤٨٣ ، ونسبها أيضاً لأبى ذر والنسائي . وأعاد بعض رواياته عند تفسير الآية : ٩٣ من سورة آل عمران .
(٢) ضبطنا هذه الحروف على الأبهريّة ، وعلى نص البخارى ٨ : ١٢٥ (فتح) ، و ٦ : ١٩ (من الطبعة السلطانية) .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : بل كان سبب قبيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم ، في أمر النبي صلى الله عليه وسلم . [ثم ذكر ابن كثير خبراً في ذلك مطولاً ، من رواية الشعبي عن عمر ، نقله من تفسيري الطبري وابن أبي حاتم بإسنادينهما . ثم أعلمهما بالانقطاع بين عمر والشعبي . وهو كما قال] .

وأما تفسير الآية : فقوله تعالى ” قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله “ أى : من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكي . ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ . [سورة النساء : ١٥٠ ، ١٥١] . فحكم عليهم بالكفر المحقق ، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم . وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله ، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه ، كما قال : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ . وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب » ^(١) . ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه ،

(١) هكذا ساق ابن كثير رحمه الله الحديث . والظاهر أنه كتبه من حفظه ، فوهم فيه في موضعين : فالحديث حديث قديم ، كما هو ظاهر . وهو في البخاري ١١ : ٢٩٢ - ٢٩٣ (فتح) . ولفظه : « إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » . فالمؤلف سبها حين أثبت كلمة « بارزني » بدل « آذنته » .

ومعنى الحديث ثابت أيضاً من حديث عائشة ، رواه أحمد في المسند ٦ : ٢٥٦ (حلي) . ومن حديث معاذ ، رواه ابن ماجه : ٣٩٨٩ . ومن أوجه آخر ، أشار إليها الحافظ في الفتح . =

فقال تعالى " من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه " أى : من الكتب المتقدمة "وهدى وبشرى للمؤمنين" أى : هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة ، وليس ذلك إلا للمؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرّ وهو عليهم عصى ، أولئك ينادون من كان بعيد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ونُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يُزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ . ثم قال تعالى " من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين " يقول تعالى : من عادانى وملائكتى ورسلى - ورسله يشمل رسله من الملائكة والبشر ، كما قال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ - " وجبريل وميكال " وهذا من باب عطف الخاص على العام ، فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل ، ثم خصّصا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبريل ، وهو السفير بين الله وأنبيائه . وقرن معه ميكال فى اللفظ ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم ، وميكائيل وليّهم ، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً ، لأنه أيضاً ينزل على الأنبياء بعض الأحيان ، كما قرّن برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الأمر ، ولكن جبريل أكثر ، وهى وظيفته ، وميكائيل موكل بالنبات والقطر ، هذاك بالهدى وهذا بالرزق ، كما أن إسرافيل موكل بالصّور للنفخ للبعث يوم القيامة . ولهذا جاء فى الصحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول : اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون - اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك

= وليس المراد بـ « الأول » ما اصطلاح الناس على فهمه خطأ : أنهم طائفة معينة يسمون « الأولياء » ، فإن هذا دخل عليهم من اصطلاحات الصوفية ، ثم جرى اللفظ على الألسنة بهذا المعنى الذى لا أصل له . بل « ولى الله » : هو كل مؤمن يتق الله ويخافه ، ويعمل بما أمر ، وينتهى عما نهى عنه - فيما استطاع . ولعلنا نزيد هذا المعنى ببياناً عند تفسير قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون) . (الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ من سورة يونس) ، إن شاء الله .

تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» (١). وفي جبريل وميكائيل لغات وقراآت ، تذكر في كتب اللغة والقراآت . ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك ، إلا أن يدور فهم المعنى عليه ، أو يرجع الحكم في ذلك إليه . وبالله الثقة وهو المستعان . وقوله تعالى ” فإن الله عدو للكافرين ” فيه إيقاع المظهر مكان المضمّر ، حيث لم يقل فإنه عدو للكافرين ، بل قال ” فإن الله عدو للكافرين ” وإنما أظهر الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره ، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدو له ، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)
أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)
وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا
مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَا كِنَّ الشَّيْطَانِ
كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَيِّنَاتٍ هَرُوتَ
وَمَرُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ،
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ
بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ
عَلِّمُوا لَعْنًا اشْتَرَاهُ بِمَالِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ، وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ،
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ
لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى ” ولقد أنزلنا إليك آيات

(١) رواه مسلم ١ : ٢١٥ من حديث عائشة . وكذلك رواه الترمذي ٤ : ٢٣٧ ، وابن ماجه :

بينات “ - : أى : أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دلالات على نبوتك .
وتلك الآيات : هى ما حكاها كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، ومكنونات
سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبا عما تضمنته كتبهم التى
لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلمائهم ، وما حرقه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من
أحكامهم التى كانت فى التوراة ، فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله إلى نبيه
محمد صلى الله عليه وسلم . فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف
نفسه ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغى ، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة
صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات
البيانات التى وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئاً منه عن آدمى .
كما قال ابن عباس “ولقد أنزلنا إليك آيات بينات” يقول : فأنت تتلوهم عليهم
وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أئمة لا تقرأ كتاباً ، وأنت
تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه ، يقول الله : فى ذلك لهم عبرة وبيان ، وعليهم
حجة ، لو كانوا يعلمون . وقال قتادة : “ نبذه فريق منهم ” أى : نقضه
فريق منهم . وقال ابن جرير : أصل “النبد” الطرح والإلقاء . ومنه سُمى
اللقيط منبذاً ، ومنه سُمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء . قلت :
فالقوم ذمهم الله بنبيذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقوقها .
ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذى
فى كتبهم نعتة وصفته وأخباره ، وقد أمروا فيها باتباعه وموازرتة ومناصرتة ،
كما قال : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى
التوراة والإنجيل ﴾ ، الآية . وقال ههنا “ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق
لما معهم” ، الآية . أى : طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم ، مما
فيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم - وراء ظهورهم ، أى : تركوها ،
كأنهم لا يعلمون ما فيها . وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ، ولهذا أرادوا كيداً
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسحروه فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر
تحت راعونة بر ذى أروان . وكان الذى تولى ذلك منهم رجل يقال له لسيد بن

الأعصم لعنه الله ، فأطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم ، وشفاه منه وأنقذه . كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، كما سيأتي بيانه ^(١) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً ، وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل بها ، قال : فأكفره جهال الناس وسبّوه ، ووقف علماؤهم ، فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ” واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا “ ^(٢) . وروى ابن جرير ، عن عمران بن الحرث ، قال : بينا نحن عند ابن عباس إذ جاءه رجل ، فقال له : من أين جئت ؟ قال : من العراق ، قال : من أيته ؟ قال : من الكوفة ، قال : فما الخبر ؟ قال : تركتهم يتحدثون أن علياً خارج إليهم ! ففرع ، ثم قال : ما تقول لا أبالك ؟ ! لو شعرنا ما نكحتنا نساءه ولا قسمنا ميراثه ! إما إني سأحدثكم عن ذلك . إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء ، فيجىء أحدهم بكلمة حق قد سمعها ، فإذا جرب منه صدق كذب معها سبعين كذبة . قال : فتشربها قلوب الناس ، فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام ، فدفنها تحت كرسيه ، فلما توفي سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق فقال : هل أدلكم على كنز الممنوع الذي لا كنز له مثله ؟ تحت الكرسي ، فأخرجوه . فقالوا : هذا سحر ، فتناخها الأعمى ، حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق ، وأنزل الله عز وجل ” واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا “ . ورواه الحاكم ^(٣) . ثم ذكر الحافظ ابن كثير أخباراً جمّة في هذا

(١) في تفسير سورة الفلق . إن شاء الله .

(٢) إسناده الذي نقله ابن كثير - وحذفناه - إسناده صحيح . وهذا موقوف من كلام ابن عباس . ونحن نقف فيه ، فلا نقول شيئاً . وقد أطال ابن كثير في نقل أخبار في هذا المعنى . رحمه الله وإيانا ، وغفر لنا وله .

(٣) الخبر في الطبري : ١٦٦٢ . وفي المستدرک للحاكم ٢ : ٢٦٥ . ولم يتكلم الحاكم عليه ، =

المعنى عن التابعين وغيرهم . ثم قال [: فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف هذا المقام . ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها ، وأنه لا تعارض بين السياقات - على اللبيب الفهم . والله الهادى . فقوله تعالى ” واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان “ أى : واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم - ما تتلوا الشياطين ، أى : ما ترويه وتخبر به وتحذثه الشياطينُ على ملك سليمان . وعدّاه بـ ” على “ لأنه ضمن ” تتلو “ : تكذب . وقال ابن جرير : « على » ههنا بمعنى « فى » أى : تتلو فى ملك سليمان . قلت : والتضمين أحسن وأولى . والله أعلم . وقول الحسن البصرى رحمه الله : قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود - صحيح لا شك فيه ، لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام وسليمان بعده ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الملاّ من بنى إسرائيل من بعد موسى ﴾ ، الآية ، ثم القصة بعدها ، وفيها : ﴿ وقتل داودُ جالوتَ وآتاه الله الملكَ والحكمة ﴾ . وقال قوم صالح - وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام - لنبيهم صالح : ﴿ إنما أنتَ من المسحّرين ﴾ . وقوله تعالى ” وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه “ اختلف الناس فى هذا المقام : فذهب بعضهم إلى أن ” ما “ نافية ، أعنى التى فى قوله ” وما أنزل على الملكين “ . وروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله ” وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت “ يقول : لم ينزل الله السحر . وعن الربيع بن أنس قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا الذى تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحرَ على الملكين = ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر = ” ببابل هاروت

= فلا أدري أهو هكذا ، أم سقط كلامه من الناسخ أو الطابع ؟ وكتب الذهبى فى تلخيصه بعده : « صحيح » . وتصحيح الذهبى ثابت أيضاً فى مخطوطة مختصرة التى عندى ، ص : ٢٧٢ . وإسناده صحيح كما قال . ولكنه موقوف على ابن عباس . فنقف فيه أيضاً .

وماروت“. فيكون قوله ”ببابل هاروت وماروت“ من المؤخر الذي معناه المقدم . قال : فإن قال لنا قائل : كيف وجهُ تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : واتبعوا ما تنزل الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملوكين — ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ”ببابل هاروت وماروت“. فيكون معنيًا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام ، لأن سحرة اليهود — فيما ذكر — كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجالان : اسم أحدهما هاروت ، واسم الآخر ماروت . فيكون ”هاروت وماروت“ على هذا التأويل ترجمة على ”الناس“ وردًا عليهم . هذا لفظه بحروفه . ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول ، وأن ”ما“ بمعنى الذي ، وأطال القول في ذلك ، وادعى أن هاروت وماروت مسكنان أنزلهما الله إلى الأرض ، وأذن لهما في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً ، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة الرسل ، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك لأنهما امتثلا ما أمرا به ! وهذا الذي سلكه غريبٌ جدًّا ! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن !! وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرأها ”وما أنزل على الملّكين“ ، ويقول : هما علجان من أهل بابل ! ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء في قوله ”وما أنزل على الملّكين“ كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ ، ﴿ وَيَنْزِلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ وفي الحديث : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواء » . وكما يقال : أنزل الله الخير والشر . وذهب آخرون إلى الوقف على قوله ”يعلمون الناس السحر“ . وروى ابن جرير عن القاسم بن محمد — وسأله رجل عن قول الله ”يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملّكين

يبابل هاروت وماروت — فقال الرجل : يعلمان الناس السحر : ما أنزل عليهما ، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم : ما أبالي أيتهما كانت . ثم روى أن القاسم قال في هذه القصة : لا أبالي أى ذلك كان ، إني آمنتُ به . وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا مَلَكَين من السماء ، وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده كما سنورده إن شاء الله . وعلى هذا فيكون الجمعُ بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة : أن هذين سبق في علم الله لهما هذا ، فيكونُ تخصيصاً لهما ، فلا تعارض حينئذ . كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق ، وفي قول إنه كان من الملائكة ، لقوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾ — إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخفُ مما وقع من إبليس لعنه الله .

ذكر الحديث الوارد في ذلك

إن صحَّ سنده ورفعهُ، وبيان الكلام عليه

روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمر أنه سمع نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أى رب ؟ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم ، قال الله تعالى للملائكة ، هلموا مَلَكَين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان ؟ قالوا : ربنا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض ، ومُثِّلَت لهما الزُّهْرَةُ امرأةٌ من أحسن البشر ، فجاءتهما فسألاها نفسها ! فقالت : لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك ! فقالا : والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً ، فذهبت عنهما ، ثم رجعت بصبي تحمله ، فسألاها نفسها ! فقالت :

لا والله حتى تقتلا هذا الصبي ! فقالا : لا والله لا نقتله أبداً ، فذهبت ثم رجعت
 بقدر خمر تحمله ، فسألاها نفسها ! فقالت : لا والله حتى تشربا هذا الخمر ،
 فشربا فسكر ، فوقعا عليها ، وقتلا الصبي ! فلما أفافا قالت المرأة : والله
 ما تركتُما شيئاً [مما] أبيتاه على إلاقدهما حين سكرتما ! فخير بين عذاب
 الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا . وهكذا رواه ابن حبان في
 صحيحه . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورجاله كلهم ثقات من رجال
 الصحيحين ، إلا « موسى بن جبير » ، وهو الأنصارى السلمى مولاهم المدينى
 الحذاء ، روى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل بن حنيف ونافع وعبد الله
 بن كعب بن مالك ، وروى عنه ابنه عبد السلام وبكر بن مضر وزهير بن
 محمد وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحرث ويحيى بن أيوب ،
 وروى له أبو داود وابن ماجه ، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل
 ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا ، فهو مستور الحال ، وقد تفرد به عن نافع
 مولى ابن عمر عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى له متابع من
 وجه آخر عن نافع [ثم ذكر ابن كثير روايتين من تفسيرى ابن مردويه
 والطبرى . ثم قال] : وهذان أيضاً غريبان جداً !! وأقرب ما فى هذا أنه من
 رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار ، لا عن النبي صلى الله عليه وسلم .
 [ثم ذكر رواية من تفسير عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن موسى بن
 عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار . وذكر أنه رواها
 أيضاً الطبرى وابن أبي حاتم . ثم قال] : فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله
 بن عمر من الإسنادين المتقدمين . وسالم أثبت فى أبيه من مولاه نافع . فدار
 الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بنى إسرائيل . والله أعلم ^(١) .

(١) حديث ابن عمر - المرفوع - الذى ذكره ابن كثير من رواية أحمد - هو فى المسند :
 ٦١٧٨ . وقد نقلنا كلام ابن كثير الذى هنا فى تعليقه . وفصلنا القول فى ضعفه جداً . وأشرنا « إلى
 مخالفته الواضحة للعقل ، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية ، بل من ناحية أن الكوكب الذى نراه صغيراً
 فى عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلف من الأضعاف . فأنى
 يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة ! ! » . ونزيد هنا دليلاً على ضعف رواية
 المسند هذه : أن فى أولها أن قول الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » - إلخ - كان =

[ثم أطال ابن كثير بسرد روايات عن بعض الصحابة والتابعين في هذا المعنى ، لا يكاد العقل يقبل شيئاً منها . ثم قال] : وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم ، وقصّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين . وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى . والله أعلم بحقيقة الحال .

وقوله تعالى ” وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنّة فلا تكفر “ عن ابن عباس قال : فإذا أتاها الآتي يريد السحر نبيه أشدّ النهي ، وقال له : إنما نحن فتنّة فلا تكفر ، وذلك أنهما علما الخير والشر ، والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر . قال : فإذا أبى عليهما أمره أن يأتي مكان كذا وكذا . فإذا أتاها عين الشيطان فعلمه . فإذا علمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً في السماء ، فيقول : يا حسرتاه ! يا ويله ! ماذا صنع ! وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية : نعم أنزل الملائكة بالسحر ليعلمنا الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلى به الناس . فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا : إنما نحن فتنّة فلا تكفر . وأما « الفتنة » فهي : المحنة والاختبار . وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا

= بعد إيهاب آدم إلى الأرض . وهو مخالف صراحة لنص الكتاب العزيز ، كما مضى في الآيات : ٣٠ - ٣٨ ، أن قولهم هذا كان قبل خلق آدم ، وقبل أمرهم بالسجود له . وأن إيهابه هو وحواء كان بعد أكلهما من الشجرة .

وقد بينا أيضاً وهي هذه الأخبار فيما علقنا به في تفسير الطبري على الحديث : ١٦٨٨ . وكنت على أن أحذف هذا الحديث أيضاً من هذا الكتاب (عمدة التفسير) - على ما شرطت في المقدمة ، ص : ٩ . ولكني رأيت أن معناه يدور على ألسنة الناس ، وتجرى به أفلامهم ، وأنه يجب على البيان . فعملت الذي هو خير ، ثم ففيت سائر الروايات التي أطال الحافظ ابن كثير بذكرها ، وإن لم يقصر في الكشف عن عوارها . رحمه الله .

فتنتك) ، أى : ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿ تفصل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ . وقد استدلل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر ، ويُستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البراز عن عبد الله قال : « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » . وإسناده جيد ، وله شواهد أخر ^(١) .

وقوله تعالى "فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه" أى : فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة - ما إنهم يفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف . وهذا من صنيع الشياطين . كما روى مسلم عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، ينجى أحدهم فيقول : ما زلتُ بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعتُ شيئاً ، وينجى أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقرّبه ويدنيه ويلتزمه ، ويقول : نعم أنت » ^(٢) . وسبب التفريق بين

(١) عبد الله : هو ابن مسعود . والحديث ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤ : ٥٣ ، عنه بنحوه . وقال : « رواه البزار وأبو يعلى ، بإسناد جيد ، موقوفاً » . ثم ذكره بعده - بنحوه أيضاً - وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته ثقات » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥ : ١١٨ . وقال : « رواه البزار ، رجاله رجال الصحيح ، خلا هبيرة بن يريم ، وهو ثقة » .

وإسناد البزار - الذى ذكره ابن كثير هنا - ليس من رواية « هبيرة بن يريم » عن ابن مسعود . بل هو من رواية « همام » ، وهو ابن الحرث النخعى التابعى الكبير الثقة - عن ابن مسعود . فالظاهر أن البزار رواه بإسنادين من الوجهين .

وهذا الحديث ، وإن كان موقوفاً فى ظاهره ، فإن معناه الرفع يقيناً ، لأن حكم الصحابي بأن هذا العمل كفر - مما لا يقال بالرأى ولا يؤخذ بالقياس . كما هو ظاهر .

(٢) الحديث فى مسلم ٢ : ٣٤٦ ، مع اختلاف قليل فى اللفظ ، لعله اختلاف نسخ . وقوله فى آخره « نعم أنت » - ضبطه النووى فى شرحه ١٧ : ١٥٧ « بكسر النون وإسكان العين ، وهى نعم - الموضوع للمدح » . ولكن ضبط هنا فى المخطوطة الأزهريّة بكسرة تحت النون ، أى كما ضبطه النووى - وبفتحة فوقها أيضاً ، وكتب عليها « معاً » ، يعنى بالضبطين . فتكون « نعم » التى للجواب ، بسكون الميم . وهى جيدة المعنى هنا . كأنه يقول له : نعم ، أنت الذى أجدت فعلتك منهم .

الزوجين بالسحر بالخيل إلى الرجل^(١) أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو بغضة ، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة . و "المراء" عبارة عن الرجل . وتأنيثه "امرأة" ويشئ كل منهما ولا يجمعان . والله أعلم .

وقوله تعالى "وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله" قال سفيان الثوري : إلا بقضاء الله . وقال محمد بن إسحق : إلا بتخليئة الله بينه وبين ما أراد .

وقوله تعالى "ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم" أى : يضرهم فى دينهم وليس له نفع يوازى ضرره . "ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق" أى : ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسل لَمَن فعل فعلهم ذلك أنه ما له فى الآخرة من خلاق . قال ابن عباس : من نصيب . وقوله تعالى "ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون" يقول تعالى : ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسل . لو كان لهم علم بما وعظوا به . "ولو أنهم آمنوا واتقوا لمتوبة من عند الله خير" أى : ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به . كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ .

وقد يستدل بقوله "ولو أنهم آمنوا واتقوا" من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف . وقيل : بل لا يكفر ، ولكن حدة ضرب عنقه . لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل عن بَجَالَةَ بن عبيدة قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضاً^(٢) . وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرها جارية لها فأمرت بها فقتلت . قال

(١) « الخيل » - بفتح الحاء وسكون الياء : مصدر « خال الشيء يخالُه خيلاً » ، أى : ظنه . وفى المطبوعة « ما يخيل » ، وكأنه تصرف من ناسخ أو طابع . والأصل صحيح سليم المعنى .
(٢) هو جزء من حديث طويل ، فى المسند : ١٦٥٧ . والبخارى ٦ : ١٨٤ - ١٨٥ (فتح) . وتخرجه مفصل فى شرح المسند .

الإمام أحمد بن حنبل : صحّ عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قتل الساحر . وروى الترمذى عن جندب الأزدى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حد الساحر ضربُهُ بالسيف » . ثم قال : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، وإسماعيل بن مسلم يضعّف في الحديث ، والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفاً . قلت : قد رواه الطبرانى من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً . والله أعلم ^(١) .

فصل : حكى أبو عبد الله الرازى في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفّروا من اعتقد وجوده . قال : وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطيرَ في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً ! إلا أنهم قالوا : إن الله يخلق الأشياء عند ما يقول الساحرُ تلك الرقى والكلمات المعينة . فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا ، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة . ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى : ” وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله “ ، ومن الأخبار بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُحِرَ ، وأن السحر عُقِلَ فيه .

[ثم قال الرازى] : إن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محذور . اتفق المحققون على ذلك ، لأن العلم لذاته شريف ! وأيضاً لعموم قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ . ولأن السحر لو لم يُعَلِّمْ لما أمكن الفرقُ بينه وبين المعجزة ! والعلم بكون المعجز معجزاً واجبٌ ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب !! فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً ،

(١) الحديث في الترمذى ٢ : ٣٣٨ . ورواه أيضاً الحاكم ٤ : ٣٦٠ . وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ، وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح » . ورواه البيهقى في السنن الكبرى ٨ : ١٣٦ وأعله بإسماعيل . و « إسماعيل بن مسلم المكي » : ليس ضعيفاً ، كما قال الترمذى والبيهقى . بل حديثه حسن ، ومن تكلم فيه فإنما تكلم من قبل حفظه . وأثنى عليه جداً محمد بن عبد الله الأنصارى ، فرجحه على يونس بن عبيد ، وشهد له بحفظ الحديث - كما في ترجمته في طبقات ابن سعد ٧ / ٢ / ٣٤ . وقد حسن له الترمذى حديثاً آخر . وقال : « وقد تكلم الناس في إسماعيل بن مسلم المكي من قبل حفظه » . انظر شرحنا للترمذى ١ : ٤٥٢ - ٤٥٤ .

وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقيحاً؟! هذا لفظه بحروفه في هذه المسئلة .
وهذا الكلام فيه نظر من وجوه : أحدها : قوله العلم بالسحر ليس بقبيح -
إن عني به ليس بقبيح عقلاً ، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا ، وإن عني أنه
ليس بقبيح شرعاً ، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر ، وفي الصحيح :
« من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد » . وفي السنن : « من
عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر » . وقوله ولا محذور اتفق المحققون على ذلك -
كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث ؟ واتفاق المحققين
يقتضي أن يكون نصاً على هذه المسئلة أئمة العلماء أو أكثرهم ، وأين نصوصهم
على ذلك ؟ ! ثم إدخاله على السحر في عموم قوله تعالى ﴿ قل هل يستوى الذين
يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ فيه نظر ! لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين
بالعلم الشرعي ، ولم قلت إن هذا منه ؟ ! ثم ترقّيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل
العلم بالمعجز إلا به - ضعيف ، بل فاسد ، لأن أعظم معجزات رسولنا عليه
الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد . ثم العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً .
ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا
يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه
ولا علموه . والله أعلم .

[ثم نقل الحافظ ابن كثير عن الفخر الرازي فضلاً طويلاً في أنواع
السحر ، لا نرى لذكره فائدة ، ولا طائل تحته ، إلا نوعين مما ذكر . نرى
من الفائدة إثباتهما ، لابتلاء كثير من الناس في هذا العصر ببعض ما فيهما ،
بما تركوا من علم الشريعة ، وبما اتبعوا من الهوى] : من السحر : الأعمال
العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية ، كفارس
على فرس في يده بوق ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن
يمسه أحد . ومنها الصور التي تصورها الروم والهند ، حتى لا يفرق الناظر
بينها وبين الإنسان ، حتى يصورونها ضاحكة وباكية . إلى أن قال : فهذه

الوجوه من لطيف أمور المخايل . قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل . قلت : يعنى ما قاله بعض المفسرين : أنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى ، فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق ، فيخيل إلى الراى أنها تسعى باختيارها . قال الراى : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات . ويندرج فى هذا الباب علم جرّ الأثقال بالآلات الخفيفة ، قال : وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعدّ من باب السحر ، لأن لها أسباباً معلومةً يقينية ، من اطلع عليها قدر عليها . قلت : ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم ، بما يروّضهم إياه من الأنوار ، كقضية قُمامة الكنيسة التى لهم ببلد المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم . وأما الخواص فهم يعترفون بذلك ، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم ، فيرون ذلك سائغاً لهم . وفيه شبه للجهلة الأغبياء من متعبدى الكرامة الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترهيب والترهيب ، فيدخلون فى عداد من قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وقوله : « حدثوا عنى ولا تكذبوا على » ، فإنه من يكذب على يلج النار » . ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان ، وهو : أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة ، فإذا سمعته الطيور ترقّ له فتذهب فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به ، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله ، وتوصّل إلى أن جعله أجوف ، فإذا دخلته الريح يُسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر ، وانقطع فى صومعة ابتناها ، وزعم أنها على قبر بعض صالحهم ، وعلّق ذلك الطائر فى مكان منها ، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية ، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة فيُسمع صوتها كذلك الطائر فى شكله أيضاً ، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً ، فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة ، ولا يدرون ما سببه !! ففتنهم بذلك ، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

ومن السحر : الاستعانةُ بخواصِّ الأدوية ، يعنى فى الأطعمة والدهانات . قال : واعلم أن لا سبيل إلى إنكار الخواصِّ ، فإن أثر المغناطيس مشاهد . قلت : يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقرَ ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواصِّ ، مدعى أنها أحوال له ، من مخالطة النيران ، ومسك الحيات ، إلى غير ذلك من المحالات . ومن السحر : تعليق القلب ، وهو : أن يدعى الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن يكون ذلك السامعُ ضعيفَ العقل قليلَ التمييز ، اعتقد أنه حق ، وتعلق قلبه بذلك ، وحصل فى نفسه نوعٌ من الرعب والخافة ، فإذا حصل الخوفُ ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء . قلت : هذا النمط يقال له « التنبلة » . وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم . وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان المتنبل حاذقاً فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم . وذلك : أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص — عليهم لعائن الله — فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولوا ” راعنا “ يورون بالرعونة . كما قال تعالى : ﴿ من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ، لبيّا بالسنتهم وطمعاً فى الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ . وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون : السامُ عليكم ، والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نردّ عليهم : « وعليكم » . وأنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا . والغرض : أن الله

تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً ، فقال ” يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم “ . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ^(١) . وروى أبو داود : « من تشبه بقوم فهو منهم » ^(٢) . ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم ، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نقرأ عليها ^(٣) . وعن ابن عباس ” راعنا “ أى : أرعنا سمعك . وعنه أيضاً ، قال : « كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : أرعنا سمعك ، وإنما ” راعنا “ كقولك : عاطنا » ^(٤) . وقال عطاء : كانت لغة يقولها الأنصار ، فنهى الله عنها . وقال الحسن : ” الراعن “ من القول : السخرى منه . نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم وما يدعوه إلى من الإسلام . وكذا روى عن ابن جريج أنه قال مثله . . قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك عندنا : أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم ” راعنا “ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم ، نظير الذى ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقولوا للعنبر الكرم ، ولكن قولوا : الحبلة » . و « لا تقولوا عبدى ، ولكن قولوا : فتاى » ^(٥) . وما أشبه ذلك .

(١) المسند : ٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥٦٦٧ . وهو في مجمع الزوائد ٥ : ٢٦٧ ، و ٦ : ٤٩ .

وذكره الحافظ في الفتح ٦ : ٧٢ ، عن رواية المسند .

(٢) هذا جزء من الحديث السابق . وهو في أبي داود : ٤٠٣١ .

(٣) فانظر إلى ما يفعل المسلمون - بل المنتسبون للإسلام - في عصرنا ، من التشبه بالكفار في كل شيء ، حتى يريد الوقحاء من الكتاب أن يدخلوا شعائرهم أو ما يشبهها في عبادتنا . وحتى ضربوا على أنفسهم الذلّة والصغار ، باصطناع تشريع أوربة الوثنية الملحدة في قوانينهم الوضعية المحجرة الكافرة . أعادنا الله من الفتن ، وأعاد للمسلمين عقولهم ودينهم .

(٤) رواه الطبري : ١٧٣١ . بإسناد ضعيف .

(٥) هذان حديثان ، ذكرهما الطبري بدون إسناد : ١٧٣٩ ، ١٧٤٠ . وأولهما رواه أحمد =

وقوله تعالى " ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم " يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ، ليقطع المودة بينهم وبينهم . وينبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل ، الذي شرعه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى " والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم " .

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ (١٠٧) ﴾

قال ابن عباس " ما ننسخ من آية " ما نبطل من آية . وقال السدي : نسخها قبضها . وقال ابن أبي حاتم : يعني قبضها : رفعها ، مثل قوله : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » . وقوله : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً » . وقال ابن جرير " ما ننسخ من آية " ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره . وذلك : أن يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً ، والمباح محظوراً والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي ، والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ . وأصل " النسخ " من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها ، فكذلك معنى " نسخ " الحكم إلى غيره : إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيره . وسواء نسخ حكمها أو خطئها ، وهي في كلتي حالتها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ ، والأمر في ذلك قريب . لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء . ولخص بعضهم : أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر . فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل ، وعكسه ، والنسخ لا إلى

= في المسند : ٨٥٠٩ ، عن أبي هريرة ، ورواه الشيخان وغيرهما . وثانيهما رواه الشيخان عن أبي هريرة أيضاً . انظر الفتح : ٥ : ١٢٨ - ١٣١ ، وصحيح مسلم : ٢ : ١٩٧ .

بدل . وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه — فبسوطة في أصول الفقه . وقوله تعالى "أو ننسأها" فقرأ على وجهين : "ننْسَأُهَا" و"نُنْسِئُهَا" . فأما من قرأها "ننسأها" بفتح النون والهمزة بعد السين ، فعناه : نؤخرها . قال ابن عباس "ما ننسخ من آية أو ننسأها" يقول : ما نبطل من آية أو نتركها لا نبطلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود "أو ننسأها" ثبت خطها وبطل حكمها . وقال أبو العالية "أو ننسأها" أى : نؤخرها عندنا . وأما على قراءة "أو ننسها" — فقال قتادة : كان الله عز وجل ينسى نبيه ما يشاء ، وينسخ ما يشاء . . وروى ابن جرير عن القاسم بن ربيعة ، قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ "ما ننسخ من آية أو ننسأها" قال : قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأ "ننسها" قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب ! قال الله جل ثناؤه : ﴿ سَنَقِرُكَ فلا تنسى ﴾ . ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ . وكذا رواه عبد الرزاق . وأخرجه الحاكم ، وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١) . قال ابن أبي حاتم : وروى عن محمد بن كعب وقتادة وعكرمة نحو قول سعيد . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال عمر : على أقضانا ، وأبى أقرؤنا ، وإنما لندع من قول أبى ، وذلك أن أياً يقول :

(١) رواه الطبري بثلاثة أسانيد : ١٧٥٥ - ١٧٥٧ . وأحدها من طريق عبد الرزاق ، وهو في تفسير عبد الرزاق ، ص : ١١٠ (مخطوط مصور عندي) . ورواية الحاكم في المستدرک ٢ : ٢٤٢ .

والذى في رواية تفسير عبد الرزاق ورواية الحاكم أن قراءة سعد بن أبي وقاص «أو ننسأها» ، وقراءة ابن المسيب «أو ننسها» وهو الثابت في مخطوطة مختصر المستدرک للذهبي ، ص : ٢٦٥ . وهذا — عندي — هو الصواب ، خلافاً لما ثبت في طبعتنا للطبري ومطبوعة ابن كثير ومخطوطة الأزهري — لأنه هو المناسب لسياق الكلام ، لا يفهم على وجهه إلا به .

وقد نقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٨ : ١٢٧ - ١٢٨ هذا الخبر ، فقال : «وأما قراءة من قرأ بضم أوله فن النسيان ، وكذلك كان سعيد بن المسيب يقرأها ، فأذكر عليه سعد بن أبي وقاص — أخرجه النسائي وصححه الحاكم . وكانت قراءة سعد «أو ننسأها» بفتح المثناة ، خطأً للنبى صلى الله عليه وسلم ، واستدل بقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) . وهو يوافق ما رجحنا في قراءة ابن المسيب . وأما قراءة سعد فلا تتجه على النحو الذى ضبطه الحافظ مع الاستدلال بالآية . وإنما تتجه على ما أثبتنا ، أنها «ننسأها» ، أى : نؤخرها .

ما أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يقول ” ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها “ . ورواه للبخارى ، بنحوه (١) .

وقوله ” نأت بخير منها أو مثلها “ ، أى : فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين . وقال أبو العالية ” ما ننسخ من آية “ فلا نعمل بها ” أو ننسأها “ أى : نرجئها عندنا ، نأت بها أو نظيرها . وقال قتادة ” نأت بخير منها أو مثلها “ يقول : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي .

وقوله ” ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير “ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير “ يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرف . فكما يخلقهم كما يشاء ، يسعد من يشاء ويشقى من يشاء ، ويُصح من يشاء ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء = كذلك يحكم فى عبادته بما يشاء ، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء ، وهو الذى يحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون . ويختبر عبادته وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى . فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رساله فى تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زَجروا . وفى هذا المقام ردّ عظيم وبيانٌ بليغ لكفر اليهود ، وتزييف شبهتهم — لعنهم الله — فى دعوى استحالة النسخ ، إمّا عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً ، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكاً .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية : ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى ، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأمرُ فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدلُ وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء، إذا أشاء ، [وأقر فيهما ما أشاء] (٢) .

(١) هو فى المسند ٥ : ١١٣ (حلى) . والبخارى ٨ : ١٢٧ (فتح) .

(٢) الزيادة من الأزهرية والطبرى .

ثم قال : وهذا الخبر — وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته — فإنه منه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نسخَ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لحيثهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما ، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته ، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأن له أمرهم بما يشاء ، ونهيم عما يشاء ، ونسخ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء ، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه .

قلت : الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد ، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء ، كما يفعل ما يريد . مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية . كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ، ثم حرّم ذلك . وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ، ثم نسخ حيل بعضها . وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ، وقد حرّم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها . وأشياء كثيرة يطول ذكرها . وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه ! وما يحجب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية ، فلا يصرف الدلالة فى المعنى ، إذ هو المقصود . كما فى كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر باتّباعه ، فإنه يفيد وجوب متابعتة عليه السلام ، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته ، وسواء قيل : إن الشرائع المتقدمة مُغاية إلى بعثته عليه السلام — فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله : ﴿ ثُمَّ آمَنُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ . وقيل : إنها مطلقة ، وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها . فعلى كل تقدير فوجوب متابعتة متعين ، لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى . وقال أبو مسلم الأصهبانى المفسر : لم يقع شيء من ذلك فى القرآن ! وقوله ضعيف مردود مرذول . وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ ! فن ذلك : قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول ، لم يجب على ذلك بكلام مقبول . وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس ، ولم يجب بشيء .

ومن ذلك : نسخُ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين . ومن ذلك : نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك . والله أعلم ^(١) .

﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨)

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها . كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ ، أى : وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تُبَيِّنَ لكم ، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه ، فلعلة أن يحرم من أجل تلك المسئلة . ولهذا جاء في الصحيح : « إن أعظم المسلمين جبرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسئلته » . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك ؟ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها ، ثم أنزل الله حكم الملاعة . ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » . وفى صحيح مسلم : « ذروني ما تركتم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » . وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج ، فقال رجل : « أكل » عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ثم قال عليه السلام : لا ، ولو قلت نعم - لوجبت ، ولو وجبت لما استطعتم » . ثم

(١) رأى أبو مسلم الأصفهاني ، والرد عليه - لم يذكر في الأهرية . وأثبتناه لجودته وإتقانه ، ولما يتجه إليه كلام المجددين في هذا العصر ! ! للانتصار لهذا الرأي « الضعيف المردول » ، اجتهاداً منهم ، زعموا ! ! وقد كتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضع دفاعاً عن أبي مسلم ضعيفاً ، لا طائل تحته .

قال : « ذروني ما تركتكم » ، الحديث . وهكذا قال أنس بن مالك : « نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء ، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع » . وروى أبو يعلى عن البراء بن عازب ، قال : « إن كان ليأتني على السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء فأتنيب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب » ^(١) . وروى البزار : عن ابن عباس قال : « ما رأيتُ قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما سألوهم إلا عن اثنتي عشر مسألة ، كلها في القرآن : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ ، و ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ ، و ﴿ يسألونك عن اليتامى ﴾ ، يعني هذا وأشباهه » ^(٢) .

وقوله تعالى " أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل " أى : بل تريدون ، أو هى على بابها فى الاستفهام ، وهو إنكارى ، وهو يعم المؤمنين والكافرين ، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع ، كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ . والمراد : أن الله ذم من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء على وجه التعنت والاقتراح ، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً . قال الله تعالى " ومن يتبدل الكفر بالإيمان " أى : ومن يشتر الكفر بالإيمان " فقد ضل سواء السبيل " أى : فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال . وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتَّباعهم والانقياد لهم — إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التى لا يحتاجون

(١) لم أجده فى مجمع الزوائد . وإسناده صحيح .

(٢) رواه أيضاً الداريمى ١ : ٥٠ - ٥١ . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١ : ١٥٨ - ١٥٩ . ولكن عندهما « عن ثلاث عشرة مسألة » . وقال الهيثمى : « رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه عطاء بن السائب ، وهو ثقة ، ولكنه اختلط ، وبقية رجاله ثقات » . فلم ينسبه للبزار مع الطبرانى ، ولعله سهو منه . وإسناد الداريمى وإسناد البزار الذى نقله ابن كثير — هما من طريق « ابن فضيل عن عطاء » . وابن فضيل سمع من عطاء بعد اختلاطه . فيكون هذا الإسناد حسناً .

لأيها على وجه التعتت والكفر . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٩) وَأَقِمُّوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٠)

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين ، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم . ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح . ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه . كما روى محمد بن إسحق عن ابن عباس ، قال : « كان حُيَيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشدَّ يهود للعرب حسداً ، إذْ خصمهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانا جاهدَيْن في ردِّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأُنزل الله فيهما ” ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم “ الآية » . ” من بعد ما تبين لهم الحق “ قال ابن عباس : يقول الله تعالى : من بعد ما أضاء لهم الحق ، لم يجهاوا منه شيئاً ، ولكن الحسد حملهم على الجحود ، فغيرهم ووبخهم ولامهم أشدَّ الملامة . وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال أبو العالية : تبين لهم أن محمداً رسول الله ، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فكفروا به حسداً وبغياً ، إذْ كان من غيرهم . وقوله تعالى ” فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره “ مثل قوله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

قال ابن عباس في قوله " فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره " نسخ ذلك قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، وقوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ . فنسخ هذا عفوّه عن المشركين . وكذا قال قتادة والسدي ، أنها منسوخة بآية السيف . ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله " حتى يأتي الله بأمره " . وروى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله " فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش » . وإسناده صحيح . ولم أره في شيء من الكتب الستة ، ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد (١) .

وقوله تعالى " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله " يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى يمكن الله لهم النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهداء ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولم العنة لهم سوء الدار ﴾ . ولهذا قال تعالى " إن الله بما تعملون بصير " يعني : أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه ، سواء كان خيراً أو شراً ، فإنه سيجازي كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى " إن الله بما تعملون بصير " هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين : أنهم مهما فعلوا

(١) هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي الهيثم . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه البخاري ٨ : ١٧٣ - ١٧٥ (فتح) . ورواه مسلم أيضاً . ولكن ظن الحافظ ابن كثير أنه حديث مستقل ، فكاد ينفي أنه في الكتب الستة . ولكنه استدرك بعد ذلك فزاد الجملة الأخيرة : أن له أصلاً في الصحيحين . وهذه الجملة ليست في المخطوطة الأزهرية . وقد ذكره السيوطي في الدر المنثور ١ : ١٠٧ مختصراً ، أطول قليلاً مما هنا ، ونسبه للصحيحين وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الدلائل . وأجاد في ذلك .

من خير أو شر، سرّاً وعلانية - فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزئهم بالإحسان خيراً وبالإساءة مثلاً . وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعداً وأمرّاً وزجراً ، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدوا في طاعته ، إذ كان ذلك مدخراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ ، وليحذروا معصيته . قال : وأما قوله " بصير " فإنه « مبصر » ، صرف إلى « بصير » ، كما صرف « مبدع » إلى « بديع » ، و « مؤلم » إلى « أليم » . والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصْرَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ يُخَكِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١١٣)

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾ . فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه يعذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادّعوا لما كان الأمر كذلك . وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ، ورد عليهم تعالى في ذلك . وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادّعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة ، فقال " تلك أمانيتهم " قال أبو العالية : أمانى تمنوها على الله بغير حق . وكذا قال قتادة . ثم قال تعالى " قل " أى يا محمد " هاتوا برهانكم " قال أبو العالية ومجاهد : حججتكم ، وقال قتادة : بينتكم على ذلك

”إن كنتم صادقين“ كما تدعون . ثم قال تعالى ”بلى من أسلم وجهه لله“ أى : من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿فإن حاجتك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ ، الآية . ”وهو محسن“ أى متبع : فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما : أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر : أن يكون صواباً موافقاً للشرية . ففى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » . رواه مسلم من حديث عائشة . فعمل الرهبان ومن شابههم — وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله — فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة . وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ . وقال تعالى : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ . وروى عن أمير المؤمنين عمر : أنه تأولها فى الرهبان . وأما إن كان العمل موافقاً للشرية فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله . وهذا حال المنافقين والمرائين ، كما قال تعالى : ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ . وقال تعالى : ﴿فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤن ، ويمنعون الماعون﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ . وقال فى هذه الآية الكريمة ”بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن“ . وقوله ”فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون“ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور ، وأمنهم مما يخافونه من المحذور ، ف ”لا خوف عليهم“ فيما يستقبلونه ”ولا هم يحزنون“ على ما مضى مما يتركونه . كما قال سعيد بن جبير ”فلا خوف عليهم“ يعنى فى الآخرة ”ولا هم يحزنون“ للموت .

وقوله تعالى ”وقالت اليهود ليست النصارى على شئ“ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب“ يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديتهم

وتعاندهم . كما روى محمد بن إسحاق : عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتتهم أجباً يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رافع بن حُرَيْمِلَةَ : ما أنتم على شيء ، وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأُنزل الله في ذلك من قولهما ” وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب “ قال : إن كلاً يتلو في كتابه تصديقاً من كفر به ، أى : يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة ، وفيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما في يده صاحبه . وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء . وظاهر سياق الآية يقتضى ذمتهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك . ولهذا قال تعالى ” وهم يتلون الكتاب “ أى : وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلةً للفساد بالفساد ، كما تقدم عن ابن عباس . وقوله ” كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم “ يبين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول . وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد ختلف فيمن عني بقوله تعالى ” الذين لا يعلمون “ فقال الربيع بن أنس وقتادة : قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال السدي فهمُ العرب ، قالوا : ليس محمد على شيء . واختار ابن جرير أنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال . فالحمل على الجميع أولى . والله أعلم . وقوله تعالى ” قاله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون “ أى : أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يحور فيه ولا يظلم مثقال ذرة . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ قل يجمعُ بيننا ربنا ثم يفتحُ بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ . لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤)

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها ، على قولين : أحدهما ما رواه العوفي في تفسيره عن ابن عباس قال : هم النصارى . وعن قتادة : هو بختنصر وأصحابه ، خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى . القول الثاني : ما رواه ابن جرير عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بنى طوى وهادنهم ، وقال لهم : ما كان أحدٌ يُصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يلتقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصدّه ، فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باقى . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : « أن قريشاً منعوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله ” ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه “ . ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس . قلت : والذي يظهر — والله أعلم — القول الثاني ، كما قاله ابن زيد وروى عن ابن عباس . لأن النصارى إذ منعوا اليهود الصلاة في البيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك ، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وأيضاً : فإنه تعالى لما وجهه الذم في حق اليهود والنصارى شرع في ذم المشركين ، الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام . وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة ، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟! أخرجوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، واستحذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم . كما قال تعالى : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم

يصلدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿ . وقال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم في النار هم خالدون ﴾ * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴿ . وقال تعالى : ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة غير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ . فقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله ﴾ . فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها فأى خراب لها أعظم من ذلك ؟! وليس المراد بعمارَتها زخرفَتُها وإقامةُ صورتها فقط ، إنما عمارَتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك .

وقوله تعالى ” أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين “ هذا خبر ، عناه الطلب ، أى : لا تمكثوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية . ولهذا لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى : « ألا لا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته » . وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى : ﴿ يأياها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ . وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحدٌ منهم إلا خائفاً ، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد ، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان ، وأن يُجلى اليهود والنصارى منها . ولله الحمد والمنة . وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام ، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، صلوات الله عليه . وهذا هو الخزي لهم في الدنيا ،

لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما صدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدّوا عنه ، وكما أوجلوهم من مكة أوجلوها عنها . ” ولهم في الآخرة عذاب عظيم ” على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، والدعاء إلى غير الله عنده ، والطواف به عرياً ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله . وأما من فسر بيت المقدس ، فهذا لا ينبغي أن يكون داخلاً في معنى عموم الآية ، فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة التي كانت يُصلى إليها اليهود ، عوقبوا شرعاً وقدرّاً بالذلة فيه ، إلا في أحيان من الدهر امتسحّن بهم بيت المقدس . وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم . والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزى في الدنيا بخروج المهدي . وفسره قتادة بأداء الجزية عن يديهم صاغرون . والصحيح : أن الخزى في الدنيا أعم من ذلك كله . وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، فروى الإمام أحمد عن بسّير بن أرطاة ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجّرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » . وهذا حديث حسن ، وليس في شيء من الكتب الستة ^(١) .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١١٥)

وهذا — والله أعلم — فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلما قدم المدينة وُجّه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد . ولهذا يقول

(١) المسند : ١٧٧٠٥ . ورواه البخارى في التاريخ الكبير ١ / ٢ / ١٢٢ - ١٢٣ بالإشارة إليه كعادته فيه . وذكره الهيثمى في الزوائد ١٠ : ١٧٨ ، ونسبه لأحمد والطبرانى ، وقال : « رجال أحمد وأحد أسانيد الطبرانى ثقات » .

تعالى " والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله " . روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ : عن ابن عباس قال : « أول ما نسخ من القرآن - فيما ذكر لنا والله أعلم - شأنُ القبلة ، قال الله تعالى " والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله " فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى نحوَ بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها ، فقال : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ » ^(١) . وقال ابنُ أبي حاتم - بعد روايته الأثرَ المتقدمَ عن ابن عباس في نسخ القبلة عن عطاء عنه - : وروى عن أبي العالية والحسن وعطاء الخراساني وعكرمة وقتادة والسدي وزيد بن أسلم نحوَ ذلك . وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرضَ التوجهَ إلى الكعبة ، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن لهم التوجهَ بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب ، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحيةً إلاَّ كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية ، لأن له تعالى المشرقَ والمغربَ ، وأنه لا يخلو منه مكان ، كما قال تعالى : ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ . قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجهَ إلى المسجد الحرام . هكذا قال . وفي قوله : وأنه تعالى لا يخلو منه مكان - إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فإن علمه تعالى محيطٌ بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ^(٢) . قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية

(١) إسناده صحيح . ورواه الحاكم في المستدرک ٢ : ٢٦٧ - ٢٦٨ ، من طريق ابن جريج . وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه بهذه السياقة » . ووافقه الذهبي . ولكن سقط أول إسناده إلى ابن جريج من نسخة المستدرک ، وموضعه هناك بياض . ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٢ : ١٢ ، عن الحاكم من طريق ابن جريج . فيستفاد أول إسناده الحاكم من سنن البيهقي - في موضع ذاك البياض . وذكره السيوطي في الدر المنثور ١ : ١٠٨ ، وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم . ورواية ابن أبي حاتم أشار إليها ابن كثير - بعد هذه الرواية .

(٢) لا يفهم من كلام الطبري إلا الوجه الأول الصحيح . وقد صرح بذلك في تفسير سورة المجادلة (٢٨ : ١٠ طبعة بولاق) . ولكن هذه الشبهة إنما جاءت بما غلب على الناس من اصطلاحات علماء الكلام المتأخرين ، حتى تكاد تخرج العربية عن دلالتها الصحيحة .

على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذناً من الله أن يصلى المتطوع حيث توجهه من شرق أو غرب في مسيره في سفره ، وفي حال المسايقة وشدة الخوف . ثم روى عن ابن عمر : « أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته ، ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك . ويتأول هذه الآية " فأينما تولوا فثم وجه الله " » . ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبي حاتم وابن مردويه^(١) . وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة ، من غير ذكر الآية . وفي صحيح البخارى عن ابن عمر : « أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفتها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلّوا رجالاً قياماً على أقدامهم ، وركبائاً ، مستقبلى القبلة وغير مستقبلها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلاّ عن النبي صلى الله عليه وسلم » .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في قوم عُصَمِيَت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها ، فصلّوا على أنحاء مختلفة ، فقال الله تعالى : لى المشارق والمغرب ، فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهى ، وهو قبلتكم ، فعليكم بذلك ، إن صلاتكم ماضية . [ثم ذكر حديثاً ضعيفاً رواه الطبرى في هذا . وأبان ابن كثير عن ضعفه جداً] .

وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح^(٢) . وقال : وقد روى عن غير واحد من الصحابة : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » ، منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس . وقال ابن عمر : إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة إذا استقبلت القبلة^(٣) . قال ابن جرير :

(١) صحيح مسلم ١ : ١٩٥ . ورواه أيضاً أحمد في المسند : ٤٧١٤ ، ٥٠٠١ .

(٢) الترمذى ١ : ٣٤٤ (٢ : ١٧٣) بشرحنا . ورواه ابن ماجه . ونسبه السيوطى في الدر المنثور ١ : ١٠٩ لابن أبى شيبة أيضاً .

(٣) وروى الحاكم ١ : ٢٠٥ ، عن ابن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » . وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . وكذلك رواه الدارقطنى والبيهقى . وهذا اللفظ عام وخاص : عام لرفع الحرج عن تحرى عين القبلة لمن هو ناه عنها ، يكتفى أن يتجه

ويحتمل : فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهناك وجهي أستجيب لكم دعاءكم . ثم روى عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ، قالوا : إلى أين ؟ فنزلت ” فأينما تولوا فثم وجه الله “ . قال ابن جرير : ويعنى بقوله ” إن الله واسع عليم “ يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والحدود . وأما قوله ” عليم “ فإنه يعنى : عليم بأعمالهم ، ما يغيب عنه منها شيء ، ولا تغرب عن علمه ، بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَنَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝١١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي قبلها على الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ، ممن جعل الملائكة بنات الله . فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن الله ولدًا ، فقال تعالى ” سبحانه “ أى : تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيراً ” بل له ما في السموات والأرض “ أى : ليس الأمر كما افتروا ، وإنما له ملك السموات والأرض ، وهو المتصرف فيهم ، وهو خالقهم ورازقهم ومقدّرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء . والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ؟ والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين . وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ، ولا صاحبة له . فكيف يكون له ولد ؟ ! كما قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

= نحو القبلة . وخاص بالجهات التي شمالي مكة وجنوبيها ، كالمدينة والمين . أما الجهات التي تكون شرق مكة فإنما يتجهون لجهة الغرب ، كبلاد نجد مثلاً ، والتي تكون غربها فإنما يتجهون لجهة الشرق ، كجدة والسودان مثلاً . وما كان بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، فإنهم يتجهون إلى الجهة التي تواجه مكة من قبلهم ، كما هو البديهي الذي لا يحتاج إلى دليل .

ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هداً * أنْ دَعَوْا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عدداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴿ . وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة : أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ؟ ! ولهذا روى البخارى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : كذبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدرُ أن أعيدَه كما كان ، وأما شتمه إياي فقلوله لى ولد ، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً » . انفرد به البخارى من هذا الوجه ^(١) . وروى ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : كذبني ابنُ آدم ولم ينبغ له أن يكذبني ، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني ، فأما تكذيبه إياي فقلوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ^(٢) . وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأحد أصبرُ على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » ^(٣) . وقوله « كل له قانتون » قال عكرمة : مقرّون له بالعبودية . وقال سعيد بن جبير : الإخلاص . وقال مجاهد : مطيعون ، طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره . وهذا القول عن مجاهد - وهو اختيار ابن جرير - يجمع الأقوالَ كلّها . وهو : أن القنوت هو الطاعة والاستكانة إلى

(١) ٨ : ١٢٨ من الفتح .

(٢) ورواه البخارى أيضاً ٨ : ٥٦٨ . ونسبه السيوطى في الدر المنثور ١ : ١٠٩ إليها وإلى البيهقي في الأسماء والصفات .

(٣) البخارى ١٣ : ٣٠٥ (فتح) . ومسلم ٢ : ٣٤٤ . من حديث أبي موسى الأشعرى .

الله . وذلك شَرْعِيّ وَقَدَرِيّ . كما قال تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ .

وقوله تعالى ” بديع السموات والأرض “ أى : خالقهما على غير مثال سبق . قاله مجاهد والسدى ، وهو مقتضى اللغة . ومنه يقال للشيء المحدث « بدعة » . كما جاء في الصحيح لمسلم : « فإن كل محدثة بدعة » . والبدعة على قسمين : تارة تكون بدعة شرعية ، كقوله : « فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وتارة تكون بدعة لغوية ، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نعمت البدعة هذه . وقال ابن جرير : و” بديع السموات والأرض “ مبدعهما . وإنما هو « مُفْعِل » فصرف إلى « فاعيل » . كما صُرف المؤلم إلى الأليم ، والمسمع إلى السميع . ومعنى البديع : المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد . قال : ولذلك سُمي المبتدع في الدين مبتدعاً ، لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره . وكذلك كل محدث قولاً أو فعلاً لم يتقدمه فيه متقدم ، فإن العرب تسميه « مبتدعاً » . قال ابن جرير : فعنى الكلام : سبحان الله ، أننى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض ، تشهد له جميعها — بدلاتها عليه — بالوحدانية ، وتقرّر له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدُها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه . وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك المسيحُ الذى أضافوا إلى الله بنوته ، وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال — هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته . وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة . وقوله تعالى ” وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون “ يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدّر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له ” كن “ أى : مرة واحدة ” فيكون “ أى : فيوجد على وفق ما أراد . كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح

بالبصر ﴿ . ونبه تعالى بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة " كن " فكان كما أمره الله . قال الله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨)

روى محمد بن إسحق عن ابن عباس ، قال : « قال رافع بن حرّ يملة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ! فأنزل الله في ذلك من قوله " وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية " . وقال مجاهد : النصارى تقوله . وهو اختيار بن جرير . قال : لأن السياق فيهم . وفي ذلك نظر . وقال أبو العالية والربيع ابن أنس وقتادة والسدى في تفسير هذه الآية : هذا قول كفار العرب ، و " الذين من قبلهم " : هم اليهود والنصارى . ويؤيد هذا القول ، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب - قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالاته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أوترق في السماء ، ولن نؤمن لرؤيتك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا

(١) الآية : ١٢٤ من سورة الأنعام . وآخرها من قوله « الله أعلم حيث يجعل رسالاته ... » - لم يذكر في المطبوعة ، وهو ثابت في المخطوطة . وقوله « رسالاته » - بالجمع . هكذا ثبت فيها . وقراءة عبد الله بن كثير وحفص « رسالته » - بالإنفراد . وقرأ باقي القراء السبعة بالجمع .

لولا أنزل علينا الملائكةُ أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً». وقوله : ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يُؤتى صحفاً منشرة ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوتهم وعنادهم وسؤالهم مالا حاجة لهم به . إنما هو الكفر والمعاندة ، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم . كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنأ الله جهرة ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ .

وقوله " تشابهت قلوبهم " أى : أشبهت قلوبُ مشركي العرب قلوبَ من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو . كما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ * أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ﴾ . وقوله " قد بينا الآيات لقوم يوقنون " أى : قد وضَّحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤالٍ آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل وفهمَ ما جاؤا به من الله تبارك وتعالى . وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوةً فأولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون ﴾ * ولو جاءتهم كل آية حتى يَبرُوا العذابَ الأليم ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (١١٩)

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنزلت علىَّ " إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً " قال : بشيراً بالجنة ، ونذيراً من النار » (١) .

(١) إسناده ليس بالقوى . فيه « عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزاري العرزي » : روى ابن أبي حاتم ٢ / ٢ / ٢٨٢ عن أبيه قال : « ليس بقوى » . وفي لسان الميزان ٣ : ٤٢٨ - ٤٢٩ أنه ضعفه الدارقطني وذكره ابن حبان في الثقات . والغالب في هذا الحديث أن يكون من كلام ابن عباس .

وقوله " ولا تسئل عن أصحاب الجحيم " قراءة أكثرهم " ولا تُسئل " بضم التاء على الخبر . وقرأ آخرون " ولا تسأل " عن أصحاب الجحيم " بفتح التاء على النهي . أى : لا تسأل عن حالهم ^(١) .

وروى أحمد عن عطاء بن يسار ، قال : « لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ؟ فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ، وحرزاً للأُميين ، وأنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لا فظاً ولا غليظ ولا سخابٌ في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلفاً » . انفرد بإخراجه البخارى . ورواه ابن مردويه ^(٢) .

(١) هذه قراءة نافع . والأولى قراءة باقي السبعة . ثم ذكر ابن كثير هنا حديثين مرسلين ضعيفين جداً ، من رواية عبد الرزاق ورواية الطبري : أن سبب نزول هذه الآية سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عما فعل أبواه ؟ ثم نقل عن القرطبي « أن الله أحيا أبويه حتى آمنّا به » . ثم قال ابن كثير : « والحديث المروى في حياة أبويه عليه السلام — ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها . وإسناده ضعيف » . وهو كما قال . وما نقله عن القرطبي والرد عليه ليس في المخطوطة الأزهرية .

(٢) هو في المسند : ٦٦٢٢ . وفي البخارى ٤ : ٢٨٧ - ٢٨٨ (فتح) . وفي الأدب المفرد ، ص : ٣٨ - ٣٩ . وطبقات ابن سعد ١ / ٢ / ٨٨ . وذكره ابن كثير أيضاً من رواية المسند هذه ، عند تفسير الآية : ٤٥ من سورة الأحزاب ، وزاد نسبتة لابن أبي حاتم . وذكره أيضاً عند تفسير الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف ، من رواية الطبري .

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

قال ابن جرير: يعنى بقوله جل ثناؤه ”ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم“ -: وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع طلب ما يُرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق . وقوله تعالى ”قل إن هدى الله هو الهدى“ أى: قل يا محمد: إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى ، يعنى: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل . ”ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير“ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة ، عياداً بالله من ذلك . فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمرته (١) .

(١) عصم الله المسلمين ، منذ أن هداهم الله للإسلام إلى قريب من عصرنا هذا - من أن يتبعوا ملة اليهود والنصارى ، إلا ما يكون من حوادث فردية ، أكثرها من المعاصى العملية . ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى ، فزادوا في التشبه بهم قليلا قليلا . ثم وجد من أهم العلم فيهم ومن أهل الرأى - من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع ، فصاروا يتقربون شيئا فشيئا لساداتهم ، بتأويل القرآن والسنة ، وتحريف معانيهما ، ليقاربوا بين شريعتهم المظهرة ، وشرائع تلك الأمم الضالة والمغضوب عليها . بل ليقاربوا شريعتنا وفصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا . فكان في علمائنا وكتابتنا من ينكر الغيب أو أكثره ، فيتأولون صفة الملائكة ، ووصف الجن ، وينكرون المعجزات النبوية عامة - لأنها لم ترد في القرآن ، زعموا ! ثم يحرفون المعنى فيما ثبت منها في القرآن أو السنة المتواترة . ثم كشفوا عن وجوههم فاضربوا على المسلمين قوانين أوربة الوثنية المحرمة والمعونة . ثم استباحوا أكثر المحرمات ، يصرحون بإباحتهما عن غير حياء ولا غيرة . ثم صاروا ينزفون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التى هداها الله إليها ورسوله - بالتقاليد وبالرجعية ، لينفروا الناس منها . وقامت في عصرنا هذا الدعوة سافرة وقحة إلى تغيير الشريعة النقية في تعدد الزوجات والطلاق والموارث . بل إن بعض من يحمل شهادة العالمية من الأزهر كتب في الصحف عن غير حياء =

وقوله ” الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته “ عن قتادة : هم اليهود والنصارى . وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . واختاره ابن جرير . وروى عن قتادة : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أبو العالية : قال ابن مسعود : والذي نفسى بيده ، إن حق تلاوته : أن يحلّ حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرفَ الكلمَ عن مواضعه ، ولا يتأوّلَ منه شيئاً على غير تأويله . وكذا رواه عبد الرزاق . وعن ابن عباس قال : يتبعونه حق اتباعه . ثم قرأ : ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ ، يقول : اتبعها . وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد نحو ذلك .

وقوله ” أولئك يؤمنون به “ خبر عن ” الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته “ أى : من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامة — آمنَ بما أرسلتك به يا محمد . كما قال تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ، الآية . وقال : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تُقيموا التوراة والإنجيلَ وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ . أى : إذا أقمتُموها حق الإقامة ، وآمنتم بها حق الإيمان ، وصدّقتُم ما فيها من الإخبار بمبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونعمته وصفته والأمرِ باتباعه ونصره ومؤازرته — قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسولَ النبي الأُمّى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، الآية . وقال تعالى :

== « أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات » ! وضعف الأزهر كله عن أن يضرب على يديه ، خشية أن يغضب من وراءه ومن ينصره في كفره وإفترائه على الله . وحتى إن بعض الصحف القوية المأجنة الداعرة لتدعوا إلى الزنا علناً ، دون أن يردعها أحد . بل إن بعضهم ليصرح بمنع العلماء من الكتابة في هذه المسائل « الاجتماعية » . والصحف الأخرى لا ترضى أن تنشر لأحد من العلماء دفعا لهذا الكفر البواح . بل إن نسواناً ماجنات فاجرات ينشرن في الصحف الدعوة السافرة إلى الفجور ، بعد انتشار السفور . فلئن لم يدفع المسلمون — أو المنتسبون للإسلام — هذه المنكرات عن دينهم وعن بلادهم ، لیسطن الله عليهم عذوبهم ، وليستأصلن شأفتهم ، وليستبدلن بهم قوماً غيرهم ، ثم لن يكونوا أمثالهم .

﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ . أَيْ : إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا بِهِ مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوَاقِعًا . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِينَ أَتُسَلِّمُونَ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ” وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ “ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالِنَارُ مَوْعِدُهُ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحِ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي - إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (١) .

﴿ يَلْبِسُنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١٢٣)

قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ (٢) . وَكَرَّرَتْ هَهُنَا لِلتَّأْكِيدِ وَالْحَثِّ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كِتَابِهِمْ وَنِعْمَتَهُ وَاسْمَهُ وَأَمْرَهُ وَأَمْتَهُ . يَحْذَرُهُمْ مِنْ كِتْمَانِ هَذَا وَكِتْمَانِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْدِّينِيَّةِ ، وَلَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الْحَسَدُ عَلَى مَخَالَفَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ وَالْحَيْدَةِ عَنْ مُوَافَقَتِهِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

(١) هُوَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ١ : ٥٣ - ٥٤ ، بِنَحْوِهِ ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ .

(٢) مَضَى فِي الْآيَةِ : ٤٧ ، ص : ٤٧ .

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام ، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يُقتدى به في التوحيد ، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي . ولهذا قال ” وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات “ أى : واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها ، وإنما الذى هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين — اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم ، أى : اختباراً له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ” فأتمهن “ أى : قام بهن كلهن . كما قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ ، أى : وفى جميع ما شرع له فعمل به ، صلواتُ الله عليه . وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وأتيناه فى الدنيا حسنةً وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملةَ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملةَ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين ﴾ .

وقوله تعالى ” بكلمات “ أى : بشرائع وأوامر ونواهي . فإن ” الكلمات “ تطلق ويراد بها الكلمات القدريّة ، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام : ﴿ وصدّقتُ بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ . وتطلق ويراد بها الشرعية ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعِدلاً ﴾ ^(١) . أى

(١) الآية : ١١٥ من سورة الأنعام . وقراءة حمزة والكسائي وعاصم — الذى حفص أحد رواه — « كلمة » بالإنفراد . وقرأ باقى العشرة « كلمات » بالجمع . وهى التى أثبتّها الحافظ المؤلف هنا وفسرها بمعنى الجمع . وكذلك ثبتت فى المخطوطة الأزهريّة . وغيرت فى المطبوعة إلى « كلمة » على قراءة حفص المروّفة .

كلماته الشرعية . وهي : إما خبرٌ صدق ، وإما طلبٌ عدل إن كان أمراً أو نهياً .
ومن ذلك هذه الآية الكريمة ” وإذ ابتلى إبراهيمَ ربه بكلمات فاتمهن “ . أى :
قام بهن ” قال لى جاعلك للناس إماماً “ أى : جزاءً على ما فعل ، كما قام
بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوةً وإماماً يقتدى به ويحتذى
حذوه .

وقد اختلفت فى تعيين الكلمات التى اختبرَ اللهُ بها إبراهيمَ الخليل عليه
السلام : فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات : فروى عنه : ابتلاه الله
بالمناسل . وروى عنه : ابتلاه بالطهارة ، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ،
فى الرأس : قصّ الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرّق الرأس ، وفى
الجسد : تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط
والبول بالماء ^(١) . قلت : وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة
قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عشرٌ من الفطرة : قص الشارب
وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقصّ الأظافر وغسل البرأجم ونتف
الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء » . قال مصعب : ونسيتُ العاشرة ، إلا أن
تكون المضمضة . قال وكيع : انتقاص الماء ، يعنى الاستنجاء . وفى الصحيح
عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الفطرة خمس : الختان
والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط » . ولفظه لمسلم . وروى
ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه كان يقول فى تفسير هذه الآية ، قال : عشر ،
ست فى الإنسان وأربع فى المشاعر ، فأما التى فى الإنسان : فحلق العانة ونتف
الإبط والختان ، وكان ابن هبيرة يقول : هؤلاء الثلاثة واحدة ، وتقليم الأظافر
وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة ، والأربعة التى فى المشاعر : الطواف
والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة ^(٢) . وعن عكرمة عن ابن

(١) رواه الطبرى : ١٩١٠ ، والحاكم فى المستدرک ٢ : ٢٦٦ ، وقال : « صحيح على شرط
الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي .

(٢) إسناد ابن أبى حاتم - فى هذا - لابن عباس ، إسناد صحيح .

عباس أنه قال : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كلفه إلا إبراهيم ، قال الله تعالى : " وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن " قلت له : وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً ، منها عشر آيات في براءة : ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخر الآية ، وعشر آيات في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ و ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ ، وعشر آيات في الأحزاب : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخر الآية ، فأتمهن كلهن ، فكتب له براءة ، قال الله : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم ، وهذا لفظ ابن أبي حاتم . وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : ابتلاه بالكواكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه ، وابتلاه بالختان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه . [ثم نقل الحافظ ابن كثير روايات هنا من الطبرى ومن غيره ، عن مجاهد وعن غيره ، فيها آراء مختلفة . ثم قال] :

قال ابن جرير ما حاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائز أن يكون بعض ذلك . ولا يجوز الحزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحدوث أو إجماع . قال : ولم يصح في ذلك خبرٌ بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

[ثم حكى كلاماً للطبرى ، فيه احتمال لترجيح ما روى عن مجاهد وبعض من تابعه . ثم قال ابن كثير] : والذي قاله أولاً [يعنى ابن جرير] - من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر - أقوى من هذا الذى جوزّه من قول مجاهد ومن قال مثله ، لأن السياق يعطى غير ما قالوه . والله أعلم .

وقوله " قال ومن ذريتي " ، قال لا ينال عهدى الظالمين " لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل أن تكون الأئمة من بعده من ذريته ، فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم . والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ ، فكل نبي أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله بعد

إبراهيم - ففي ذريته ، صلوات الله وسلامه عليه . وأما قوله ” قال لا ينال عهدي الظالمين “ فقال ابن عباس : يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده ، ولا ينبغي أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله . ومحسن ” ستنفذ فيه دعوته وتبلغ له فيه ما أراد من مسئلته . [ونقل الحافظ أقوالاً كثيرة متقاربة المعنى . ثم قال] : فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير وابن أبي حاتم . واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً - ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال ابن عباس : قوله تعالى ” وإذ جعلنا البيت مثابة للناس “ يقول : لا يقضون منه وطراً ، يأتون به ثم يرجعون إلى أهلهم ثم يعودون إليه . ” وأمناً “ قال أبو العالية : أمناً من العدو وأن يحمل فيه السلاح ، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسببون .

ومضمون ما فسر به الأئمة هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً ، من كونه مثابة للناس ، أى : جعله محلاً تشاق إليه الأرواح وتحن إليه ، ولا تقضى منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام ، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ ربنا وتقبل دعائي ﴾ . ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً ، من دخله أمن ، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يعرض له ، كما وصفها في سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ . أى : يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء ، كما قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض . وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً ، وهو خليل الرحمن ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ . وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال ” واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى “ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالمَقَام ما هو ؟ فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : مقام إبراهيم الحرم كله . وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك . وقال سعيد بن جبير : الحجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمةً ، فكان يقوم عليه ويتأولهُ إسماعيل الحجارة . وروى ابن أبي حاتم عن جابر ، في حديثه عن حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « لما طاف النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر : هذا مقامُ أبينا ؟ قال : نعم ، قال : أفلا نتَّخذه مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل ” واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى “ . وروى ابن مردويه عن عمر بن الخطاب : « أنه مرَّ بمقام إبراهيم ، فقال : يا رسول الله ، أليس تقوم بمقام خليل ربنا ؟ قال : بلى ، قال : أفلا نتَّخذه مصلى ؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت ” واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى “ . وروى البخاري عن أنس بن مالك ، قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقتُ ربي في ثلاث ، أو وافقني ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فترلت ” واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى “ وقلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبَةُ النبي صلى الله عليه وسلم بعض نساؤه ، فدخلت عليهن ، فقلت إن انتهيتن أوليبدلن الله رسوله خيراً منكن ، حتى أتت إحدى نساؤه فقالت : يا عمر ، أما في رسول الله ما يعظُ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله : ﴿ عَسَى رَبِّهٖ أَنْ يَبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ ﴾ الآية . ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه . وقال الترمذي : حسن صحيح . ورواه الإمام علي بن المديني ، وقال : هذا من صحيح الحديث ^(١) . وروى مسلم

(١) فتح الباري ٨ : ١٢٨ . ومسند أحمد : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ٢٥٠ . وذكره السيوطي في

الدر المنثور ١ : ١١٨ ، وخرجه من دواوين كثيرة .

عن ابن عمر عن عمر ، قال : « وافقت ربي في ثلاث : في الحجاب ، وفي أسارى بدر ، وفي مقام إبراهيم »^(١) . وروى أبو حاتم الرازي عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقني ربي في ثلاث ، أو وافقتُ ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى " وقلت : يا رسول الله ، لو حُجبت النساء ؟ فنزلت آية الحجاب ، والثالثة : لما مات عبد الله بن أبيّ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه ، قلت : يا رسول الله ، تصلي على هذا الكافر المنافق ؟ فقال : إيهما عنك يا ابن الخطاب ، فنزلت : ﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ . وإسناده صحيح أيضاً . ولا تعارض بين هذا ولا هذا ، بل الكل صحيح . ومفهوم العدوّ إذا عارضه منطوق " قدّم عليه . والله أعلم . وروى ابن جرير عن جابر ، قال : « استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن ، فرمل ثلاثاً ومشى أربعةً ، ثم تَفَدَّ إلى مقام إبراهيم فقرأ " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى " فجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين » . وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه^(٢) . وروى البخاري عن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن عمر يقول : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فطاف بالبيت سبعاً ، وصلى خلف المقام ركعتين » . فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويتاوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا حتى تم جدارات الكعبة ، كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري . وكانت

(١) صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ .

(٢) الطبري : ٢٠٠٣ . والحديث بطوله في صحيح مسلم ١ : ٣٤٦ - ٣٤٧ . وكذلك رواه أحمد في المسند : ١٤٤٩٤ .

آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها . ولهذا قال أبو طالب في قصيدته اللامية المعروفة :

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعلٍ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً . كما روى ابن وهب عن أنس بن مالك ، قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأُخِصَّصُ قدميه ، غير أنه أذهبهُ مَسَحُ الناس بأيديهم . وروى ابن جرير عن قتادة : إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفتها الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه ، فما زالت هذه الأمة بمسحونه حتى اخلوَّق وانمَحى . قلت : وقد كان هذا المقام ملتصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمين الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك . وكأن الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك . ولهذا — والله أعلم — أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه . وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتِّباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا بالذَّيْن من بعدى : أبي بكر وعمر » ، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين . وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين البيهقي عن عائشة : « أن المقام كان في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت ، ثم أخره عمر بن الخطاب » . وإسناده صحيح .

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا
وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ
كَفَرَ فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ
يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً
لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾

قال الحسن البصري : قوله ” وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ” قال : أمرها
الله أن يطهره من الأذى والنَّجَس ولا يصيبه من ذلك شيء . والظاهر أن هذا
الحرف إنما عدّى بـ « إلى » لأنه في معنى : تقدّمنا وأوحينا ^(١) . وقال
مجاهد وسعيد بن جبیر ” طهرا بيتي للطائفين ” : أن ذلك من الأوثان والريث ^(٢)
وقول الزور والرجس . وأما قوله تعالى ” للطائفين ” فالطواف بالبيت معروف . وعن
سعيد بن جبیر أنه قال : ” للطائفين ” يعنى : من أتاه من غربة ؟ ” والعاكفين ”
المقيمين فيه . وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس أنهما فسرا العاكفين بأهله
المقيمين فيه . كما قال سعيد بن جبیر ، وروى ابن أبي حاتم عن ثابت ، قال : قلت لعبد
الله بن عبيد بن عمير : ما أراى إلا مكلم الأمير أن امنع الذين ينامون في المسجد
الحرام فإنهم يُجَنَّبون ويُحَدَّثون ، قال : لا تفعل ، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال : هم
العاكفون . قلت : وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول
صلى الله عليه وسلم وهو عَزَبٌ . وأما قوله تعالى ” والركع السجود ” فقال
ابن عباس : إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود . وكذا قال عطاء وقتادة .

(١) هكذا ثبت في المخطوطة والمطبوعة « وأوحينا » بالخاء . ولقد يبدو لى أن صوابها « وأوصينا »
بالصاد . لأن من معنى « العهد » : التقدم إلى المرء في الشيء ، ومن معناه أيضاً : الوصية . انظر
اللسان وغيره من المعاجم .

(٢) « الريب » هنا : الشر والخوف . انظر الطبرى ٣ : ٣٩ . وهذا هو الثابت في الأزهرية .
وفي المطبوعة « والرفث » ! وهو تصحيف .

وقال ابن جرير : فغنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين ،
والتطهير الذى أمرهما به فى البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه
ومن الشرك . ثم أورد سؤالاً فقال : فإن قيل : فهل كان قبل بناء إبراهيم عند
البيت شىء من ذلك الذى أمر بتطهيره منه ؟ وأجاب بوجهين : أحدهما : أنه
أمرهما بتطهيره مما كان يُعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ، ليكون
ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله تعالى قد جعل لإبراهيم إماماً يقتدى به ، كما
قال عبد الرحمن بن زيد " أن طهراً بيتى " قال : من الأصنام التى يعبدون ،
التي كان المشركون يعظمونها . قلت : وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد
عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن
المعصوم محمد . والجواب الثانى : أنه أمرهما أن يُخلصا بناء الله وحده لا شريك
له ، فيبنياه مطهراً من الشرك والريب ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ أفنأسس بنيانه
على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ﴾ .
قال : فكذلك قوله " وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى " أى : ابنياه
على طهر من الشرك والريب . وملخص هذا الجواب : أن الله تعالى أمر
إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبني الكعبة على اسمه وحده لا شريك له ،
للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود ، كما قال تعالى :
﴿ وإذ بَوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتى للطائفين
والقائمين والركع السجود ﴾ ، والآيات . والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين
كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ثم مع ذلك
يصدون أهله المؤمنين عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن
سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد * ومن يرد
فيه يلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ . ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله
وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر فى سورة الحج أجزائها
الثلاثة : قيامها وركوعها وسجودها ، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿ سواء
العاكف فيه والباد ﴾ . وفى هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين ، واكتفى

بذكر الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجد إلا بعد قيام. وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحجّه من أهل الكتابين : اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمتته، ويعامون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ ! وقد حجّ البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾. وتقدير الكلام إذاً ” وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود “ أى : طهراه من الشرك والريّب، وابنيه خالصاً لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية ومن قوله تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾. ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطيبها، وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه السلام : « إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له » (١). وقد جمعت في ذلك جزءاً على حدة. والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى ” وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر “ روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن جابر بن عبد الله، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبراهيم حرّم بيت الله وآمنه، وإني حرّمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يُصَاد صيدها، ولا يُقَطَّع عِصَاهُهَا ». ورواه مسلم والنسائي (٢). وروى ابن جرير أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبراهيم كان عبد الله

(١) رواه مسلم ١ : ١٥٧ - ١٥٨. وابن ماجه : ٧٦٥ - كلاهما من حديث بريدة الأسلمي.

(٢) الطبري : ٢٠٢٩. وإسناده صحيح. وسلم بنحوه ١ : ٣٨٥. و « اللابتان » هما الحرتان بجاذي المدينة، وهى الأرض ذات الحجارة السود التى قد ألبستها لكثرتها. و « العضاء » بكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة وآخره هاء : كل شجر عظيم له شوك.

وخليله ، وإني عبدُ الله ورسوله ، وإن إبراهيمَ حرّم مكة ، وإني حرمتُ المدينة ما بين لابتيها : عضاهها وصيدَها ، لا يُحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يقطع منها شجرة إلا لعَلَفٍ بعير . وهذه الطريق غريبة ليست في شيء من الكتب الستة ^(١) . وأصلُ الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة ، قال : « كان الناس إذا رأوا أولَ الثمرِ جاؤا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لنا في ثَمَرِنَا ، وبارك لنا في مدينتِنَا ، وبارك لنا في صاعِنَا ، وبارك لنا في مُدَّتِنَا ، اللهم إنَّ إبراهيمَ عبدُك وخليك ونبيك ، وإني عبدُك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه ، ثم يدعوا أصغرَ وليدٍ فيعطيه ذلك الثمر » ^(٢) . وروى ابن جرير عن رافع بن خديج ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبراهيمَ حرّم مكة ، وإني أحرم ما بين لابتيها » . انفرد بإخراجه مسلم ^(٣) . ثم ذكر المؤلف الحافظ أحاديث في هذا المعنى : عن أنس ، من الصحيحين . وعن عبد الله بن زيد بن عاصم ، منهما . وعن أبي سعيد ، من صحيح مسلم . ثم قال [: والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة . وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة ، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة . وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرّم مكة قبل خلق السموات والأرض ، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحزمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتالُ فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعةً من نهار ، فهو حرام بحزمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يُختلى تخلاها ، فقال العباس : يا رسول الله » ^(١) الطبري : ٢٠٣٠ . وإسناده صحيح . ولم أجده أيضاً في المسند ولا في غيره مما استطعت الرجوع إليه من المراجع .

(٢) صحيح مسلم ١ : ٣٨٧ ، من طريق مالك . وهو في الموطأ ص : ٨٨٥ .

(٣) الطبري : ٢٠٣١ . وصحيح مسلم ١ : ٣٨٥ .

الله ، إلاّ الإذخر ، فإنه لقيهم وليبوتهم ، فقال : إلاّ الإذخر . وهذا لفظ مسلم^(١) . ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك^(٢) .

فإذا علم هذا ، فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرّمها ، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزلّ بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها . كما أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبًا عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمُنجدل في طيته . ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ ، الآية . وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره . ولهذا جاء في الحديث : « أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن بدء أمرك ؟ فقال : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم . ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام » . أي : أخبرنا عن بدء ظهور أمرك ، كما سيأتي قريباً ، إن شاء الله^(٣) . وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال " رب اجعل هذا بلدًا آمنًا " أي : من الخوف ، لا يرعب أهله . وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً . كقوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ . وقوله : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطفُ الناسُ من حولهم ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات . وقد تقدمت الأحاديثُ في تحريم القتال فيها . وقال في هذه السورة " ربّ اجعلْ هذا بلدًا آمنًا " أي : اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا . وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ . وناسب هذا هناك ، لأنه - والله أعلم - كأنه وقع دعاءً ثانيًا بعد بناء البيت واستقرار أهله به ، وبعد مولد إسحق ، الذي هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة .

(١) صحيح مسلم ١ : ٣٨٣ . وانظر الطبري وتخريجنا : ٢٠٢٨ .

(٢) ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر بمعناهما ، من حديث صفية بنت شيبة ، رواه ابن ماجه . وذكره البخاري في الصحيح تعليقا . ثم حديثاً آخر بهذا المعنى ، من حديث أبي شريح العدوي ، رواه الشيخان .

(٣) عند تفسير الآية : ١٣٩ من هذه السورة .

ولهذا قال في آخر الدعاء : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق ، إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

وقوله تعالى ” قال ومن كفر فأمّته قليلاً ” ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير “ قال أنى بن كعب : هو قول الله تعالى . وهذا قول مجاهد وعكرمة . وهو الذى صوّبه ابن جرير رحمه الله . وهذا كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ . متاعٌ فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ، إلينا مرجعهم فننهبهم بما عملوا ، إن الله عليم بذات الصدور ﴾ . نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ . وقوله : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ﴾ . وزخرفاً ، وإن كل ذلك لَمَّا متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . وقوله ” ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير “ أى : ثم أُلجئه بعد متاعه فى الدنيا وبسطنا عليه من ظلالها - إلى عذاب النار وبئس المصير . ومعناه : أن الله تعالى يُنظرهم ويمهلهم ، ثم يأخذهم أخذَ عزيز مقتدر . كقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أُمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ . وفى الصحيحين : « لا أحد أضبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيه » ^(١) . وفى الصحيح أيضاً : « إن الله ليلى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾ » ^(٢) . وأما قوله تعالى ” وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم “ - فالقواعد : جمع قاعدة ، وهى السارية والأساس . يقول تعالى : واذكر يا محمد لقومك

(١) مضمّن فى ص : ٢٢٢ من حديث أبى موسى الأشعرى .

(٢) رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه ، من حديث أبى موسى . انظر الفتح ٨ : ٢٦٧ .

بناءً لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان :
 ” ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم “ . فهما في عمل صالح ، وهما
 يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما . كما روى ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد :
 أنه قرأ ” وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا “ ثم يبكي
 ويقول : يا خليل الرحمن ، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفقٌ أن لا يقبل
 منك^(١) . وهذا كما حكى الله عن حال المؤمنين الخالص في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ
 يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ۖ أَى : يُعْطُونَ مَا أُعْطُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ وَالْقُرْبَاتِ
 ۖ وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ۖ أَى : خَائِفَةٌ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُمْ .

وقد روى البخارى ههنا عن ابن عباس قال : « أولُ ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارةَ ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت ، عند دَوْحَةٍ فوق زمزم فى أعلى المسجد ^(٢) ، وليس بمكة يومئذ أحدٌ ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ وسقاءٌ فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم منطقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنسٌ ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : اللهُ أمرَك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذنٌ لا يُضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنتُ من ذُرِّيّتي بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك

(١) وهيب بن الورد المكي : من كبار العباد الزاهدين ، من شيوخ عبد الله بن المبارك وفضيل بن عياض وعبد الرزاق . مات سنة : ١٥٣ . مترجم في التهذيب . والكبير للبغاري ٤/٢٧٧ . والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٢٣٤ . وله ترجمة حافلة جيدة في الحلية لأبي نعيم ٨ : ١٤٠ -

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة .

الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى - أو قال يتلبّط^(١) - فانطلقت كراهيةً أن تنظرَ إليه ، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرفَ درعها ثم سعتُ سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروّة فقامت عليها ، فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبعَ مرات ، قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلذلك سعى الناسُ بينهما ، فلما أشرفت على المروّة سمعت صوتاً فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعتُ إن كان عندك عُغَاثٌ^(٢) ، فإذا هي بالملكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تُحَوِّضُهُ وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : برحم الله أمّ إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزمُ عيناً معيناً ، قال : فشربت وأرضعتُ ولدَها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتاً لله يبنى^(٣) هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يُضيعُ أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية ، تأتيه السيولُ فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك ، حتى مرت بهم رفقةٌ من جُرْهم - أو أهلُ بيت من جرهم - مقبلين من طريق كدّاء، فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائراً عاثفاً^(٤) ،

(١) يتلبط : يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض .

(٢) « غواث » : ضبطت في اليونانية من البخارى (٤ : ١٤٣ من الطبعة السلطانية) بضم الغين وكسرها وعليها كلمة « صم » . وقال ابن الأثير في النهاية : « الغواث بالفتح ، كالفياث بالكسر : من الإغاثة . وقد أغاثه يغيثه . وقد روى بالضم والكسر ، وهما أكثر ما ينجى في الأصوات ، كالنجاح والنداء . والفتح فيها شاذ » .

(٣) هكذا هو بحذف المفعول . وهو الثابت في الأزهرية والموافق لما في البخارى . وفي المطبوعة « يبنيه » . وهو مخالف للرواية الثابتة .

(٤) بالغين المهملة والفاء . وهو الذى يحوم على الماء ويتردد ولا يمضى عنه . قاله الحافظ في الفتح .

فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَيْن^(١) ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا ، قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء ، قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فألقى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأُنثى ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم^(٢) وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجته امرأة منهم ، ومات أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تركته^(٣) ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم ؟ فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يُغيّر عتبةَ بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسأل عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشئ ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول : غَيَّرَ عتبةَ بابك ، قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألتها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ،

(١) « الجرى » - بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد الياء : الرسول ، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير . سمي بذلك لأنه يجرى مجرى مرسله أو موكله . أو لأنه يجرى مسرعاً فى حوائجه .

(٢) « وأنفسهم » - قال الحافظ فى الفتح : « بفتح الفاء بلفظ أفعال التفصيل ، من النفاسة . أى كثرت رغبتهم فيه . وفى النهاية : « أى : أعجبهم وصار عندهم نفيساً . يقال : أنفستى فى كذا ، أى رغبتى فيه . »

وهذا الحديث صريح فى الدلالة التاريخية على أن العربية أقدم من إبراهيم وإسماعيل . ولعلها أقدم من السريانية ، والتى هى - يمتيناً - أقدم من العبرية ، التى هى لغة أبناء إسرائيل ، الذى هو يعقوب حفيد إبراهيم . بل لعل العربية الأولى هى أم هذه اللغات - التى تسمى « السامية » - كلها . خلافاً لمن جهل ذلك ، فجعلوا كل لفظة عربية توافق حرفاً من تلك اللغات معرباً عنها !!

(٣) بكسر الراء . أى : يتفقد حال ما تركه هناك .

قال : كيف أتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأئنتُ على الله عز وجل ، قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرباكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ، ولو كان لهم لدعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يُشَبِّتُ عتبةَ بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أنا شيخ حسنُ الهيئة ، وأئنتُ عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني : كيف عشنا ؟ فأخبرته أننا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرُك أن تثبت عتبةَ بابك ، قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نبلاً له تحت دَوْحَةٍ قريباً من ززم ، فلما رآه قام إليه فصنعاً كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رَفَعَا القواعدَ من البيت ، فجعل إسماعيل يَأْتِي بالحجارة وإبراهيم يَبْنِي ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان ” ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ” قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ” ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ” . ورواه عبد بن حميد مطولاً . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير مختصراً . ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مطولاً .

[ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر في معناه عن ابن عباس أيضاً ، من صحيح البخارى . ثم قال] : والعجبُ أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في المستدرک ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد رواه البخارى كما تَرَى !! [ثم ذكر أحاديث آخر ، عن علي وابن عباس ، وآثراً عن بعض التابعين . لم تَرِ داعياً للإطالة بذكرها . ثم قال] :

وقال البخارى رحمه الله : « قوله تعالى ” وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم “ : القواعد أساسه ، واحدُها : قاعدة ، والقواعد من النساء واحدتها : قاعدة » . ثم روى عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تَرَى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ فقلت : يا رسول الله ، ألا تردُّها على قواعد إبراهيم ؟ قال : لولا حِثٌّ ثانٍ قومك بالكفر ، فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعتُ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجرَ إلاَّ أن البيت لم يُتِمَّ على قواعد إبراهيم » . ورواه مسلم والنسائي . وروى مسلم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لولا أن قومك حديثُ عهد بجاهلية - أو قال : بكفر - لأنفقتُ كثرَ الكعبة في سبيل الله ، ولجعلتُ بابها بالأرض ، ولأدخلتُ فيها الحجرَ » .

وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير قال : حدثتني خالتي - يعنى عائشة - قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ، لولا قومك حديث عهد بشركٍ لهدمتُ الكعبة فألزقتها بالأرض ، ولجعلتُ لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، وزدتُ فيها ستة أذرع من الحجر ، فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة » .

ذكر بناء قريش الكعبة

بعد إبراهيم الخليل وقبل البعثة بخمس سنين^(١)

وقد نقل معهم رسول الله في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة ، صلواتُ الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . قال محمد بن إسحق في السيرة : ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنان الكعبة ، وكانوا يَهْمُونَ بذلك ليسقفوها ، ويهايون هدمها ، وإنما كانت رَضْمًا فوق القامة ،

(١) وانظر أيضاً في بناء الكعبة ما كتبه المؤلف في تاريخه ١ : ١٦٣ - ١٦٦ . و ٢ :

فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطيّ نجار ، فهاهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فقال : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بنى ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس ، ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جُحَيم وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ، ولبني عدى بن كعب بن لؤى ، وهو الحطيم ، حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفصوا إلى حجارة خضر كالأسنة . أخذ بعضها بعضاً ، ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، يعنى الحجر الأسود ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا ، وأعدوا للقتال ، فقررت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا « لعنة الدم » ، فكثرت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم — وكان عامئذ أسن قريش كلهم — قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلى ثوباً ، فأثى به ، فأخذ الركن ، يعنى الحجر الأسود ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم بنى عليه ، وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قبلَ أن ينزل عليه الوحيُ «الأمين». وكانت الكعبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثمانى عشر ذراعاً ، وكانت تُكسى القباطى . ثم كسيت بعدُ البرودَ ، وأولُ من كساها الديباجُ الحجاجُ بن يوسف^(١) .

قلت : ولم تزل على بناء قريش حتى احترقتْ فى أول إمارة عبد الله بن الزبير ، بعد سنة ستين ، وفى ولاية يزيد بن معاوية . لما حاصروا ابنَ الزبير . فحينئذ نقضها ابنُ الزبير إلى الأرض . وبنّاها على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل فيها الحجر ، وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً مُلصقين بالأرض ، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين ، ولم تزل كذلك مدةَ إمارته حتى قتله الحجاج ، فردّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك ، كما روى مسلم بن الحجاج فى صحيحه عن عطاء قال : « لما احترق البيت زمنَ يزيد بن معاوية ، حين غزاها أهل الشام . فكان من أمره ما كان ، تركه ابنُ الزبير حتى قدم الناسُ الموسمَ ، يريد أن يُحجّروهم - أو يُحزّبهم - على أهل الشام ، فلما صدّر الناسُ قال : يا أيها الناس ، أشيروا علىّ فى الكعبة : أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها ؟ قال ابن عباس : إنه قد خرق لى رأى فيها ، أرى أن تُصلح ما وهى منها وتدع بيتاً أسلمَ الناسُ عليه ، وأحجاراً أسلمَ الناسُ عليها ، وبُعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدُهم احترق بيته ما رضى حتى يجدّده ، فكيف بيتُ ربكم عز وجل ؟ ! إني مستخيرُ ربى ثلاثاً ثم عازمٌ على أمرى ، فلما مضت ثلاثٌ أجمع رأيه على أن ينقضها ، فتحامها الناسُ أن ينزلَ بأول الناس يصعد فيه أمرٌ من السماء ، حتى صعدَه رجلٌ فألقى منه حجارةً ، فلما لم يره الناسُ أصابه شيءٌ تابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض ، فجعل ابنُ الزبير أعمدةً فستر عليها الستورَ حتى ارتفع بناؤه ، وقال ابن الزبير : إني سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : إنَّ النبي

(١) كلام ابن إسحق فى السيرة طويل . انظر سيرة ابن هشام ، ص : ١٢٢ - ١٢٦ (طبعة أوربة) . وقد اختصر الحافظ المؤلف هنا بعضه . واختصرت أنا كثيراً منه : اقتضت على الضرورى المناسب هنا .

صلى الله عليه وسلم قال : لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوينى على بنائه ، لكنتُ أدخلتُ فيه من الحجر خمسة أذرع ، ولجعلت له باباً يدخل الناسُ منه ، وباباً يخرجون منه ، قال : فأنا أجد ما أنفقُ ولستُ أخاف الناسَ ، قال : فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى أسساً نظر الناسُ إليه ، فبنى عليه البناء ، وكان طولُ الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، فلما زاد فيه استقصره ، فزاد فى طوله عشرة أذرع وجعل له بابين : أحدهما يُدخل منه ، والآخر يُخرج منه ، فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاجُ إلى عبد الملك يخبره بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍ نظر إليه العدولُ من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك : إننا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شيء ! أما ما زاده فى طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه وسدّ الباب الذى فتحه ، فنقضه وأعادّه إلى بنائه . وقد رواه النسائي عن عائشة بالمرفوع منه ، ولم يذكر القصة .

وقد كانت السنة إقراراً ما فعله عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، لأنه هو الذى ودّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن خشى أن تنكره قلوب بعض الناس لحدائثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر . ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وددنا أنا تركناه وما تولّى . فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبي قزعة : أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ! يقول : سمعتها تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة لولا حدّ ثان قومك بالكفر لنقضتُ الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر ، فإن قومك قصّروا فى البناء » ، فقال الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فلمنى سمعت أم المؤمنين تحدث هذا ، قال : لو كنتُ سمعته قبل أن أهمله لتركته على ما بنى ابن الزبير .

فهذا الحديث كالمنقطع به إلى عائشة أم المؤمنين ، لأنه قد روى عنها من

طرق صحيحة متعددة : عن الأسود بن يزيد ، والحريث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير . فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير ، لو ترك لكان جيداً .

ولكن بعد ما ترك الأمر إلى هذا الحال فقد كره العلماء أن يغيّر عن حاله . كما ذكر عن أمير المؤمنين هرون الرشيد أو أبيه المهدي : أنه سأل الإمام مالكاً عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير ؟ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلاّ هدمها ، فترك ذلك الرشيد . نقله عياض والنواوي . ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان ، إلى أن يُخربها ذو السويقتين من الحبشة ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » . وعن عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كأني به أسود أفحج يقلعها حجراً حجراً » . رواه البخاري . وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ، ويسلبها حليتها ، ويجردّها من كسوتها ، ولكأني أنظرُ إليه أصيلع أفيدع ، يضرب عليها بمسحاته ومِعْوَله » ^(١) . الفدع : زيع بين القدم وعظم الساق . وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيُحْجَجَنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج » .

وقوله تعالى حكايةً لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ” ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم “ قال ابن جرير : يعنيان بذلك : واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك ، ولا في العبادة غيرك . ” ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك “ قال السدّي : يعنيان العرب . قال

ابن جرير : والصواب أنه يعمّ العرب وغيرهم ، لأنّ من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾ . قلت : وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى ، فإن تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم . والسياق إنما هو فى العرب ، ولهذا قال بعده : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ الآية . والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بُعث فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ . ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود ، لقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً ﴾ . وغير ذلك من الأدلة القاطعة . وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين فى قوله : ﴿ والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّةً أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ . وهذا التقدير مرغوب فيه شرعاً ، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحبّ أن يكون من صُلبه من يعبدُ الله وحده لا شريكَ له . ولهذا لما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريّتى . قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ وهو قوله : ﴿ واجنبني وبنىّ أن نعبد الأصنام ﴾ . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . « وأرنا مناسكنا » قال عطاء : أخرجها لنا وعلمناها . وروى أبو داود الطيالسى عن ابن عباس قال : « إن إبراهيم لما أرى المناسك عَرَضَ له الشيطان عند المسعى ، فسابقه إبراهيم ، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى ، فقال : مناخُ الناس هذا . فلما انتهى إلى جمرّة العقبة تعرّض له الشيطان ، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ذهب ، ثم أتى به إلى الجمرّة الوسطى ، فعَرَضَ له الشيطان ، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ذهب ، ثم أتى به إلى الجمرّة القصوى ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ذهب ، فأتى به جمعاً ، فقال : هذا المشعر ، ثم

أتى به عرفة ، فقال : له جبريل : أعرفت ؟ ^(١) .

﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٢٩)

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم — أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أى من ذرية إبراهيم . وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين ، إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن ، كما روى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني عند الله لخماتم النبيين وإن آدم لم يُسجد لى في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بنى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » ^(٢) . وروى أيضاً عن أبى أمامة ، قال : « قلت : يا رسول الله ، ما كان أول بدء أمرى ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بنى ، ورأت أمى أنه خرج منها نوراً أضاءت له قصور الشام » ^(٣) . والمراد : أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام . ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً ، حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً ، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام ، حيث قام فى بنى إسرائيل خطيباً وقال : ﴿ إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ . ولهذا قال فى الحديث « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم » . وقوله « ورأت أمى أنه

(١) هو قطعة من حديث طويل ، رواه الطيالسى فى مسنده : ٢٦٩٧ . ورواه أحمد فى المسند أيضاً : ٢٧٠٧ ، ٢٧٠٨ .

(٢) المسند : ١٧٢١٧ ، ١٧٢١٨ ، ١٧٢٣٠ . وأسانيده صحاح . ورواه الطبرى : ٢٠٧١ - ٢٠٧٣ . وفصلنا القول فى تخريجه هناك .

(٣) المسند : ٥ : ٢٦٢ (حلى) . ورواه أيضاً الطيالسى : ١١٤٠ . وكذلك رواه الطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى — كما فى الدر المنثور ١ : ١٣٩ . وفى إسناد الفرج بن فضالة ، وهو ضعيف . ولكنه يصلح شاهداً للحديث الذى قبله .

خرج منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام» - قيل : كان مناماً رآته حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارةً إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام . ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها . ولهذا جاء في الصحيحين : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك » . وفي صحيح البخاري : « وهم بالشام » .

وقوله تعالى « ويعلمهم الكتاب » يعني : القرآن « والحكمة » يعني : السنة . قاله الحسن وقتادة ومقاتل وغيرهم . وقيل : الفهم في الدين . ولا منافاة . « ويزكيهم » قال ابن عباس : يعني طاعة الله والإخلاص . وقال محمد بن إسحق : يعلمهم الخير فيفعلوه ، والشر فيتقوه ، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ، ليستكثروا من طاعته ، ويحذروا ما يسخطه من معصيته . وقوله « إناك أنت العزيز الحكيم » أي : العزيز الذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها ، لعلمه وحكمته وعدله .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ (١٣٢)

يقول تبارك وتعالى ردّاً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله ، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء ، فإنه جرّد توحيدَ ربه تبارك وتعالى ، فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، ومخالف في ذلك سائرُ قومه ، حتى تبرأ من أبيه فقال : ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني براء مما تعبدون *

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١٣٠﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَإِنْ إِبْرَاهِيمُ لِأَوْأَاهُ حَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنْ إِبْرَاهِيمُ كَانَ أُمَّةً قَانَتْ لَهُ خَنيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . ولهذا وأمثاله قال تعالى ” ومن يرغب عن ملة إبراهيم “ أى : عن طريقته ومنهجه ، فيخالفها ويرغب عنها ” إلا من سَفِهَ نفسه “ أى : ظلم نفسه بسفَهه وسوء تدييره ، بتركه الحقَّ إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصْطَفَى في الدنيا للهداية والرشاد ، من حادثة سنَّه إلى أن اتخذهُ الله خليلاً ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء — فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طُرُقَ الضلالة والغنى ، فأى سفه أعظمُ من هذا ؟ ! أم أى ظلم أكبرُ من هذا ؟ ! كما قال تعالى : ﴿ إِنْ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال أبو العالية وقتادة : نزلت هذه الآية في اليهود ، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أخذوه . ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنْ أَوَّلَى النَّاسُ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى ” إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين “ أى : أمره تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقَدَرًا . وقوله ” ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب “ أى : وصى بهذه الملة ، وهى الإسلام لله ، لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم : ” يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون “ أى : أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإنَّ المرء يموتُ غالباً على ما كان عليه ، ويُبْعَثُ على ما مات عليه . وقد أجرى الله الكريمُ عادته بأنَّ مَنْ قصدَ الخيرَ وفُقِّ له ويُسرَّ عليه ، ومن نَوَى صالحاً ثبت عليه . وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَعْمَلْ لِيَعْمَلَ أَهْلُ

الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها « (١) - لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث : « فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس » (٢) . وقد قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا نَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٤)

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل ، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال لهم ” ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق “ . وهذا من باب التغليب ، لأن إسماعيل عمه . ” إلهاً واحداً “ أى : نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره . ” ونحن له مسلمون “ أى : مطيعون خاضعون ، كما قال تعالى : ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ . والإسلام هو مائة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد فى المسند : ٣٦٢٤ ، من حديث ابن مسعود . وكذلك رواه البخارى ومسلم وغيرهم . وهو الحديث الرابع من الأربعين النووية .

(٢) هذا جزء من حديث آخر ، عن سهل بن سعد . وإنما اعتبره المؤلف الحافظ من بعض روايات الحديث الذى قبله - باعتبار المعنى ، لا باعتبار اتحاد الصحابي . وحديث سهل بن سعد رواه مسلم ٢ : ٢٩٩ - ٣٠٠ مختصراً . ورواه البخارى ٦ : ٦٦ . ومسلم ١ : ٤٣ - مطولاً فى قصة .

من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴿ . والآيات فى هذا كثيرة ﴾ والأحاديث ، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معشر الأنبياء أولادُ عِلَّاتٍ ، ديننا واحدٌ » (١) .

وقوله تعالى " تلك أمة قد خلت " أى مَضَتْ " لها ما كسبت ولكم ما كسبتم " أى : أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم " ولا تسئلون عما كانوا يعملون " .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٣٥)

روى محمد بن إسحق عن ابن عباس قال : « قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله عز وجل " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا " . » وقوله " قل بل ملة إبراهيم حنيفاً " أى : لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، أى : مستقيماً . وقال : مجاهد : مخلصاً .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦)

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلاً ، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم

(١) هو مختصر من معنى حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند مراراً ، منها : ٨٢٣١ ، ٩٢٥٩ ، ٩٦٣٠ - ٩٦٣٢ ، من حديث أبى هريرة . ورواه الشيخان وغيرها .

بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أولئك هم الكافرون حقاً ، الآية . وروى البخارى عن أبى هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا ” آمنا بالله وما أنزل إلينا “ الآية »^(١) . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ” آمنا بالله وما أنزل إلينا “ ، الآية ، والأخرى بـ ” آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون “ . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل ، كالقبائل فى بنى إسماعيل .

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿^(١٣٨)

يقول تعالى ” فإن آمنوا “ يعنى : الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ” بمثل ما آمنتم به “ أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ” فقد اهتدوا “ أى : فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ” وإن تولوا “ أى : عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ” فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله “ أى : فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ” وهو السميع العليم “ .

روى ابن أبى حاتم عن زياد بن يونس ، حدثنا نافع بن أبى نعيم ، قال : أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان ليصلحه ، قال زياد : فقلت له : إن الناس ليقولون إن مصحفه كان فى حجره حين قُتل ، فوقع الدم على

” فسيكفيكم الله وهو السميع العليم “ . فقال نافع : بَصُرْتُ عَيْنِي بِالْدمِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ^(١) .

وقوله ” صبغة الله “ قال ابن عباس : دين الله . وانتصاب ” صبغة الله “ إما على الإغراء كقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ ﴾ . أى : ألزموا ذلك عليكموه . وقال بعضهم بدلاً من قوله ” ملة إبراهيم “ . وقال سيبويه : هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله ” آمناً بالله “ كقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ .

﴿ قُلْ أَنَحْنُ اجْتَوَيْنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ، قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين — ” قل أتحاجوننا في الله “ أى : أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد ، واتّباع أوامره وترك زواجه ” وهو ربنا وربكم “ المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ؟ ! ” ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم “ أى : نحن بُرَاءءء منكم ومما تعبدون ، وأنتم بُرَاءءء منا . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مَا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ . وقال تعالى

(١) إسناده صحيح إلى نافع . ونافع : هو ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، أحد القراء السبعة المشهورين . والراوى عنه هو تلميذه في القراءة : زياد بن يونس الحضرمي الإسكندراني ، أحد الأثبات الثقات . كان يلقب « سوسة العلم » . مات بمصر سنة ٢١١ .

إخباراً عن إبراهيم : ﴿ وحاجه قومه قال أتحتاجونى فى الله وقد هدّان ، ولا أخافُ ما تشركون به إلاّ أن يشاءَ ربى شيئاً ، وسعَ ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ألم ترّ إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ﴾ ، الآية . وقال فى هذه الآية الكريمة ” ونحن له مخلصون “ أى : نحن بُرّاءُءُ منكم كما أنتم بُرّاءُءُ منا ، ونحن له مخلصون ، أى : فى العبادة والتوجه . ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية أو النصرانية ، فقال ” قل أنتم أعلم أم الله “ يعنى : بل الله أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى . كما قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ، الآية والتى بعدها . وقوله ” ومن أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله “ قال الحسن البصرى : كانوا يقرؤون فى كتاب الله الذى أتاهم أن الدين الإسلام ، وأن محمداً رسول الله ، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا بُرّاءُءُ من اليهودية والنصرانية ، فشهد الله بذلك ، وأقروا على أنفسهم لله ، فكتموا شهادةَ الله عندهم من ذلك . وقوله ” وما الله بغافل عما تعملون “ تهديد ووعيد شديد ، أى : علمه محيط بعملكم وسيجزىكم عليه . ثم قال تعالى ” تلك أمة قد خلت “ أى : قد مضت ” لها ما كسبت ولكم ما كسبتم “ أى : لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ” ولا تستلون عما كانوا يعملون “ وليس يُغنى عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله الذى بعث مبشرين ومنذرين . فإنه من كفر بنبيّ واحد فقد كفر بسائر الرسل ، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ، ورسول رب العالمين ، إلى جميع الإنس والجن من المكلفين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٤٢)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ
يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قيل : المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب . وقيل : أحبار يهود . وقيل :
المنافقون . والآية عامة في هؤلاء كلهم . والله أعلم . وروى البخارى عن البراء :
« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ،
أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبيلَ البيت ، وأنه صلى أول
صلاة صلاتها صلاة العصر وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه ،
فر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليتُ مع النبي
صلى الله عليه وسلم قبيلَ مكة ، فدأروا كما هم قبل البيت ، وكان الذى قد
مات على القبلة قبيلَ أن تحول قبل البيت رجلاً قُتلوا ، لم تدر ما نقول فيهم ،
فأنزل الله ” وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤف رحيم “ .
ورواه مسلم ^(١) . وروى ابن أبى حاتم عن البراء قال : « كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان
يحبُّ أن يُوجَّه نحوَ الكعبة ، فأنزل الله : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء
فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطرَ المسجد الحرام ﴾ ، قال : فوجَّه
نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس ، وهم اليهود : ” ما ولاهم عن قبلتهم التي
كانوا عليها “ . فأنزل الله : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يُهدى من يشاء إلى صراط
مستقيم ﴾ ^(٢) .

(١) البخارى ٨ : ١٣٠ (فتح) . ومسلم ١ : ١٤٨ . ورواه أحمد ٤ : ٢٨٣ (حلبى) .
والبخارى أيضاً ١ : ٨٩ - ٩٠ ، ٤٢١ - ٤٢٢ ، و ١٣ : ٢٠٢ . وابن سعد فى الطبقات
٥ / ٢ / ١ . والطبرى ٢١٥٣ ، ٢٢٢٢ .
(٢) إسناده صحيح .

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة . وحاصل الأمر : أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلى بين الركنتين ، فيكون بين يديه الكعبة ، وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس . فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً ، وكان يكثر الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك ، وأُمِر بالتوجه إلى البيت العتيق . فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وأعلمهم بذلك . وكان أول صلاة صلاتها إليها صلاة العصر ، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء . وأما أهل قباء فلم يباغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني . كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال : « بينما الناس بقباء في صلاة الصبح ، إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة » (١) . وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله وإبلاغه ، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء . والله أعلم .

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتيابٌ وزيفٌ عن الهدى وتخبيط وشكٌ ، وقالوا " ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " أى : قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ؟ فأنزل الله جوابهم في قوله " قل لله المشرق والمغرب " أى : الحكم والتصرف والأمر كله لله ، حيثما تولوا فثم وجه الله ، و ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ﴾ . أى : الشأن كله في امتثال أوامر الله ، فحيثما وجهنا توجهنا ، فالطاعة في امتثال أمره ، ولو وجهنا في كل يوم مراتٍ إلى جهات متعددة ، فنحن عبيده وفي تصرفه وخذ أمه ، حيثما وجهنا

(١) البخارى ١ : ٤٢٤ ، و ٨ : ١٣١ (فتح) . مسلم ١ : ١٤٨ . ورواه أحمد في

المستدررأ . منها : ٤٦٤٢ ، ٤٧٩٤ ، ٥٨٢٧ ، ٥٩٣٤ .

توجهنا . وهو تعالى له بعبدته ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمنته عناية عظيمة ، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن ، وجعل توجيههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له ، أشرف بيوت الله في الأرض ، إذ هي بناية إبراهيم الخليل عليه السلام . ولهذا قال : ” قل لله المشرق والمغرب ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم “ . وقد روى الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى في أهل الكتاب - : « إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضادوا عنها . وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضادوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام ” آمين “ » (١) . وقوله تعالى ” وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً “ يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واختارناها لكم لنجعلكم خيار الأمم ، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل . والوسط ههنا : الحيار والأجود ، كما يقال في قریش : أوسط العرب نسباً وداراً ، أى : خيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاً في قومه ، أى : أشرفهم نسباً . ومنه « الصلاة الوسطى » التي هي أفضل الصلوات ، وهي العصر ، كما ثبت في الصحاح وغيرها . ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بكل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب ، كما قال تعالى : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول محمد وأمنته . قال : فذلك قوله ” وكذلك جعلناكم أمة وسطاً “ . قال : الوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم » . رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن

(١) المسند ٦ : ١٣٤ - ١٣٥ (حاجى) ، في حديث طويل . وإسناده صحيح .

ماجة^(١) . وروى الحاكم وابن مردويه - واللفظ له - من حديث مصعب بن ثابت ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن جابر بن عبد الله ، قال : « شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازةً في بني سَلِمْة ، وكنت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعم المرءُ كان ، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان ، وأثنوا عليه خيراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت بما تقول ؟ فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر . فأما الذي بدا لنا منه فذاك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وَجِبَتْ ، ثم شهد جنازةً في بني حارثة ، وكنت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : يا رسول الله ، بشئ المرءُ كان ، إن كان لفظاً غليظاً ، فأثنوا عليه شراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم : أنت بالذي تقول ؟ فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قرأ ” وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً “ . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢) . وروى الإمام أحمد عن أبي الأسود أنه قال : « أتيت المدينة ، فوافقتها وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتاً ذريعاً ، فجلست إلى عمر بن الخطاب ، فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيراً ، فقال : وجبت ، ثم مرّ بأخرى فأثنى عليها شراً ، فقال عمر : وجبت ، فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما مسلم شهد له أربعةٌ بخير أدخله الله الجنة ، قال : فقلنا : وثلاثة ؟ قال : وثلاثة ، قال : فقلنا : واثنان ؟ قال : واثنان ، ثم لم نسأله عن

(١) المسند : ١١٣٠٣ . والبخارى ٦ : ٢٦٤ ، و ٨ : ١٣٠ - ١٣١ ، و ١٣ : ٢٦٦ . ورواه الطبري : ٢١٧٩ - ٢١٨١ . وذكره ابن كثير هنا من رواية أخرى لأحمد أيضاً . وهي في المسند : ١١٥٧٩ .

(٢) المستدرک ١ : ٢٦٨ .

الواحد» . وكذا رواه البخارى والترمذى والنسائى^(١) . وروى ابن مردويه عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبناءة يقول : « يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم ، قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيئ ، أنتم شهداء الله فى الأرض » . ورواه الإمام أحمد وابن ماجه^(٢) .

وقوله تعالى ” وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله “ يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجهَ أولاً إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنه إلى الكعبة - ليظهرَ حالُ من يتبعك ويطيعك ويستقبلُ معك حيثما توجهتَ ” من ينقلب على عقبيه “ أى : مرتدّاً عن دينه ” وإن كانت لكبيرةً “ أى : هذه الفعلية ، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أى : وإن كان هذا لأمرًا عظيمًا فى النفوس ” إلا على الذين هدى الله “ قلوبهم ، وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأنّ كلَّ ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه ، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة الثامة والحجة البالغة فى جميع ذلك . بخلاف الذين فى قلوبهم مرض ، فإنه كلّما حدث أمرٌ أحدث لهم شكّاً كما يحصل للذين آمنوا إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال الله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورةٌ فهم من يقول أيكّم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

(١) أبو الأسود : هو الدؤل . والحديث فى المسند برقم : ١٣٩ .

(٢) المسند : ١٥٥٠٦ . وابن ماجه : ٤٢٢١ . وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه :

« إسناده صحيح ، رجاله ثقات . وليس لأبى زهير - هذا - عند ابن ماجه سوى هذا الحديث . وليس له شيء فى بقية الكتب الستة » . أقول : وليس له فى مسند أحمد غيره أيضاً . وقد أشار إليه البخارى فى الكنى رقم : ٢٨٦ ، فى ترجمة أبى زهير .

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه في ذلك ، وتوجّه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب - من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار : هم الذين صلّوا القبليتين . [وأشار المؤلف الحافظ إلى حديث ابن عمر في قصة أهل قباء الذي مضى من رواية الشيخين ، ص : ٢٦٢ ، ثم قال] : ورواه الترمذى ، وعنده : « أنهم كانوا ركوعاً فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع » . وكذا رواه مسلم عن ثابت عن أنس مثله ^(١) . وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله ، وانقيادهم لأوامر الله عز وجل . رضى الله عنهم أجمعين .

وقوله " وما كان الله ليضيع إيمانكم " أى : صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ، لا يضيع ثوابها عند الله . وفي الصحيح عن البراء قال : « مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى " وما كان الله ليضيع إيمانكم " » . ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه ^(٢) . " إن الله بالناس لرؤوف رحيم " وفي الصحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبئية قد فُرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيّاً من السبئية أخذته فألصقت به صدرها ، وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألصقت به ثديها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتروُن هذه طارحةً ولدها في النار وهى تقدر على أن لا تطرحه ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فوالله لَلهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها » ^(٣) .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ »

(١) أما رواية الترمذى ٤ : ٧٠ فإنها مختصرة . فكان الحافظ المؤلف يشير إليها بالمعنى . وأما رواية مسلم من حديث أنس - فهي في صحيحه ١ : ١٤٨ . ولقد مضى أيضاً ، ص : ٢٦١ من لفظ البخارى في حديث البراء هذا المعنى نفسه : أنهم كانوا راكعين : « فداروا كما هم قبل البيت » . (٢) انظر في حديث البراء - البخارى ١ : ٨٩ - ٩٠ ، و ٨ : ١٣٠ (فتح) وفي حديث ابن عباس - الترمذى ٤ : ٧٠ .

(٣) رواه البخارى ١٠ : ٣٦٠ - ٣٦١ . ومسلم ٢ : ٣٢٤ - ٣٢٥ ، كلاهما من حديث عمر بن الخطاب .

وَجَهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ،
وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

قال ابن عباس : كان أول ما نُسخ من القرآن القبلة ، وذلك : أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره
الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله صلى الله
عليه وسلم بضعة عشر شهراً ، وكان يحبّ قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله ،
وينظر إلى السماء ، فأنزل الله ” قد نرى قلب وجهك في السماء “ إلى قوله :
” فولوا وجوهكم شطره “ فارتاب من ذلك اليهود ، وقالوا : ﴿ ما ولاّهم عن
قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ﴾ ، وقال : ﴿ فأينما تولوا فثمّ وجه
الله ﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع
الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ . وروى الحاكم عن يحيى بن قمطة قال :
« رأيت عبد الله بن عمرو جالساً في المسجد الحرام بإزاء الميزاب ، فتلا هذه الآية
” فلنولينك قبلة ترضاها “ قال : نحو ميزاب الكعبة . ثم قال : صحيح الإسناد
ولم يخرجناه . ورواه ابن أبي حاتم ^(١) . وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمة وغيرهم .
وكما تقدم في الحديث الآخر : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » ^(٢) . وروى النسائي
عن أبي سعيد بن المعلّى ، قال : « كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، [فنمرّ على المسجد] ^(٣) فنصلى فيه ، فمررنا يوماً ورسول الله
صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر ، فقلت : لقد حدث أمر ، فجلست ،

(١) المستدرک ٢ : ٢٦٩ . ووافقه الذهبي على تصحيحه . وروى الحديث « يحيى بن قمطة » :
تابعي ثقة . وأبوه « قمطة » بالقاف والميم والطاء ، كما في الطبري وتفسير عبد الرزاق (المخطوط)
ومراجع الترجمة . ولكن وقع في مطبوعة ابن كثير هنا « قطة » بدون الميم . وهو خطأ . وثبت على الصواب
في مخطوطة الأزهر ، وكذلك ثبت على الصواب في مخطوطة مختصر الذهبي للمستدرک - التي عندي .
والحديث رواه الطبري : ٢٢٤٧ - ٢٢٤٩ . بنحوه . وقد فصلنا القول فيه هناك .

(٢) مضى ، ص : ٢٢٠

(٣) الزيادة من الأزهرية .

فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ” قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها “ حتى فرغ من الآية ، فقلت لصاحبي : تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكون أول من صلى ، فتوارينا فصايناهما ، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم وصلى للناس الظهر يومئذ « (١) .

وقوله ” وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره “ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه ، وقلبه نحو الكعبة . وكذا في حال المسافعة في القتال ، يصلى على كل حال . وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده ، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وقوله ” وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم “ أى : واليهود — الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس — يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها ، بما في كتبهم عن أنبيائهم ، من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته . وما خصه الله تعالى به وشرّفه من الشريعة الكاملة العظيمة . ولكن أهل الكتاب يتكاثمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ، ولهذا يهدّهم تعالى بقوله ” وما الله بغافل عما يعملون “ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٥)

(١) هذا من السنن الكبرى للنسائي . وأما الذى فى السنن الصغرى ١ : ١١٩ - ١٢٠ فإنه مختصر هكذا : « كنا نغدو إلى السوق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنمر على المسجد فنصلى فيه . » وأما هذا المطول ، فقد ذكره الهيثمى فى الزوائد ٢ : ١٢ - ١٣ ، بنحوه ، ونسبه للبراز والطبرانى فى الكبير .

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . ولهذا قال ههنا ” ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك “ . وقوله ” وما أنت بتابع قبلتهم “ إخبار عن شدة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم متمسكون بآرائهم وأهوائهم - فهو أيضاً متمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله . وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس لأنها قبلة اليهود - وإنما ذلك عن أمر الله تعالى . ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى . فإن العالم الحجة عليه أقوى من غيره . ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد الأمة ” ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين “ .

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتَئِبِينَ ﴿ ١٤٧ ﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدكم ولده . والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صغير : ابنك هذا ؟ قال : نعم يا رسول الله ، أشهد به ، قال : أما إنه لا يخني عليك ولا تخني عليه » (١) . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمي ” ليكتمون الحق “ أى : ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ” وهم يعلمون “ . ثم ثبت تعالى نبيه والمؤمنين ، وأخبرهم

(١) رواه أحمد في المسند : ٧١٠٦ ، من حديث أبي ريثة . ورواه بند ذلك بأسانيد كثيرة . وقد فصلنا القول في تخريجه هناك .

بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذى لا مِرْيَةَ فيه ولا شك ، فقال ” الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين “ .

﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ، إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٤٨)

قال أبو العالية : لليهودى وجهة هو مولّيتها ، وللنصرانى وجهة هو مولّيتها ، وهذاكم أنتم — أيها الأمة — إلى القبلة التى هى القبلة . وروى عن مجاهد وعطاء نحو هذا . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ . وقال ههنا ” أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ، إن الله على كل شىء قدير “ أى : هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِثْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٠)

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض . وقوله ” لئلا يكون للناس عليكم حجة “ أى : أهل الكتاب ، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين . أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس . وهذا أظهر . وقوله ” إلا الذين ظلموا منهم “ يعنى : مشركى قريش . ووجهَ بعضهم حجة الظلمة — وهى داحضة — أن قالوا : إن هذا

الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم ، فإن كان توجُّهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم ، فلم يرجع عنه ؟ والجواب : أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة ، فأطاع ربه تعالى في ذلك . ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة ، فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً . فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيعٌ لله في جميع أحواله ، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين ، وأتمته تبعٌ له . وقوله ” فلا تخشوهم واخشوني “ أى : لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين ، وأفردوا الخشية لى . فإنه تعالى هو أهل أن يُخشى منه . وقوله ” ولأتم نعمتى عليكم “ عطف على ” لئلا يكون للناس عليكم حجة “ أى : لأتم نعمتى عليكم فيما شرعته لكم من استقبال الكعبة ، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوها ” ولعلكم تهتدون “ أى : إلى ما ضللت عنه الأمم ، هديناكم إليه ، وخصصناكم به . ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٥١)
﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١٥٢)

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، ويزكِّيهم ، أى : يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب ، وهو القرآن ، والحكمة وهي السنة ^(١) ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون . فكانوا في الجاهلية الجهلاء يَسْفَهون بالقول الفَرَى ^(٢) ، فانتقلوا ببركة رسالته ، ويؤمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجاياء العلماء . فصاروا أعمق

(١) تفسير الحكمة بالسنة هو الحق الصحيح . وهو الذى اختاره الإمام الشافعى ، ونصره بأقوى الدلائل والحجج . انظر كتاب الرسالة للشافعى بتحقيقنا ، في الفقرات : ٢٤٥ - ٢٥٤ .
(٢) « الفرى » - بكسر الفاء : جمع فرية . ووصف « القول » - وهو مفرد - بالجمع ، يوجه بأنه في معنى الجمع ، لأنه يصدق على الكلام الكثير والقليل . وفي المطبوعة « بالمقول القراء » ! ! وهو لا معنى له .

الناس علماء ، وأبرّهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً ، وأصدقهم لجة . وقال تعالى : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴾ ، الآية . وذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة . فقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ . قال ابن عباس : يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم . ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره . فقال : ” فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون “ . قال مجاهد في قوله ” كما أرسلنا فيكم رسولا منكم “ يقول : كما فعلتُ فاذكروني . وروى ابن أبي حاتم عن مكحول الأزدي . قال : « قلت لابن عمر : أرايتَ قاتلَ النفسِ وشاربَ الخمر والسارق والزاني يذكر الله ؟ وقد قال الله تعالى ” فاذكروني أذكركم “ ؟ قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت » ^(١) . وعن سعيد بن جبير : اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ، وفي رواية : برحمتي . وفي الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » ^(٢) . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة - أو قال : في ملأ خيرٍ منهم ، وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشى أتيتك أهولاً » . صحيح الإسناد . وأخرجه البخاري ^(٣) .

(١) إسناده صحيح . ومكحول الأزدي - هذا : هو العتكي البصري . وهو تابعي ثقة . وهو غير « مكحول الشامي » التابعي الكبير . وهذا الذي قال ابن عمر حق ، ينطبق تماماً على ما يصنع أهل الفسق والمجون في عصرنا ، من ذكر الله - سبحانه وتعالى - في مواطن فسقهم وفجورهم ، وفي الأغاني الداعرة ، والتثليل الفاجر الذي يزعّمونه تربية وتعليماً ، وفي قصصهم المفتري ، الذي يجعلونه أنه هو الأدب وحده أو يكادون ، وفي تلاعبهم بالدين ، بما يسمونه « القصائد الدينية » و « الابتهالات » ، التي يتلاعب بها الجاهلون من القراء ، يتغنون بها في مواطن الخشوع وأوقات التخلّي للعبادة ، حتى لبسوا على عامة الناس شعائر الإسلام . فكل أولئك يذكرون الله فيذكركم الله بلعنته حتى يسكتوا .

(٢) رواه أحمد في المسند : ٧٤١٦ ، بنحوه ، من حديث أبي هريرة . ورواه أيضاً الشيخان ، كما بينا في شرح المسند .

(٣) المسند : ١٢٤٣٢ .

وقوله تعالى " واشكروا لى ولا تكفرون " أمر الله تعالى بشكره ، ووعده على شكره بمزيد الخير فقال : ﴿ ولإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابی لشديد ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبى رجاء العطاردى قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مِطْرَفٌ من خَزٍّ لم تَرَهُ عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أنعم الله عايه نعمةً فإن الله يحب أن يَرى أثر نعمته على خلقه » ^(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٣)
وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَسَكِن
لَا تَشْعُرُونَ ﴿ (١٥٤)

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر ، شرع فى بيان الصبر ، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة . فإن العبد إمّا أن يكون فى نعمة فيشكر عليها ، أو فى نقمة فيصبر عليها . كما جاء فى الحديث : « عجباً للؤمن ! لا يقضى الله له قضاءٌ إلاّ كان خيراً له ، إن أصابته سَرَاءٌ فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراءٌ فصبر كان خيراً له ^(٢) . وبين تعالى أن أجود ما يُستعان به على تحمل المصائب الصبرُ والصلاةُ ، كما تقدّم فى قوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين ﴾ . وفى الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزّبه أمر صلى ^(٣) . والصبر صبران : فصبرٌ على ترك المحارم والمآثم ، وصبرٌ على فعل الطاعات والقربات ، والثانى أكثر ثواباً ، لأنه المقصود .

(١) المسند ج ٤ : ص ٤٣٨ (حلبى) . ومعناه ثابت أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، فى المسند : ٦٧٠٨ . و « المطرف » ، قال ابن الأثير : « بكسر الميم وفتحها وضمها : الثوب الذى فى طرفيه علمان . والميم زائدة » .

(٢) رواه أحمد فى المسند ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، و ٦ : ١٥ ، ١٦ (حلبى) ، من حديث صهيب . وكذلك رواه مسلم ٢ : ٣٩٢ .

(٣) عند الآية : ٤٥ ، ص : ١٤٣ - ١٤٤ .

وقوله تعالى " ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ " : يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون . كما جاء في صحيح مسلم : « إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطَّلَعَ عليهم ربك اطلّاعةً ، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا ، وأى شئ نبغى وقد أعطينا ما لم تُعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يُسألوا ، قالوا : نريد أن تردّدنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ، لما يروون من ثواب الشهادة ، فيقول الرب جل جلاله : إني كتبتُ أنهم إليها لا يُرجعون » ^(١) . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، عن الإمام الشافعي ، عن الإمام مالك ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَسْمَةُ المؤمن طائرٌ تَعْلُقُ في شجر الجنة ، حتى يَرْجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » ^(٢) - ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً ، وإن كان الشهداء قد خُصّصوا بالذكر في القرآن تشریفاً لهم وتكريماً وتعظيماً .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِمُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

أخبر تعالى أنه يبتلى عباده ، أى : يختبرهم ويمتحنهم ، كما قال تعالى :

(١) مسلم ٢ : ٩٨ بمعناه . وسيذكره المؤلف الحافظ بلفظ مسلم عند تفسير الآية : ١٧٠ من سورة آل عمران ، إن شاء الله . وقد رواه الطبري في التفسير : ٨٢٠٦ - ٨٢٠٨ . وفصلنا القول في تخريجه هناك .

(٢) المسند : ١٥٨٤٣ . وسيذكره المؤلف الحافظ عند الآية : ١٧٠ من آل عمران ، إن شاء الله . وقوله « تعلق » : هو بفتح أوله وضم ثالته ، من باب « قتل » . قال ابن الأثير : « أى تأكل . وهو في الأصل للإبل إذا أكلت الغضاه . يقال : علقت تعلق علوقاً . فنقل إلى الطير » .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ . فتارةً بالسَّراء ، وتارةً بالضرَّاء من خوف وجوع ، كما قال تعالى : ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ . فإنَّ الجائع والخائف كلُّ منهما يَظهر ذلك عليه . ولهذا قال ﴿لباس الجوع والخوف﴾ . وقال ههنا ”بشيء من الخوف والجوع“ أى : بقليل من ذلك ”ونقص من الأموال“ أى : ذهاب بعضها ”والأنفُس“ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ”والثمرات“ أى : لا تُغلَّ الحداثقُ والمزارع كعادتها . وكلُّ هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه ، ومن قنَّط أحلَّ به عقابه . ولهذا قال تعالى ”وبشر الصَّابرين“ ثم بيَّن تعالى مَنْ الصَّابرون الذين شكرهم ، فقال ”الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون“ أى : تسلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك لله يتصرفُ في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يَضِيع لديه مثقالُ ذرَّةٍ يومَ القيامة . فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيدُه وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال ”أولئك عليهم صلوات من ربهم“ أى : ثناء من الله عليهم ”ورحمة“ . قال سعيد بن جبیر : أى : أَمَنَةٌ من العذاب ”وأولئك هم المهتدون“ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : «نعم العِدْلان ونعمت العِلَّاءة“ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة“ فهذان العِدْلان ”وأولئك هم المهتدون“ فهذه العِلَّاءة“ . وهى ما يوضع بين العدلين ، وهى زيادة في الحمل^(١) . وكذلك هؤلاء ، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع ، وهو قول ”إنا لله وإنا إليه راجعون“ عند المصائب - أحاديثُ كثيرة . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أم سلمة ، قالت : «أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً سُرْتُ به ، قال : لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبةٌ فيسترجع عند مصيبتِهِ ثم يقول : اللهم أَجِرْنِي في

(١) حديث عمر - هذا - رواه الحاكم في المستدرک ٢ : ٢٧٠ ، وصححه على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي . و«العدل» بكسر العين : نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير .

مصيبي وأخلف لي خيراً منها - إلاّ فعل ذلك به ، قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفي أبو سلمة استرجعتُ وقلت : اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منه ، ثم رجعتُ إلى نفسي ، فقلت : من أين لي خيراً من أبي سلمة ؟ فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أدبغ إهاباً لي ، فغسلت يدي من القرظ ، وأذنتُ له ، فوضعتُ له وسادة آدم حشوها ليف ، فقعده عليها ، فخطبني إلى نفسي ، فلما فرغ من مقالته ، قلت : يا رسول الله ، ما بي أن لا يكون بك الرغبة ، ولكني امرأة في غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلت في السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي ، قالت : فقد سلّمتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتروجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت أم سلمة بعدُ : أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

﴿ إِنِّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرَ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨)

روى الإمام أحمد عن عروة ، عن عائشة ، قال : « قلت : أرايت قول الله تعالى ” إِن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ” قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : بشما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلبون لمناة ، الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ،

(١) الحديث في المسند : ١٦٤١٢ . وقد روى مسلم نحو معناه ، مختصراً من حديث أم سلمة ١ : ٢٥١ . وذكره المؤلف الحافظ هنا ، وحذفناه ، إذ هو في معنى هذا . ثم ذكر حديثاً في الاسترجاع ، رواه أحمد وابن ماجه ، من حديث الحسين بن علي . وإسناده ضعيف جداً . ثم ذكر حديثاً في معنى الاسترجاع أيضاً ، من حديث أبي موسى ، رواه أحمد والترمذي .

وكان من أهل لها يتحرّج أن يطوّف بالصفاء والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرّج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية ؟ فأنزل الله عز وجل ” إن الصفاء والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما “ قالت عائشة : ثم قد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما . أخرجاه في الصحيحين . وفي رواية عن الزهري أنه قال : فحدثت بهذا الحديث أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فقال : إن هذا العلم ، ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجلاً من أهل العلم يقولون : إن الناس — إلا من ذكرت عائشة — كانوا يقولون : إن طوافنا بين هذه الحجرين من أمر الجاهلية ، وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نُؤمر بالطواف بين الصفاء والمروة ، فأنزل الله تعالى ” إن الصفاء والمروة من شعائر الله “ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء^(١) . وروى البخاري : عن عاصم بن سليمان ، قال : « سألت أنساً عن الصفاء والمروة ؟ قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عز وجل ” إن الصفاء والمروة من شعائر الله “ »^(٢) .

وفي صحيح مسلم حديث جابر الطويل ، وفيه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفاء وهو يقول ” إن الصفاء والمروة من شعائر الله “ ثم قال : أبدأ بما بدأ الله به . وفي رواية النسائي : « ابدؤا بما بدأ الله به » . وروى الإمام أحمد عن حبيبة بنت أبي تَجْرَةَ ، قالت : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفاء والمروة ، والناس بين يديه وهو وراءهم ، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي ، يدور به إزاره ، وهو يقول : اسْعُوا ، فإن الله كتب عليكم السعي »^(٣) .

(١) انظر المسند ٦ : ١٤٤ ، ٢٢٧ (حلي) . وفتح الباري ٣ : ٣٩٧ - ٤٠١ . وتفسير الطبري : ٢٣٥٠ ، ٢٣٥١ .

(٢) فتح الباري ٨ : ١٣٢ . والطبري : ٢٣٣٩ .

(٣) المسند ٦ : ٤٢١-٤٢٢ (حلي) . وابن سعد ٨ : ١٨٠ . والدرالمشثور : ١٦٠ .

وقد استدلل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن في الحج ، كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ، ورواية عن أحمد ، وهو المشهور عن مالك . وقيل : إنه واجب وليس بركن . وقيل : بل مستحب . والقول الأول أرجح . لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال : « لتأخذوا غنى مناسككم » . فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج ، إلا ما خرج بدليل . والله أعلم . فقد بيّن الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أى : مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج . وقد تقدم في حديث ابن عباس : أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وتردادهما بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما تفيد مأوها وزادها ، حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك ليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك ونفذ ما عندها قامت تطلب الغوث من الله عز وجل ، فلم تزل تردّد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متدلة خائفة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرّج شدتها ، وأنبع لها زمزم التي مأوها « طعام طعم ، وشفاء سقم »^(١) . فالسعى بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يشبته عليه إلى مماته ، وأن يحوّه من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٦٠ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۝١٦٢﴾

(١) اقتباس من حديث « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » . رواه ابن أبي شيبة والبخاري ، من حديث أبي ذر - كما في الجامع الصغير .

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب ، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم أخبر أنهم يلغهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء — فهؤلاء بخلاف العلماء ، فيلغهم الله ويلغهم اللاعنون . وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً ، عن أبي هريرة وغيره ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » ^(١) . والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : « لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً » إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى الآية . وروى ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فقال : إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه ، فيسمع ضربه كل دابة غير الثقلين ، فتلعه كل دابة سمعت صوته ، فذلك قول الله تعالى " أولئك يلغهم الله ويلغهم اللاعنون " يعني دواب الأرض . ورواه ابن ماجه ^(٢) . وقد جاء في الحديث : « إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » ^(٣) . وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلغنه الله والملائكة والناس أجمعون . واللاعنون أيضاً ، وهم كل فصيح وأعجمي ، إما بلسان المقال أو الحال ، أولو كان له عقل ، أو يوم القيامة . والله أعلم . ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال " إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا " أي : رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا كتموه " فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم " . وفي

(١) رواه أحمد في المسند : ٧٥٦١ ، من حديث أبي هريرة . وقد فصلنا تخريجه هناك . ورواه ابن حبان في صحيحه : ٩٥ بتحقيقنا . والحاكم في المستدرک : ١ : ١٠١ .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور : ١ : ١٦٢ ، ونسبه لابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وهو في ابن ماجه : ٤٠٢١ مختصراً .

(٣) هو جزء من حديث ، رواه الترمذي : ٣ : ٣٨٠ - ٣٨١ ، عن أبي الدرداء . وذكر شارحه أنه رواه أيضاً أحمد ، والداري ، وأبو داود ، وابن ماجه .

هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .
وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم . ولكن هذا
من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة ، صلوات الله وسلامه عليه .
ثم أخبر تعالى عن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن " عليهم لعنة الله
والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها " أى : فى اللعنة البالغة لهم إلى يوم القيامة ،
ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم ، التى " لا يخفف عنهم العذاب " فيها ، أى :
لا ينقص عما هم فيه " ولا هم ينظرون " أى : لا يغير عنهم ساعة واحدة
ولا يفتر ، بل هو متواصل دائم . فنعوذ بالله من ذلك .

﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣)

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ولا عديل له ، بل هو الله
الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وقد تقدم
تفسير هذين الاسمين فى أول الفاتحة . وفى الحديث عن أسماء بنت يزيد بن
السكك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين
الآيتين " وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " و « الم الله لا إله إلا هو
الحى القيوم » (١) .

ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السموات والأرض وما
فيهما وما بين ذلك ، مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته ، فقال :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ
الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِيفِ الرِّيحِ
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤)

(١) رواه أحمد فى المسند ٦ : ٤٦١ (حلبى) ، بنحوه . ورواه أبو داود : ١٤٩٦ ،
وهذا لفظه . قال المنذرى : « وأخرجه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حديث حسن » .
وهو فى ابن ماجه : ٣٨٥٥ .

يقول تعالى " إن في خلق السموات والأرض " تلك في ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلكها ، وهذه الأرض في انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرائها وما فيها من المنافع ، " واختلاف الليل والنهار " هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة ، كما قال تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ ، وتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان ، كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ ، أى : يزيد من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا " والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس " أى : في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب ، لمعاش الناس ، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء " وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها " كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ . " وبث فيها من كل دابة " أى : على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين ﴾ . " وتصريف الرياح " أى : فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي بمبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه وتارة تجمععه ، وتارة تفرقه وتارة تصرفه . " والسحاب المسخر بين السماء والأرض " يسخر إلى ما يشاء من الأراضى والأماكن كما يصرفه تعالى " لآيات لقوم يعقلون " أن في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى . كما قال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُم مِّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أنداداً ، أى : أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه . وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : « قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . وقوله « والذين آمنوا أشد حُباً لله » ، ولحبهم لله وتمايم معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ويلجؤون في جميع أمورهم إليه . ثم توعده تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك ، فقال « ولو يرى الذين ظلموا إِذْ يرون العذاب أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : أن الحكم له وحده لا شريك ، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبيه وسلطانه « وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » كما قال : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ . يقول : لو علموا ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال . ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرئ المتبوعين من التابعين ، فقال « إِذْ تَبَرَّأُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ . ويقولون : ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ . والجن أيضاً تبرأ منهم ويتصلون من عبادتهم لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم

القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿ . وقال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً ﴾ . وقال الخليل لقومه : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعنُ بعضُكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أن نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يُجزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ . وقوله ” ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب “ أى : عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً . وقوله ” وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتروا منا “ أى : لو أن لنا عودةً إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلا نلتفت إليهم ، بل نوحّد الله وحده بالعبادة ؟ ! وهم كاذبون في هذا ، بل لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه ، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك . ولهذا قال : ” كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم “ أى : تذهب وتضمحل . كما قال تعالى : ﴿ وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ ، الآية . وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴾ ، الآية . ولهذا قال تعالى ” وما هم بخارجين من النار “ .

تم الجزء الأول

من

﴿ عمدة التفسير ﴾

الجزء الثانى أوله قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً ﴾

الآية : ١٦٨ من سورة البقرة

مسند

الجزء الأول

من (عمدة التفسير) *

جابر بن عبد الله ٤٠ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ١٥٢
١٩٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧
جبير بن مطعم ٦٢
جری بن کلیب عن رجل من بني سليم ١٤٢
ابن جريج (مرسل) ١٦٤
أبو جعة الأنصاري ٩٨
جندب بن عبد الله ٤٥ ، ٤٧ ، ١٤١ ، ٢٠٠
الحارث بن الحرث الأشعري ١١٧
حبيبة بنت أبي تجرة ٢٧٧
حذيفة بن ايمان ١١٦ (هـ) ١٤٣
حسان بن ثابت ١٧٧
الحسين بن علي ٢٧٦ (هـ)
حفصة أم المؤمنين ١٩٩
خزيمة بن ثابت ١٥٥
أبو الدرداء ١٤٠ ، ١٨٢ ، ٢٧٩
أبو ذر ٦٤ ، ٦٥ ، ١٠٩ ، ١٣٤ ، ١٧٣
رافع بن خديج ٢٤٠
أبو رزين العقيلي ١٦٦
أبو رمثة ٢٦٩

أبي بن كعب ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٣
أسامة بن زيد ١٤٢ ، ١٥٥ ، ٢١٢
أسامة بن عمير ٦٩
الأسود بن سريع ٧٥
أسيد بن الحضير ٨٩
أبو أمامة الباهلي ٩٠ ، ١٣٥ (هـ) ٢٥٣
أنس بن مالك ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٣١ ،
١٤١ ، ٢١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧
أوس بن حذيفة ٤٩
البراء بن عازب ٣١٠ ، ٣٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩
بريدة بن الحصيب الأسلمي ٨٩ ، ٢٣٩
بسر بن أرطاة ٣١٨
أبو بكر الصديق ٤٦
أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام عن
رجال من أهل العلم ٢٧٧
أبو تميم عن رديف النبي صلى الله عليه وسلم ٦٨
ثابت بن قيس بن شماس ٨٩
ابن جابر = عبد الله بن جابر

* هو فهرس للأحاديث المرفوعة - وما في حكمها - التي في هذا الجزء ، على مسانيد الصحابة ، بترتيب أسمائهم على الحروف . وما كان عن صحابي مبهم ذكر في اسم التابعي الذي رواه . وكذلك الحديث المرسل يذكر باسم التابعي .

ولم نذكر أقوال الصحابة التي هي تفسير للآيات لكثرةها ، وهي التي بنى عليها أكثر التفسير المأثور .

١٤٨ ، ١٤٣ ، ١٣٨ ، ١٣٦ ، ١١٦
 ١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥٠ ، ١٤٩
 ١٨٣ ، ١٧٩ ، ١٧٠ ، ١٦٤ ، ١٥٩
 ٢١٥ ، ٢١٠ ، ١٩٢ ، ١٨٦ ، ١٨٥
 ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٦
 ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٣١ ، ٢٢٥
 ٢٥١ ، ٢٤٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٠
 ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٢
 عبد الله بن عمر ٤٧ ، ٧٥ ، ٩٩ ، ١٦٨ ،
 ١٦٩ - ١٧٠ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٠
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦
 ٢٧٢
 عبد الله بن عمرو ١١٤ ، ١٨٠ ، ٢٢٦ ،
 ٢٥١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣
 عبد الله بن مسعود ٤٢ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٦ ،
 ٨٨ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١٥٣ ،
 ١٥٨ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٥٥ - ٢٥٦
 عبد الله بن مغفل ٦٨
 عبد الرحمن بن عوف ٧٠
 عدى بن حاتم ٨٤
 العرياض بن سارية ٢٥٣
 عطية السعدي ٩٥
 عقبة بن مرثد ٩١
 علي بن أبي طالب ٥٣ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٦ ،
 ١٤٣ ، ٢٢٠ ، ٢٤٦
 ابن عمر = عبد الله بن عمر
 عمر بن الخطاب ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ٨٣ ،
 ١٤٣ ، ١٥٤ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ،
 ٢٢٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦٤
 ٢٧٥ ، ٢٦٦
 عمر بن أبي سلمة ٦٩
 عمران بن حصين ٢٧٣
 كعب بن مالك ٢٧٤
 ابن مسعود = عبد الله بن مسعود

ابن الزبير = عبد الله بن الزبير
 أبو زهير الثقفي ٢٦٥
 سعد بن مالك = أبو سعيد الخدري
 سعد بن أبي وقاص ٢٠٦
 أبو سعيد الخدري ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٩ ،
 ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ٢٤٠
 ٢٥١ ، ٢٦٣
 سعيد بن زيد ٦٩ ، ١٥١
 أبو سعيد مولى ابن عامر ٥٤
 أبو سعيد بن الملقى ٥٤ ، ٢٦٧
 سعيد بن أبي هلال (مرسل) ٩١
 سلمان الفارسي ١٥٩
 أبو سلمة بن عبد الأسد ٢٧٥
 أم سلمة أم المؤمنين ٦٦ ، ٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦
 سليمان بن صرد ٦٣
 سهل بن سعد ٨٨ ، ٢٥٦
 أبو شريح العدوي ٢٤١ (هـ)
 صفية بنت شيبة ٢٤١ (هـ)
 صهيب الرومي ٢٧٣
 الطفيل بن مخبرة ١١٥
 عامر بن ربيعة ٢٢٠
 عائشة أم المؤمنين ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ١٢٥ ،
 ١٧٧ ، ١٨٩ - ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢١٤
 ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
 ٢٦٣ ، ٢٧٦
 عبادة بن فصامت ٧٨
 ابن عباس = عبد الله بن عباس
 عبد الله بن جابر ٥٦
 عبد الله بن الزبير ٢٤٩
 عبد الله بن زيد بن عاصم ٢٤٠
 عبد الله بن شقيق ، عن سمع رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ٨٤
 عبد الله بن عباس ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
 ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ،

٢٢٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢٠٥ - ٢٠٤

٢٥٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣١

٢٧٩ ، ٢٧٢ ، ٢٥٧

واثلة بن الأسقع ٩٠

وائل بن حجر ٨٦

الأحاديث التي لم يذكر صحابها

٩١ ، ٩١ ، ٧٢ ، ٦٩ ، ٤٨ ، ٤٢

(هـ) ٩٧ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٨٤

١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢١٧

٢٣٩ ، ٢١٨

معاذ بن جبل ٤٢ ، ٦٣

معاوية بن حيدة القشيري ١٤٥

المغيرة بن شعبة ٢٠٩

أبو موسى الأشعري ٦٠ ، ٨٧ ، ١٠٠ ،

٢٢٢ ، ٢٤٢ ، ٢٧٦

النواس بن سمعان ٨١ ، ٩٠

أبو هريرة ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ،

٦٠ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٧٨ - ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٩٢ ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ،

١٤٤ - ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ،

١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٨٨

فهرس

الجزء الأول

من

﴿ عمدة التفسير ﴾ *

ص	
٥	خطبة الكتاب
٨	منهج الاختصار
١٤	كلمات لابن كثير بشأن الإسرائيليات
١٩	كلمة عظيمة لابن عباس في التنفير منها
٢٠	صفة مخطوطة الأزهر من تفسير ابن كثير . وهي التي اعتمدها في التصحيح
٢٢	ترجمة الحافظ ابن كثير
٢٨	حوادث هامة شخصية لابن كثير . مقتبسة من تاريخه الكبير
٣٤	مؤلفاته
٣٧	مصادر الترجمة
٣٩	خطبة الحافظ ابن كثير
٤١	أحسن طرق التفسير : بالكتاب ثم بالسنة .
٤٢	ثم تأتي أقوال الصحابة
٤٤	أحسن ما يكون في حكاية الخلاف
٤٤	فصل : في آراء التابعين
٤٥	« فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام »
٤٦	أما في عصرنا : فهؤلاء الذين يلعبون ويعشون ، تبعا لأهواء سادتهم ومعلمهم
٤٩	مقدمة الحافظ ابن كثير
٥٠	معنى « السورة » و « الآية »
٥١	فصل : ليس في القرآن أعجمي إلا الأعلام
٥٢	سورة الفاتحة (١)
٥٤	فصل الفاتحة

(*) نفصل في هذا الفهرس بعض الأبحاث المهمة ، دون استيعاب .

- ٥٦ تفاضل بعض الآيات والصور على بعض
- ٥٨ قراءة الفاتحة في الصلاة
- ٦١ الاستعاذة
- ٦٤ فصل : في معنى « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »
- ٦٥ البسمة : وهل هي آية من كل سورة ؟
- ٦٨ فصل : في فضلها . والبدء في تفسيرها
- ٧٣ « الحمد لله رب العالمين » - إلى آخر الفاتحة
- ٨٥ فصل : فيه إجمال معاني الفاتحة
- ٨٦ فصل : في استحباب « آمين » عقبها
- ٨٨ سورة البقرة (٢)
- ٨٨ ما ورد في فضلها
- ٨٩ ما ورد في فضلها مع آل عمران
- ٩١ ما ورد في فضل السبع الطول
- ٩٢ البدء في تفسير سورة البقرة
- ٩٢ الكلام في الحروف المقطعة في أوائل السور
- ٩٤ أول البقرة بعد الحروف المقطعة
- ١٠٢ معنى ختم الله على القلوب والأسماع ، والرد على الزنجشري في اعتزاله
- ١٠٤ النفاق والمنافقون وصفاتهم
- ١١٣ المؤمنون صنفان . والكافرون صنفان . والمنافقون صنفان
- ١١٥ الدلالة على وحدانية الله وألوهيته بما خلق من الخلق
- ١١٧ التحدى بأعجاز القرآن
- ١١٨ كلام عظيم لابن كثير في وجوه الإعجاز
- ١٢٢ ربيع : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ﴾
- ١٢٣ ضرب الأمثال في القرآن
- ١٢٨ خلق آدم وكلام الملائكة . ثم أمر الملائكة بالسجود
- ١٣٤ أكل آدم وزوجه من الشجرة . والتنديد بمن يزعم أن حواء خدعت آدم
- ١٣٧ أمر بني إسرائيل بالدخول في الإسلام . وأنهم يكتُمون الحق
- ١٤٠ ربيع : ﴿ أتأمرون الناس بالبر ﴾
- ١٤٢ الاستعاذة بالصبر والصلاة
- ١٤٥ تذكير اليهود بنعم الله عليهم . والنهي عنهم في كفرهم أولاً وآخرأ
- ١٥٢ فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في ثباتهم وصبرهم
- ١٥٥ ربيع : ﴿ وإذا استسقى موسى ﴾
- ١٥٧ اليهود : ضربت عليهم الذلة والمسكنة

١٦٣ قصة البقرة التي أمروا بذبحها . وتعتهم ثم قسوة قلوبهم

١٦٨ ربع : ﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾

١٨٣ اليهود : أحرص الناس على حياة

١٨٦ عداوتهم للملائكة

١٩٠ اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان

١٩٥ الحديث الوارد في قصة هاروت وماروت . وبيان أنه حديث لا أصل له

١٩٨ تكفير من تعلم السحر . وأن حد الساحر القتل

٢٠٠ الكلام في شأن السحر ، وبعض أنواعه

٢٠٣ (لا تقولوا راعنا)

٢٠٥ ربع : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ . وأحكام النسخ

٢٠٩ النبي عن كثرة الأسئلة

٢١٣ غرور اليهود والنصارى . وتبادلهم المطاعن

٢١٨ بدء الكلام في شأن القبلة

٢٢١ تنزيه الله سبحانه عن اتخاذ ولد

٢٢٥ (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً)

٢٢٧ (وإن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) والنبي على حال المسلمين اليوم في التقرب إلى أولئك واصطناع تشريعاتهم وقوانينهم الوثنية

٢٣٠ ربع : ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه ﴾ . وما الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم

٢٣٣ مقام إبراهيم

٢٣٧ بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة المشرفة . وتحريم مكة

٢٤٣ قصة إبراهيم وإسماعيل وهاجر ، من صحيح البخاري

٢٤٧ بناء قريش الكعبة قبل البعثة بخمس سنين

٢٥٣ دعوة إبراهيم ببعث الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم

٢٥٦ وصية يعقوب لابنيه

٢٦٠ الجزء ٢ - ﴿ سيقول السفهاء ﴾ . وشأن نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .

٢٧٢ (فاذكروني أذكركم)

٢٧٣ من يقتل في سبيل الله أحياء

٢٧٤ البشرى للصابرين الذين يسترجعون

٢٧٦ ربع : ﴿ إن الصفا والمروة ﴾

٢٧٨ الوعيد على كتمان البيئات والهدى

٢٨٠ الآيات في خلق السموات والأرض - إلخ

٢٨٢ الذين آمنوا أشد حبا لله

٢٨٥ مسند الجزء الأول